
نيل الأماني
في
شرح التهاني
تأليف
الإمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي



تأليف

الإمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي

المتوفى سنة ١١٠٢ هـ

على

قصيدته الدالية في مدح شيخه الغوث الكبير

أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي

المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ

رضي الله تعالى عنهما ونفع بعلومهما المسلمين آمين

إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً

[حديث شريف]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

قال الشيخ الإمام والصدر الهمام، حجة الإسلام، إمام الطريقة، ومعدن الحقيقة الأجلّ: خاتمة المحققين، علم المهتدين أبو علي شيخنا الحسن بن مسعود اليوسي رضى الله تعالى عنه:

الحمد لله أهل الحمد والثناء، ذى العظمة والكبرياء والسناء. وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا المحمود فى الأرض والسماء، وعلى آله وأصحابه ذوى القدر الأسمى والمنزلة الشماء

أما بعد: فقد كنت سنة سبع وسبعين قلت قصيدة أمتدح بها شيخنا الربانى وأستاذنا العرفانى، أوحد زمانه فى العلم والدين. وشيخ أوانه فى تربية المريدين، سيدنا أبا عبد الله محمد بن ناصر الدرعى. متع الله بوجوده، وأسبغ عليه وعلينا سوابغ جوده، وأهنيه بمقبله من حجته الثانية، فرأيت كثيرا من رواتها تنبو أفهامهم عنها، ويستغربون كثيرا منها، فيعدون منها الدهش[1] ضرسا[2] والسلس[3] شكسا[4]، وما ذلك إلا لعموم الغباوة والجهل على أبناء الدنيا وتقاصر هممهم عن العلوم، ولا سيما علم اللسان. فأردت أن أصنع تقييدا مختصرا يبين لحفاظها ما عسى أن يشكل من ألفاظها غير متصد لتقدير معانيها وتحرير ما لم يكن عنه بد من مبانيها. إذ ذاك يتسع ويطول، ويفتقر إلى أزمان وفصول، فإن القصيدة بحمد الله تعالى من بركة الممدوح بها

(١) دهش كفرح: تحير ووله مع شدة اللذة من سياقها الأنيق المطرب
(٢) الضرس: الصعب.
(٣) السلس ككتف: السهل اللين المنقاد من معانيها ومبانيها.
(٤) الشكس: الصعب العسر.

قد اشتملت من العلم على أنواع ، فى كل منها مجال رحب للركض والإيضاع (١)

فمن فنون العرب ثمانية : النسيب ، والأمثال ، والحكم ، والوصايا ، والوقائع ، والمديح ، والاستعطاف ، والتهنئة . وفيها غير ذلك كالأوصاف ، والافتخار ، وسير المطايا ونحو ذلك .

ومن فنون التصوف أربعة : الوعظ ، وشرح المملكة الإنسانية ، وآداب السلوك ، ومنازل السالكين ، إلى ما يتبع ذلك كنسب الطريقة ، وصفة القدوة ونحو ذلك . وفيها مع ذلك جملة وافرة من اللغة ينتفع بها حفاظها .

هذا إلى ما احتوت عليه من براعة المطلع ، وحسن التخلص والانتهاء ، إلى ما ركبت عليه من ضروب البلاغة ، وما دبجت عليه من أفنان البديع ، وكل ذلك بحمد الله تعالى على أبلغ وصف وأبدع رصف ، وحسبك منها أنها قد طالت إلى نحو خمسمائة بيت وأربعين بيتا ، ولا يوجد فيها رويٌّ مكرر ، ولا ضرورة تستنكر . وإذا تأمل ذلك كله وغير ذلك من محاسنها اللبيب المنصف عدها كرامة من كرامات الشيخ الممدوح بها ، فإنى والله ليس لى فيها قوة ولا حول ، وإنما هى نفحة من نفحاته ، وبركة من بركاته ، وإنما هو كما قال أبو الطيب :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه … وإن لم تشأ تملى علىّ فأكتب

بل كما قال الآخر :

لاتنكرن إذا أهديت نحوك من … علومك الغر أو آدابك النتفا

فقيم الباغ قد يهدى لمالكه … برسم خدمته من باغة التحفا

وأصل هذا المعنى لأبى الحسن بن طباطبا حيث قال :

لاتنكرنْ إهداءنا لك منطقا … منك استفدنا حسنه ونظامه

فالله عز وجل يشكر فعل من … يتلو عليه وحيه وكلامه

ومن محاسنها أن نسيبها جار على أسلوب معظم القدماء من بكاء منازل الأحباب والأثر على التحقيق لا على مجرد الفرض ، كما هو حال معظم المحدثين والله الموفق . وهذا أولها :

---

(١) الركض : استحثاث الفرس للعدو وتحريك الجناح . والإيضاع : الإسراع فى السير .

عَرِّجْ بِمُنْعَرِجِ الهِضَابِ الوُرَّدِ بَيْنَ اللِّصَابِ وَبَيْنَ ذاتِ الأَرْمَدِ

التعريج : حبس المطية مثلا على المنزل ؛ والمنعرج : المنعطف ؛ والهضاب : الجبال المنبسطة على الأرض جمع هضبة . والورّد : جمع وارد ، وهو المشرف على الماء والداخل فيه ؛ واللصاب : الشعاب الضيقة جمع لصب بكسر اللام ؛ والأرمد : تراب على لون الرماد . والمعنى : أن الشاعر جرد من نفسه مخاطبا فأمره بحبس الركاب والوقوف عند هذه الجبال بين تلك الشعاب وبين تلك الأرض الرمداء التراب ، لأنها كانت منازل الأحباب ، وهى منازل معلومة فى أرضه ومنازل لقومه ، وكذا ما ذكر بعد هذا البيت ، ووصف الجبال بالورّد لأن أسافلها متصلة بنهر هناك فشبهها بالورّد . وفى البيت براعة المطلع لاعتبار الهضاب بهضاب العلم والدين الواردين من عين الحقيقة وبحر الشريعة كالشيخ الممدوح بها رضى الله تعالى عنه . والتعريج : حبس مطايا الأرواح والقلوب والأبدان على مخالطتهم ومودتهم وخدمتهم والاستفادة منهم ، والاقتداء بهم ، وشكرهم على ذلك بالأفعال والأقوال ، ومن الشكر الثناء عليهم كهذه القصيدة فى هذا الشيخ ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ثم قال :

وأجِزْ مِنَ الجِزْعِ الَّذى بِحَضِيضِهِ أَجْدَاثُ أَصْدَاءِ العَشِيرِ الهُمَّدِ

الإجازة والجواز بمعنى ، تقول جزت المكان وأجزته ، وكثيرا ما يفرق بينهما فيقال : جاز المكان ، إذا سار فيه وسلكه ، وأجازه إذا خلفه وأنفذه ؛ والجزع بالكسر : منعطف الوادى ومنقطعه الذى ينجزع فيه : أى ينقطع ؛ والحضيض : القرار من الأرض حيث ينقطع الجبل ؛ والأجداث : القبور جمع جدث بفتحتين ؛ والأصداء : أجساد الموتى جمع صدى بالفتح والقصر ؛ والعشير : المعاشر والصديق والقريب والإلف ، واللام فيه للجنس ولذا وصف بالهمد : أى الأموات جمع هامد ، نحو قوله تعالى ـ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ـ ومن كلام العرب : أهلك الناس الدينار الصفر والدراهم البيض . ومعنى البيت : أنه أمره أيضا أن يجيز البلد : أى يسلكه أو يقطعه من

ناحية هذا الوادى الذى كانت بأسفله قبور العشائر والأحبة الهالكين ، وهذا أيضا موضع معلوم كانت فيه مقابر قومه ، ومنهم والده رحمة الله تعالى عليه وعلى جميع المؤمنين . ثم قال :

وارْبَعْ عَلى الرَّبْعِ المُحيلِ هُنَيْهَةً ... إنَّ الرُّبُوعَ رَبيعُ قَلْبِ الأكْمَدِ

الربع : الوقوف ، ومنه قول العرب : اربع على نفسك وعن ظلعك ، وهو مصدر قولك ربع يربع ، والربع : المنزل ؛ والمحيل : الذى أتى عليه حول ، يقال أحال فهو محيل ومحول ؛ وهنيئة : ساعة ، وفى نسخة : تعلة ، وهى ما يتعلل به ؛ والربيع : المطر والزمان الذى يكون فيه النَّور والكمأة ، وأطلق على ما ترتاح إليه النفس ، كما فى الحديث « اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبى » وذلك لأن النفوس ترتاح عند الربيع وتنبسط . والأكمد : المحزون حزنا شديدا . ومعنى البيت : الأمر بالوقوف والمكث عند منازل الأحبة تعللا بها ، فإنها ربيع القلوب وريحان النفوس . ثم قال :

وَقِفِ المَطِيَّ عَلى دِيارِ أحِبَّةٍ ... كانُوا الغِياثَ منَ الزَّمانِ الأنْكَدِ

وقف المطايا : حبسها ، تقول وقفها والأمر منه قف ؛ وديار الأحبة : منازلهم ،وفى نسخة :منازل جيرة جمع جار ،والغياث :اسم معنى بمعنى الإغاثة ، وهو بكسر الغين وتخفيف الياء ، ويطلق على الشخص مبالغة فيقال : فلان غياث قومه : أى هو الذى يستغيثون به فيغيثهم ؛ والزمان الأنكد : الضيق أو العسر أو المشئوم . ومعنى البيت ظاهر . ثم قال :

وإذَا مَرَرْتَ فَحَيِّ حيِّي إنْ هُمُ ... أذِنُوا إلَيْكَ أوِ المَنازِلَ تَرْدُدِ

المرور بالموضع : المجاوزة عليه ؛ والتحية : السلام ، يقال حيه : أى سلم عليه ؛ والحى : البطن من الناس ؛ وأذن إليه بكسر الذال : استمع له . ومعنى البيت : أنه يقول إن مررت بمنازل حيى فحيهم : أى سلم عليهم إن وجدتهم بها فاستمعوا إليك ، وإن لم تجدهم فحى المنازل : أى سلم عليها تردد عليك السلام ، لأنها لاتتركك من كثرة عرفانها لك . ثم قال :

قَوْمٌ عَزِيزٌ جارُهُمْ لَكِنَّهُمْ ... يَسْلُو بِهِمْ عَنْ وَالِدَيْنِ وَمَوْلِدِ

السلوان : النسيان ، تقول سلا عن حبيبه وسلاه وسليه سلوا وسلوانا إذا

تسيه . ومعني البيت : أنه وصف القوم الذين ذكروا قبل بوصفين : أحدهما المنعة وعزة الجناب ، وكنى عن ذلك بعزة الجار . والثانى الإحسان وكرم الأخلاق ، وكني عن ذلك بكون الغريب يسلو بهم عن والديه ، ولا أحب منهما ، وعن وطنه الذى هوأول أرض مس جلده ترابها وناهيك بنسيانه ذلك، وهذا تأكيد المدح بما يشبه الذم . ثم قال :

من كلّ ذى شَمَطٍ جُذَيْلٍ رائشٍ   رأيا كَسَهْمٍ فى العَوِيصِ مُسَدَّدِ

الشمط : بياض فى شعر الرأس يخالط سواده ، شمط الرجل بالكسر فهو أشمط ؛ والجذيل : تصغير جذل بكسر الجيم ، وهو فى نحو هذا عود ينصب للإبل الجريب تحك به ، ويقال للرجل يرجع إليه ويستشفى برأيه : جذل حكاك والجذيل المحكك ، والتصغير للتعظيم ، ومنه قول الأنصارى : أنا جذيلها المحكك . وقد بسطنا الكلام عليه فى زهر الأكم ،وراش السهم بريشه : ألزق عليه الريش ؛ والرأى : نظر العقل ؛ والعويص:الشديد الصعب من الأمور ؛ والمسدد : المقوّم . ومعنى البيت :أن القوم المذكورين منهم الأشمط يستشفى برأيه ، فكأن آراءه فى كل مشكل سهام مريشة مقومة . ثم قال :

وأشَمَّ مُكْتَهِلٍ كعَضْبٍ باتِرٍ   أعْـدَدْتَهُ للنَّائِباتِ مُجَرَّدِ

الأشم : السيد ذو الأنفة ؛ والمكتهل : الذى صار كهلا ، وهو دون الشيخ ؛ والعضب الباتر : السيف القاطع ؛ وإعداد الشىء : ادخاره لوقت الحاجة إليه ؛ والنائبات : ما ينزل بالإنسان من أمور الدهر ؛ والمجرد : المسلول من غمده . ومعنى البيت : أن منهم أيضا من هو كهل ذوسودد وذو نفاذ فى الأمور كأنه السيف المسلول . ثم قال :

جَوْدٍ لَدَى جُودٍ وَطَوْدٍ شامِخٍ   حِلْمًا وَعَوْدٍ فى الخُطُوبِ سَمَهْدَدِ

الجود بفتح الجيم : المطر الغزير ، والجود بضم الجيم : السخاء ؛ والطود : الجبل ؛ والعود : المسن من الإبل وأصبرها ؛ والسمهدد : الجسيم منها . ومعنى البيت : وصف الكهل المذكور بأنه غاية فى الجود وفى غاية الحلم وفى غاية الصبر والاحتمال عند الخطوب النازلة . وشبهه فى ذلك بثلاثة أشياء : المطر الغزير ، والجبل العظيم ، والعود الجسيم على الترتيب ، ولم نتكلم على ما فى هذا وغيره من أنواع البلاغة للاختصار . ثم قال :

وَفَتى لَهُ إغْناءُ كَهْلٍ مَشْهَداً   وَحِجا المَشِيخَةِ فى حَداثَةِ أمْرَدِ

الفتى : الشاب ؛ والحجا : العقل ؛ والمشيخة : جمع شيخ ؛ والحداثة : الصغر فى السن ؛ والأمرد : غير الملتحى . ومعنى البيت : أن من القوم أيضا من هو شاب ، ولكنه يغنى فى المشاهد : أي مواطن الحرب إغناء الكهول : أى يقوم مقامها ، وهذا على مذهب من يرى تفضيل الكهول والمشايخ : أى على الشبان فى اللقاء ، لما لهم من التجربة والثبات ، وله أيضا عقل المشايخ مع حداثة السن ، ونسب الإغناء للكهول لأنها أقوى ، والحجا للمشايخ لأنها أعقل . ثم قال :

وَقْفٍ عَلَيْهِ نَوَاظِرٌ وَمَسامِعٌ   لَسَناً وَلَيْثٍ فى اللِّقاءِ مُحَرَّدِ

الوقف : الموقوف ، تقول هذا وقف على هذا : أى موقوف عليه ؛ والنواظر : نواظر العيون ؛ واللسن بفتحتين : الفصاحة ، تقول لسن بالكسر فهو لسن ؛ والليث : هو الأسد ؛ والمحرد : المغضب ، تقول حرِد بالكسر غضب . ومعنى البيت : وصف الفتى بأن عيون الناظرين محبوسة عليه لصباحته ومسامعهم مصغاة إليه لفصاحته ، وهو مع ذلك فى المواطن كالأسد إذا غضب شدة بأس وكراهة ملتى ، وهذا آخر التقسيم الذى ذكره ، فإنه قسم القوم إلى شيخ وكهل وشاب ، فاستوفى وأحسن الترتيب . ثم قال :

وَأَفِضْ غُروبَ الدَّمْعِ فى عَرَصَاتِهَا
واسْتَنْجِدَنْ غُرَّ الغَمائِمِ تُنْجِدِ

يقال فاض الماء فيضا : إذا كثر حتى سال ؛ والغروب جمع غرب ، ويطلق على الدلو العظيمة ، وعلى عرق فى العين ، وعلى الدمع ، وعلى سيلانه وانصبابه ، والعرصة : الرحبة لابناء فيها ؛ والاستنجاد : الاستعانة ؛ وغُرُّ جمع غراء وأغر : وهو الأبيض والأشهر من كل شىء . ومعنى البيت : الأمر بافاضة غروب الدمع : أى دلائه على الاستعارة ، أو عروقه التى تسقى ، أو الدموع المنهلة على إضافة الصفة للموصوف فى عرصات تلك الديار : أى ديار الأحبة المذكورة أولا ، وأن يستعين بالغمائم لتعينه على البكاء ، وفيه أن دموعه وقطر الغمائم سواء . ثم قال :

فلَعَلَّ عَبْرَةَ ساعَةٍ يُشْفَى بِهَا   إرْبابُ وَجْدٍ فى الجَنانِ مُخلَّد

العبرة بفتح العين : الدمعة ؛ والإرباب : الإقامة ، يقال : أرب بالمكان إربابا : أقام به ؛ والوجد بالفتح : الحزن ؛ والجنان : بالفتح القلب ؛ والمخلد : المدام . وفى نسخة : محول مستوقد : أى حزن طويل مشتعل . يقول : أكثر من البكاء لعلّ البكاء يشفى ما بالفؤاد من الحزن الدائم . ثم قال :

ثمّ اسْقِها فلَطالَما أسْقَيْتَها   بَدَلَ الحَيا بِمَعِينِ عينيكَ تَثْأَدِ

السّقى : معروف ، تقول سقيت فلانا : إذا رويته الماء وكذلك الأرض ، وتقول أسقيته : إذا دعوت له بالسّقى فقلت : سقاه الله ، هذا هو الأفصح وربما كان بمعنى الأوّل ؛ والحيا : المطر ؛ والمعين : الجارى ؛ والثأد : الندىّ أومكان تبريد . ومعنى البيت : أنه يقول اسق هذه المنازل بمعين عينك : أى بالدمع بدل المطر تثأد بذلك ، فلطالما كنت تدعو لها بالسّقى قبل أن تقف عليها ، فالمجرور ، أعنى بمعين متعلق باسقها . ومن الفرق بين سقى وأسقى قوله :

سقى الله جيرانا بأكثبة الحمى   من العارض الهتان صوب عهاد
بلاد بها حلّت سُليمى وأهلها   فحلّ فؤادى عندها ووِدادى
وإنى متى أسقيتها أو بكيتها   هياما فما أسقيت غير فؤادى

ثم قال :

وَطَنٌ عَهِدْتُ بِهِ الشَّبِيبَةَ والصِّبا   إلْفَيْنِ لَيْسَ أخُوهُمَا بِمُنَكَّدِ

الوطن : محلّ الإقامة ؛ والشبيبة : الشباب ؛ والصبا بالكسر والقصر : ما يكون فيه الجهل والفتوّة ؛ والصباء أيضا بالفتح والمدّ : اللعب ، ويصحان معا هنا ؛ والإلف : الصديق المألوف ؛ والمنكد : المضيق ، من نكد عيشه بالكسر ضاق . ومعنى البيت : أنه يصف الوطن الذى وُلد فيه ، وقضى فيه أيام الشباب والصبا . وهما ألذّ شىء إلى النفس : أى تلك المواطن السابقة هى وطنى . ثم قال :

وَرَفَلْتُ فى أثْوابِ عَيْشٍ باسِقٍ   عَذَباتُهُ أنِقِ المُحَيَّا أرْغَدِ

يقال رفل يرفل : إذا جرّ ثوبه وتبختر : والباسق : الطويل ، بسقت النخلة بسوقا : طالت ؛ وعذب كل شىء بفتحتين ، وعذبته : طرفه ؛ والأنق :

السرور والفرح ومحبة الشيء والإعجاب به . وأنِق بالكسر فهو أنق : والمحيا : الوجه كله أو جزؤه ؛ والأرغد : الواسع . ومعنى البيت أنه يقول : فى ذلك الوطن أتبختر فى عيش واسع ؛ غير أنه تارة يتخيل العيش كاللباس فينسب إليه الرفلان ؛ وتارة كالحدائق المثمرة فيجعل أشجاره مرتفعة طويلة الأعالى ؛ وتارة كالشخص المأنوس به ؛ فيجعل وجهه معجبا أو فرحا مستبشرا . وهذا كله تلوّن فى الاستعارة التخييلية .

واعلم أنه افتتح القصيدة أولا عربية غير مولدة عن نقش أهل البدو ولبسة العباء وخرشنة اليرابيع ومضغة القيصوم : أى بالمصافاة ورعاة اليصقير وحلبة الشوّل ونفوسهم ؛ وهم أولى بالإسجال وأحقّ بالقبول والإقبال ، لأنهم فرسان البراعة ؛ وقادة الناس فى هذه الصناعة ، غير أن ألفاظهم اليوم عادت مستودعة ومذاهبهم أصبحت منكرة ، وذلك لغلبة العجمة على أهل الزمان ، فاقتصروا على ألفاظ محلولة ، وتراكيب مصنوعة يتداولونها بينهم ، ويعدّون ما سواها غريبا وحشيا ، ولم يعلموا أن الغريب إنما يعرف بعد معرفة المستعمل من لغة العرب بالتبحر فيها والاطلاع على معظمها ، وإلا فالجهول المجتنى بسقط الريح جميعها عنده غريب ، فلذلك أراد أن يسكن من ذلك النفس فى هذه الأبيات شيئا ما ، تنفيسا عن الطالبين وإحماضا للمتعاطين ، وينجو منحى نفس أهل الحضر لبسة السندس وقطفة النرجس ؛ مع التزام الفصيح المستحسن ، والتحرّز عن المبتذل المستهجن . ثم قال :

وَقَطَفْتُ مِنْ زَهْرِ السُّرُورِ نَوَاضِرًا
وَهَصَرْتُ مِنْـهُ بِالغُصُونِ المُيَّدِ

قطفت النَّور : جنيته ؛ والناضر : الحسن الناعم ؛ والهصر : الكسر ؛ والميد جمع مائد : وهو المتمايل من النعمة . ومعنى البيت : أنه يصف ما نال من السرور واللذّات فى ذلك الموطن ، وجعل لذلك أزهارا وغصونا على سبيل التخييل . ثم قال :

أيَّامَ كُنْتُ رَخِيَّ بالٍ فى ذَرَى حَدِبٍ عَلَى مُوَسِّنٍ ومُوَسِّدِ

الرخيّ البال : الناعم القلب الفارغ من الهمّ ، وأصله من الرخاء ، وهو

سعة العش، يقال رخو بالضم ، ورخا يرخو ، ورخا يرخى . ورخى يرخى فهو رخو ؛ والذرى بالفتح : الساحة والحمى ؛ والحدب بفتح فكسر : المدافع . حدب عنه : دافع عنه حدبا ؛ والموسن : المنوم من السنة ، وهى أول نوم ؛ والموسد : جاعل الوسادة . ومعنى البيت : أنه يقول : إن ذلك العيش وذلك السرور كان أيام كان رخى البال فارغا من الهموم والأشغال لكونه كان فى كنف والد يدافع عنه كل غم ويوسده وينومه ، وذلك أيام الصبا ، أيام الصحة والفراغ والعيش الهنى والقلب الخلى . ثم قال :

أَلْهُو بأَحْدَاثِ الزَّمانِ مُرَاغِما   لِأُنُوفِها عَبَثَ الوَلِيدِ المُسْتَدِى

اللهو : معروف ؛ وأحداث الزمان : ما ينزل بالإنسان ، وهى فى الأصل شاملة لما ينزل من خير وشر . ولكن إذا أطلقت فى هذا المعنى أريد بها خصوص حوادث الشر والهم ؛ والمراغمة : المغالبة والمقاهرة من قولك رغم أنفه بالكسر إذا التصق بالرغام أى التراب واستعمل فيها إذا هان وذل ، وأرغم الله أنفه : فعل به ذلك ، وأرغمت فلانا كذلك ولم ترد به المفاعلة فى نحو هذا وإن كانت أصله ؛ والعبث بفتحتين : هو اللعب بلا مبالاة ؛ والوليد : الصبى ؛ والمستدى : اللاعب بالجوز ، يقال سدى الصبى بالجوز واستدى بها ، وزدى وازتدى إذا كان يرمى بها لاعبا . ومعنى البيت : أنه كان فى أيام الصبا لايبالى بنوائب الدهر وأحداثه أقبلت أوأدبرت ، فهو يضحك منها ويلعب كما يلعب الصبى بالجوزة . وفى ذلك رغم أنوفها حيث لم تجد سبيلا إلى التأثير لافى بدنه لرفاهيته وقيام غيره عنه بما يحتاج إليه ، ولا فى قلبه لغرة الصبا وجهالة الفتوة وعدم التهمم والتفكر لافى الحال ولا فى المآل . ثم قال :

مُرْخَى العِنانِ يَرُوضُ كُلَّ لُبانَةٍ   مَرِحا بِها مَرَحَ الفَلُوِّ المُخْضَدِ

إرخاء العنان : كناية عن الإطلاق وعدم الوازع والزاجر والآمر ، وذلك فى الصبا موجود من جهة الشرع إذ القلم مرفوع عنه إذ ذاك ، ومن جهة العادة إذا كان مرفها ، واللبانة : الحاجة تقضى ولكن من غير فاقة بل بحكم الشهوة واقتراح النهمة فقط ، فهى أعلى من مطلق الحاجة وأخص؛ والمرح بفتحتين :

الأشر والبطر والتبختر والاختيال ، والفلوّ على مثال عدو : المهر هنا ؛ ويقال أخضد المهر إذا جاذب المزود نشاطا ومرحا . ومعنى البيت : أنه وصف وصفا آخر من الانطلاق على اللذات مع غاية السرور والمرح . ثم قال :

لا أختشي ظُفُرًا ولا نابا ولا أشجَى لِبَيْنٍ مُغورٍ أو مُنْجِدِ

أصل الظفر والناب للمفترس كالأسد ، وهما آلته المخوفة منه ؛ ثم يقال : فلان أصابه ظفر الدهر ونابه ، أو هو بين الظفر والناب . وذلك على الاستعارة التخييلية بأن يجعل غير الأسد أسدا ، كما يقال : أنشبت المنية أظفارها بفلان ؛ والشجا : الحزن ؛ والمغور : سالك الغور ، وهو ما انخفض من البلاد ؛ والمنجد سالك النجد ، وهو ما ارتفع من الأرض ، وكان ذلك فى بلاد العرب معلوما ويصح أن يطلق فى غيره . ومعنى البيت : أنه وصف أيضا نفسه بوصفين : أحدهما أنه آمن فلا يختشى ناب الدهر ولا ظفره . وذلك لكونه مكفيا . والثانى أنه خلى الفؤاد من الحزن ، فلا يسأل عمن طلع ولا من هبط ، وذلك لعدم الهوى والسلامة من نار الصبابة واجتماع الشمل وعدم عدوان البين. ثم قال :

والدَّهرُ سِلْمٌ والخُطُوبُ غَوَافِلٌ والعَيْشُ غَضٌّ والأمانى حُفَّدِ

السلم مصدر سالم ، يقال فلان سلم لك أى مسالم ؛ وحرب أى محارب ؛ والخطوب : الأمور والشئون ؛ والغض : الناعم ؛ والأمانى : جمع أمنية ، وهو ما يتمنى ويطلب ؛ والحفد : جمع حافد : أى خادم ، ويقال أيضا خفدة . ومعنى البيت : أنه يقول : إن ما تقدم من العيش الرخى فى تلك الأيام السالفة كان والحالة أن الدهر مسالم لايرمى بمصائبه ، والخطوب غافلة لاتنهش بأنيابها ، والعيش ناعم طرى لم يتكدر بذبول ولا قلة . والمنى طائعة كلما دعيت أجابت وهذه مبالغة ؛ وهى أن تكون المنى طالبة غير مطلوبة وخادمة غير مخدومة ، وهذا الأمر موجود للصبى ؛ لأنه مكفى ما وهب ممنوح ما طلب ؛ ولذا يقال : احكم حكم الصبى على أهله . ثم قال :

ما دَوْحَةٌ فَيْنانَةٌ أوْ رَوْضَــةٌ بخَميـلَةٍ أوْ فى يَفاعٍ أنجَدِ

الدوح : العظيم من الشجر ؛ والفينانة : الكثيرة الورق الطويلة . وأصله فى الشعر يقال : امرأة فينانة : كثيرة الشعر ، ورجل فينان : حسن الشعر طويله ؛ والروضة : الموضع يستنقع فيه الماء وتكون من البقل والعشب ؛

والحميلة : المنخفض من الأرض يكون مكرمة للنبات أو الرملة تنبت الشجر ؛ واليفاع : التل من الأرض وهو الرابية ؛ والأنجد : المرتفع . ومعنى البيت : أنه ذكر شيئين يستحسنان فى مرأى العين : وهما الأشجار الناضرة المتهدلة ، وفى نسخة : بل روضة للانتقال من الأول إلى الثانى على رأى من يجعلها لذلك بعد النفى ، ثم قيد الروضة بأن تكون إما فى الحمائل أو فى النجود وهما أبهج زهرا . ثم قال :

سَحَبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولَهَا مُزْنُ الحيا وَسَخَتْ عليه بكَفٍّ واكِفِها النَّدى

السحب : الجر ؛ والذيول : جمع ذيل ؛ والمزن : جمع مزنة ، وهى السحابة أو البيضاء منها أو ذات الماء ؛ وسخت : جادت ، تقول سخا عليه يسخو سخوا : أى جاد عليه ؛ والواكف : المنهل من المطر . ومعنى البيت : أنه يصف المكان الذى يكون روضة ، وينبت الأزهار المونقة والأشجار المورقة ، بأن السحائب قد جرّت عليه ذيولها ، وجادت عليه بمائها ؛ فأثبت للسحائب الذيول تخييلا لانبساطها على الأرض ، وأثبت لها الكف التى يكون بها الجود ، وفى الندى تورية . ثم قال :

يُسْقَى مِنَ الوَسْمِىِّ مُتْرَعَ كَأْسِهِ
وَيُصَانُ مِنْ نَسْجِ الوَلِىِّ بِبُرْجُدِ

الوسمى : مطر الربيع الأول ؛ والمترع : المملوء ؛ والصون : الستر ؛ والولى : المطر بعد المطر ؛ والبرجد : ثوب غليظ مخطط . ومعنى البيت : أنه يصف المكان أيضا بأنه يسقى كئوس المطر الأول مترعة ، وفى ذلك نهاية الرىّ ، ويلبس من وشى الكلأ والزهر بعد الثياب التى تعفيه وتستره ، وفى ذلك نهاية الحسن ، وهذا كله استعارات . ثم قال :

مِنْ كُلِّ سابِغَةِ الذُّيُولِ كأَنَّهَا عَكَرٌ تُسامُ عَلَى الرُّبَى بالمُرْعِدِ

سابغة الذيول : كاملتها ، وهو وصف للغمامة ؛ والمكعر بفتحتين ، وقد تسكن الكاف : الكثير من الإبل فوق الخمسمائة ؛ وسومها وإسامتها : رعايتها ؛ والربى : جمع ربوة ، وهو ما ارتفع من الأرض ؛ والمرعد : السحاب ذوالرعد يقال رعد وأرعد . ومعنى البيت : أنه يبين ما مر من مزن الحيا أو الوسمى

أو الولى ، وأنه كل سحابة سابغة الذيول : أى منتشرة على الأرض كأنها الإبل الكثيرة التى تجتمع وترعى فوق الربى . وشبه صوت الراعى بصوت الرعد ، لأنه يحثها ويحركها ؛ وجعله مرعدا باعتبار أن ملك الرعد يرعد . ثم قال :

نَثَرَ الجَنُوبُ جُمَانَها فَتَقَلَّدَتْ لَبَبَ الرِّياضِ بِحَلْيِها المُتَبَدِّدِ

النثر : التفريق ؛ والجنوب : الريح التى تقابل الشمال ؛ قالوا : ومهبها من مطلع الشمس إلى مطلع الثريا ؛ والجمان : اللؤلؤ ؛ والتقلد : التحلى بالقلادة ؛ واللبب بفتحتين : جمع لبة ، وهى المنحر وموضع القلادة من الصدر ، وأنث فعله لاعتباره لبة أو لاكتساب التأنيث من المضاف إليه ؛ والحلى : ما يتحلى به من جواهر وعين مثلا ؛ والمتبدد : المتفرق . ومعنى البيت : أنه يصف تلك السحاب بأن الرياح نثرت ماءها على الأرض فوقعت القطرات على الأرض كأنها اللؤلؤ فى الأجياد ، وهذا كله استعارة . ثم قال :

فَتَدَفَّقَتْ أَنْهارُها وَتَفَتَّقَتْ أَزْهارُها فى رَوْضِها المُسْتَأْسِدِ

يقال استأسد الروض ، إذا التف نباته وكثر . ومعنى البيت : أنه يصف البقعة بعد وقوع الغيث عليها بأنها تدفقت : أى تفجرت أنهارها ؛ وتفتقت : أى تفتحت أزهارها فى روض كثير النبات أثيث العشب ؛ فناهيك بها مرتعا ومنهلا . ثم قال :

وَتَساجَلَتْ أَطْيارُها وَتَمايَلَتْ أَشْجارُها كالمُشْمَلِ المُتَمَيِّدِ

التساجل : التباهى والسقى بالسجال وهى الدلاء ، ثم استعمل فى المباراة فى الغناء والشعر ونحو ذلك ؛ والمشمل : الذى أثمله الشراب : أى أصاب عقله ؛ والمتميد : المتميل سكرا . ومعنى البيت : أنه يصف الروضة أيضا بغناء الأطيار ، وذلك دليل نعمتها ، إذ لاتنزل الأطيار إلا على ذلك ، ولا تغنى إلا معه ، وبتمايل الأشجار لرنها ونضارتها . ثم قال :

وَجَرَى لَطِيفُ نَسِيمِها بِرِياضِها جَرْىَ الزُّلالِ بِغُصْنِها المُتَأَوِّدِ

النسيم : الريح إذا كان ضعيفا ، فوصفه باللطيف كالكشح ؛ والزلال : الماء الصافى ؛ والغصن المتأود : المتمايل . ومعنى البيت : أنه يصفها أيضا بأن النسيم يجرى فيها ، وهو مما ترتاح إليه النفوس ، وهو فى لطافته كالماء

الجارى فى الغصون ، وهذا وصف آخر استتبعه ، وبالاستتباع يسمى فى البديع . ثم قال :

ما شِئْتَ مِنْ ثَمَرٍ يَلَذُّ وَمَنْظَرٍ   أنِقٍ وَصَوْتٍ فى الغُصُونِ مُجَسَّدِ

الثمر بفتحتين والثاء المثلثة : حمل الشجر كائنا ما كان ؛ واللذة : ضد الألم ، تقول لذذت الشىء ألذه ، إذا وجدته لذيذا ؛ والصوت المجسد : المحسن على ألوان . ومعنى البيت : أنه يقول : فى الروضة ما شئت من الثمار ، وما شئت من منظر معجب ، وما شئت من صوت حسن للأطيار ، ففيها متعة الأذواق والأبصار والأسماع . ثم قال :

وَحَبابِ جِرْيالٍ يُخَلْخِلُ ساقَ أمْلُودٍ بِها فَحْمِ الذَّوائِبِ مُمْأَدِ

حباب الماء بفتح الحاء : معظمه أو نفخاته التى تعلوه ؛ والجريال بكسر الجيم : الخمر ؛ والخلخلة أريد بها التخلخل : أى تخلخل الماء لأصول الشجر وهذه اللفظة تقع فى كلام الأدباء المتأخرين يقصدون بها التورية بلبس الخلخال بقرينة الساق معه ، فوقعت فى البيت على حسب ذلك ، ولم يوجد فيما وقع إلينا من كتب اللغة خلخل بمعنى تخلخل ، نعم يقال تخلخل الأمر والجيش إذا تفرق ، وهو كالمطاوع له ، ولم يوجد أيضا فى لبس الخلخال ، وإنما يقال تخلخلت المرأة إذا لبسته ، ولكن إطلاق المخلخل على موضع من الساق يؤذن بجواز أن يقال خلخله وخلخلها ، فإن لم يجز الأول وجاز هذا كان استعارة لاتورية ، بأن شبه الماء فى إحاطته بساق الشجر بالخلخال المحيط بساق الجارية وإن جازا معا فهو تورية أو توجيه ، وقد وجدت اللفظة فى خلخلت العظم أخذت ما عليه من اللحم ، وتصح الاستعارة منه أيضا ، لأنه فى معنى البحث والتفتيش والماء يفعل ذلك فى الأرض ، وتمام البيت جار على الأمرين معا ، فإن الأملود هو الناعم ، إما من الشجرة أو من أشخاص الناس ؛ والفحم : الشديد السواد ؛ والذوائب : إما ذوائب الشعر وهو أصله ، وإما الورق مجازا ؛ والمائد : الناعم الذى يميده الرى : أى يميده ويعطفه لنعمته ونضارته وإن أريد به الشخص فهو يتمايل شبابا واختيالا أو تميله اليد الجاذبة ، وأطلق الجريان

على الماء على التشبيه في الحلاوة والصفاء . ومعنى البيت ظاهر مما ذكر . والمراد حسن ذلك المنظر . ثم قال :

أَوْ أَمْنِ ذِى فَرَقٍ خَلِيعٍ لُبُّهُ أَوْ غَفْوَةِ الإِصْبَاحِ بَعْدَ تَهَجُّدِ

الأمن : ضد الخوف ، والفرق بفتحتين : الفزع . يقال فرق بالكسر فرقا ، والخليع اللب : هو المخلوع القلب : أى المنزوع من الخوف ، والغفوة : النعسة ، يقال غفا غفوة وغفوا : وإغفاء إذا نام ؛ والتهجد : السهر . وهو ترك الهجود : أى النوم . ومعنى البيت : أنه ذكر أمرين يستلذان : أحدهما الأمن عقبَ الخوف المفزع ، والآخر النوم فى الصبح عقب السهر . وهما أحلى شىء . ثم قال :

أَوْ عَذْبِ مَشْرَعَةِ الفُرَاتِ عَلَى ظَمَا
أَوْ وَصْلِ حِبٍّ بَعْدَ هَجْرٍ مُبْعَدِ

العذب من الماء : الحلو ؛ والمشرعة : موضع الورود ؛ وفى نسخة : الشارعة ، وهو وصف الوارد أطلق على المكان أو على المصدر ، وهو الشروع مجازا ؛ والفرات بالضم : نهر معروف بالكوفة . ويطلق الفرات على كل عذب من الماء جدا ؛ والظمأ : العطش الشديد ؛ والوصل : ضد الهجر ؛ والحِب بالكسر : المحب ؛ والمبعد : الذى طال زمانه . وهو إما اسم فاعل كما تقول : أبعد فلان فى سيره ، وإما اسم مفعول كما تقول : أبعدته فهو مبعد . ومعنى البيت أنه ذكر لك أيضا هنا أمرين آخرين يستلذان : أحدهما الماء العذب بعد العطش . الثانى وصل الحبيب لك بعد هجرانه الطويل . ثم قال :

بِأَلَذَّ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِى لَوْ مَحَا ما خَطَّهُ الدَّبَرَانِ سَعْدُ الأَسْعَدِ

اللذة : نقيض الألم ، والألذ : الأقوى لذة ؛ والمحو : محو الكتاب ؛ والخط : الكتب ؛ والدبران بالتحريك : من منازل القمر ؛ وسعد الأسعد : منزل آخر ، ويقال له : سعد السعود ، والمجرور أول البيت خبر ما النافية فى قوله : ما دوحة فينانة أو روضة . ومعنى البيت : أنه يقول : ما الدوحة والرياض الموصوفة بمامر وما عطف عليها من الأشياء المستحسنة بألذ من تلك الليالى : أى ليالى الصبا ، أى بل ليالى الصبا ألذ من ذلك كله لو كانت

ترجع . وذلك بأن يبطل نحس الدبران الذى ذهب بها سعد السعود فتأتى ، وهذا على ما اشتهر توهمه من كون الدبران نحيسا ، وكون سعد السعود سعيدا كما قال الشاعر :

إذا ديران منك يوم لقيتــه   أؤمل أن ألقاك غدوا بأسعد

فتوهم هنا أن الدبران كتب على ليالى الصبا وأيام الشباب بالذهاب و الإدبار ، فلوقام سعد السعود فحا ذلك المكتوب لرجعت وكون ليالى الصبا وريعان الشباب ألذ شىء إلى النفوس أمر لايجهل ؛ وناهيك بزمان العيش فيه هنى والقلب خلى والقوى فى ازدياد والمنى طوع المراد . وما أحسن قول ابن حمديس فى هذا :

وإذا فارقت أيام الصبا   فالليالى بأمانيك شحاح

ومن استلذاذ أيام الصبا ، كان حبّ النفوس للوطن ، وحنينها للمولد ، كما قال ابن الرومى :

وحبب أوطان الرجال إليهم   مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم   عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وإن أردت الشفاء فيما ورد فى هذا المعنى من كلام الشعراء ، فعليك بكتابنا زهر الاكم . ثم قال :

فَثَنى أعِنّتها الزّمانُ وأسْفرَتْ   طَلَعاتُها مِنْ بَعْدِ وَجْهٍ أرْبَدِ

ثنيت العنان ونحوه : رددته ؛ والعنان : عنان اللجام ؛ والإسفار ؛ الإضاءة والإطلاق ، يقال أسفر الصبح ؛ والطلعة : الوجه ؛ والأربد : من الربدة ، وهو لون مائل إلى الغبرة ، والعرب تقول : ظليم أربد ، ونعامة ربداء ، والجمع ربد . ومعنى البيت : أن سعد السعود لو محا النحس عنا لرجعت إلينا ليالى الشباب ، يثنى الزمان إلينا أعنتها : أى أعنة الليالى ، واستبشرت وجوهها مقبلة إلينا بعد ما كانت عابسة معرضة . ثم قال :

واسْتَبْدَلَ الأيّامُ ذابِلَ عَيْشِها   غَضًّا وَبالِىَ وَصْلِها بِمُجَدَّدِ

الذابل : ضد الغض . ومعنى البيت : أنه لو كان ذلك لاستبدلت الأيام عيشها الذابل بالعيش الغض الطرىّ الناعم ، واستبدلت وصلها البالى بوصل

جديد ، وهذا كله مجاز على طريق الاستعارة ؛ ولما استعار لها نحو العنان والوجه صح للزمان التصرف فيها . ثم قال :

سَقْيا لأيَّامٍ وإخْوَانٍ مَضَــوْا حَدَثٌ حَدَا بِهِمُ لأنحَى مُلْحِدِ

تقول سقيا لزيد : إذا دعوت له بالسقيا : وحدا الرجل بالإبل : إذا غنى بها لتسير عند سوقها ؛ وحدث الزمان : ما يحدث فيه كالموت ؛ وأنحى الرجل على آخر ضربا : أقبل عليه بذلك ؛ واللحد : الشق فى القبر ؛ وألحده : جعل له لحدا أو دفنه . ومعنى البيت : أنه يقول : سقى الله أياما مضت ، وهى أيام الشباب ، وإخوانا ساقهم القضاء إلى مثابر المنايا فأنشبت فيهم الظفر والناب ودفنهم تحت أطباق التراب ، وفى نسخة : مضوا حدث حدا بهم لمنح ملحد ، وهى بمعنى هذه ، وتنكيره الحدث فيها لتعظيمه وتقطيعه ، كما يقال : شرّ أهر ذا ناب . ثم قال :

وَمَنازِلٍ وَظِلالِ عَيْشٍ مُورِقِ الـ أغْصَانِ لَيْسَ غُرَابُهُ بِمُطَرَّدِ

يقال أورق الشجر : إذا كان له ورق ؛ والمطرد والمطرود بمعنى ، وهذا مثل يقال إذا كان الناس فى الخصب والخير الواسع « هم فى عيش لايطار غرابه ولا يطير غرابه » . قال النابغة :

ولرهط حراب وقد سورة فى المجد ليس غرابه بمطار

واستعمل فى البيت مطرد مكان مطار لأنه فى معناه ، ووصف العيش بكونه مورق الأغصان ، وذلك ظاهر . ثم قال :

وَمَعاهِدٍ وَمَحاضِرٍ طارَتْ بِهَا عَنْقاءُ مُغْرِبَةٌ إلى مُتَصَعَّدِ

المعاهد : المواضع التى عبرت فيها الأحبة ؛ والمحاضر : مواضع حضورهم ؛ وعنقاء مغربة ، ويقال عنقاء مغرب : قيل اسم لايعرف له مسمى ، وقيل طائر عظيم كان يبعد فى طيرانه ، وكان فى زمن بعض الأنبياء يختطف الصبيان فشكاه أهل البلد إلى ذلك النبى فدعا عليه فقطع الله نسله ، ويقال فى الشىء : طارت به العنقاء ، إذا ذهب واضمحل ؛ والمتصعد بفتح العين : مكان الصعود : أى وطارت العنقاء بتلك المعاهد والمحاضر إلى مكان لامطمع فى بلوغه كما قيل : وطارت بذاك العيش عنقاء مغرب . ثم قال :

هَلْ مِنْ عَشَايَا فِى عَذَايَا مُشَّرٍ مَوْلِيَّةٍ مَوْشِيَّـةٍ مِنْ عُوَّدِ

العشايا : جمع عشية ؛ والعذايا : جمع عذية ، يقال هذا البلد يعذو إذا طاب هواؤه ، وأرض عذاة وعذية : طيبة بعيدة عن الماء والوخم ؛ والمشر : جمع ماشرة ، وهى الأرض التى اهتز نباتها ، وقد يقال أرض ناشرة بمعناه ، ويقال مشرت الشىء مشرا : أى أظهرته ؛ والمولية : الأرض التى سقيت بالولى وقد مر ؛ والموشية : التى وشيت بأنواع النبات وأصناف الأزهار ؛ والعود : جمع عايدة : أى راجعة . ومعنى البيت : أنه يتمنى ويقول : هل تلك العشيات التى كنا نتقاضى فيها طرائف اللذات فى الأرضين الطيبات المهتزة بأنواع النبات تعود إلينا ؟ دخلت مِن على الخبر كما دخلت على المبتدإ توكيدا للكلام . ويجوز أن يكون الثانى مبتدأ أيضا على نية استفهام آخر كما لو أردت أن تقول : هل من رجل قائم ؟ فقلت : هل من رجل من قائم ؟ وتحذف الخبر فيهما ، وفى ذلك من المبالغة والدلالة على قوة التلهف ما لايخفى على كل من رزق حظا من الذوق فى أساليب الكلام العربى . ثم قال :

وَتَجَاذُبِ الخُلَصَاءِ كَاسَاتِ بِهَـا
مِ الأُنْسِ أَعْذَبَ مِنْ سُلَافَةِ صَرْخَدِ

التجاذب : التفاعل من الجذب ، يقال تجاذبنا الكلام والحديث ونحو ذلك ؛ والخلصاء : جمع الخلص بالكسر ، وهو الخدن ، وجمع الخالص أيضا الصافى المحبة وهو القياس ؛ والكاسات جمع كأس ؛ والأنس : ضد الوحش وحذف نون من وهو جائز كثير ؛ والسلافة : الخمر ؛ وصرخد : بلد بالشام تنسب إليها الخمر ؛ وتجاذب بالجر عطفا على العشايا . ومعنى البيت : أنه يقول : هل تعود تلك العشيات واجتذاب الأنس فيها بين الأحباب أحسن لذة وأطيب نشوة من تعاطى كؤوس الخمر الصرخدية واستملاح العشيات مشهور كما قيل :

وعشية كم كنت أرقب وقتها سمحت بها الأيام بعد تعذر

ثم قال الحماسى :

فليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

ثم قال :

وَمَطارِفٌ مِـلْوِدٌ يَلْتَحِفُونَها يُرْخِي الحَفِيُّ عَلَى الحَفِيِّ بِمِحْفَدِ
وَيَشُونَها حِبَرًا بِبَذْلٍ فائِضٍ مُتَكايِلِيه نَدًا بِأَوْفَى مِحْفَدِ
وَفِرِينَ فَرْوَتَها بِعِزٍّ تالِدٍ سَمِقٍ أَعالِيهِ عَرِيقِ المَحْفِدِ

المطارف: جمع مطرف على مثال مكرم، وهو ثوب من خز مربع ذوأعلام والود: الحب؛ والالتحاف: الاشتمال؛ والإرخاء: الإرسال؛ والحفى: الصديق المعتنى النصوح؛ والمحفد على مثال منبر: طرف الثوب؛ والوشى: نقش الثوب من أى لون؛ والحبر: ثياب موشية عندهم؛ والبذل: العطاء جودا؛ والتكايل من الكيل، تقول كلت له وكال لى وتكايلنا؛ والندى: السخاء؛ والمحفد على وزن الأول: قدح يكال به؛ والوفر: التحصين والحفظ؛ والفروة: ثوب معروف؛ والفروة: الغنى والثروة؛ والعز التالد: القديم الأصيل؛ والسمق: العالى؛ يقال سمق الشيء سموقا إذا علا وطال؛ والعريق: المتمكن؛ يقال أعرق الشجر؛ إذا اشتدت عروقه فى الأرض؛ والمحفد على مثال مجلس: الأصل. ومعنى الأبيات الثلاثة: أنه يقول: إن هؤلاء الخلصاء كانوا يتجاذبون ملابس من المودة يرخى الصديق على صديقه منها بطرف ثوبه حنانا وشفقة وإحسانا وفتوة، وذكر الثوب والالتحاف والإرخاء مجاز عن إهداء الخير والتعميم بالبر والتعامل بالصفح والستر والتعاون فى القل والكثر، وذلك ثمرة الود، كما ذكره بعده وكانوا يشون هذه الثياب: أى يزينونها بالبذل الفائض الكثير يكيل كل واحد لصديقه بأوفى مكيال؛ فإن الندى والإحسان هو زينة المحبة وآية المودة، وكانوا محصنين فروتها: أى حوزتها تعبيرا بالثوب عن ذلك مجازا، أو ثروتها بعز تالد مرتفعة مبانيه ثابتة قواعده، فإن العز هو حافظ النعمة وكفيل العصمة، وهذه أيضا مجازات. ثم قال:

هَيْهاتَ يَرْتَتِبُ الزُّجاجُ إِذَا انْفَأَى
وَيَعُودُ شَيْخٌ فى شَبابِ الفُرْهُدِ
دَرَجُوا كَما دَرَجَ القُرُونُ وَغالَهُمْ
ما غالَهُمْ وَالمَرْءُ غَيْرُ مُخَلَّدِ

هيهات : اسم فعل بمعنى بعُد ، تقول هيهات زيد وهيهات السفر وهيهات يخرج عمر : أى هيهات أن يخرج ؛ والارتئاب : الانجبار ، تقول رأيت الشىء إذا أصلحته ؛ وفى نسخة ينجبر بمعناه ؛ والانفئاء : الانقطاع ، تقول فأت الشىء فانفأى ؛ والفرهد : الغلام السمين التام الخلق المراهق؛ والدروج : المشى والانقراض ، تقول درج القوم : إذا انقرضوا ؛ والقرون جمع قرن ، وهو من الزمان مائة عام ونحوه ، ومن الناس كل أمة انقرضت فهو قرن ؛ والغول : الإهلاك ؛ وغاله الشىء : أى أهلكه . ومعنى البيتين : أنه يقول : هيهات أن تعاد ليالى الصبا ويرجع عنفوان الشباب بعد ذهابه وكل ما ذكر معه ، كما أن الزجاج إذا انكسر لاينجبر ، والشيخ لايعود غلاما ، فالأحبة الذين مضوا لايرجعون إلى يوم الحشر ، فإنهم درجوا : أى انقرضوا كما انقرضت القرون قبلهم ، وغالهم من المنون ما غال غيرهم ، والمرء لامطمع له فى الخلود فى الدنيا ، فإن ـ كل نفس ذائقة الموت ـ ، وهذا الكلام تخلص إلى فن آخر من الكلام وهو الوعظ والتذكير ، وخروج من النسيب والتشبيب.

واعلم أن التشبيب عندهم فى الأصل هو ذكر أيام الشباب واللهو والغزل ، ويكون ذلك ابتداء قصائد الشعر ، ثم سمى ابتداء الأمر تشبيبا وإن لم يكن فى ذكر الشباب . وقال فى لسان العرب : تشبيب الشعر : ترقيق أوله بذكر النساء ، وهو من تشبيب النار وتأريثها ، وشبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب والتشبيب انتهى . وقال أبوالطيب : إذا كان مدحا فالنسيب المقدم

ثم قال :

فَسَقَى مَرَابِعَهُمْ شَآبِيبُ الرِّضَى دِيَمًا مِنَ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ الأَجْوَدِ
وَسَرَى طَخَاءَ الجُرْمِ عَنْ سَرَوَاتِهِمْ عَفْوُ الْعَفُوِّ الْمُفْضِلِ الْمُتَغَمِّدِ

المرابع : جمع مربع ، وهو المنزل فى الربيع ، أطلق هنا على القبر لأنه يكون محل تنعم ؛ والشآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر ؛ والديم : جمع ديمة ، وهو المطر الدائم ؛ وسرى الشىء عن الشىء : ألقاه عنه ؛ والطخاء : الغيم ؛ والجرم : الذنب ؛ والسروات : الظهور جمع سراة . ومعنى البيتين :

أنه يدعو للأحبة الذين درجوا أن يسقى الله مرابعهم شآبيب الرضوان ، وهذا على أسلوب العرب فى ذكر القبر ، يقولون سقى الله القبر ، وسقى الله ثراه ، والمراد الميت ، وأن يزيل الله الخطايا عن ظهورهم ، وعلق الأول باسمه تعالى الكريم ، إذ المراد فيه الإحسان والإنعام ، وهو متعلق الكرم والفضل والجود ؛ وعلق الثانى باسمه العفوّ ، لأن القصد فيه الغفران ، وهو متعلق العفو والغفران ؛ ثم قال :

إنَّ المَنُونَ هىَ السَّبِيلُ فمَنْ يَكنْ ... لمْ يَنْتَهِجْهُ بِرَحْلِهِ فكأنْ قَدِ

والدَّهْرُ مِضْمَارُ الفَتَى فإذَا رَدَى ... مِنْهُ إلى أمَــدٍ يُعَمَّرُه رَدِى

بَيْنا جَوَادُ المَرْءِ يُحْضِرُ نَحْوَهُ ... لِيَحُوزَهُ إذْ حَلَّ هُوَّةَ مَلْحَدِ

المنون : الموت ؛ والسبيل : الطريق ؛ والمضمار : المجرى للخيل ؛ وردى الأول بفتح الدال : أى جرى ، والرديان جرى للخيل معروف ؛ وردى الثانى بكسر الدال بمعنى هلك ؛ والأمد : القدر من الزمان ؛ وعمر الله فلانا كذا تعميرا : أى أبقاه تلك المدة من العمر ؛ والجراد : الفرس السابق ، لأنه يجود بكل قوة ؛ والإحضار : العدو ؛ والهوة : الحفرة ؛ والملحد : القبر . ومعنى الأبيات الثلاثة : أنه يقول : الموت هو طريق كل الناس ، فمن لم يسلكه فكأن قد سلكه ، والزمان لأعمار الناس كالمضمار للخيل ، فإذا جرى الإنسان المقدار الذى يعيشه فى سابق علم الله هلك ومات ، والإنسان يؤمل أجلا بعيدا ، ثم تعتريه المنايا دونه كالفرس يجرى للغاية ثم يسقط فى هوة قبل أن يصل ما يريد . ثم قال :

سَهْمٌ لِأغْرَاضِ النُّفُوسِ مُسَدَّدٌ ... مَنْ يَرْمِ مِنْ مُهَجِ البَرَايا يُقْصَدِ

أوْ رُمْحُ خَطٍّ سَمْهَرِىٌّ مُشْرَعٌ ... فى كَفِّ أبْصَرَ بالمَطاعِنِ أيِّدِ

مَنْ تَعْتَلِقْهُ شَبَاتُهُ لا يُجْدِهِ ... قِيلُ الحَلائِلِ بَعْدَهُ لاتَبْعُدِ

أو حَوْضُ إبْلٍ ما يَشِذُّ بظَمْئِهَا ... مِنْها أفِيلٌ عَنْ عَصَا المُسْتَوْرِدِ

أوْ سُدَّةٌ يُدْعَى إلَيْها الأجْفَلَى ... كلُّ الوَرَى مِنْ مُذْعِنِينَ وَمُرَّدِ

وحِبالَةٌ كُلُّ الأنامِ رَهينُها   مِن عائِلٍ مُتَكَفِّفٍ أو قَثْرَدِ
ومُمَجَّدٍ حَشَدَ المَوَالِيَ واعْتَلَى   في مُلْكِهِ وَمُعَبَّدٍ لَمْ يَحْشُدِ

السهم : معروف ، والغرض ما ينصب ليرمى ؛ وأقصد السهم : أصاب الشيء فقتله مكانه . وأقصد زيد عمرا : طعنه فلم يخطئه ؛ والخط : موضع بالبحرين تنسب إليه الرماح ، لأنها تباع فيه . فيقال رمح خطى ؛ والسمهرى الرمح الصلب ، والسمهرى أيضا : المنسوب إلى سمهر . وهو زوج ردينة وكانا معا يثقفان الرماح . ولذلك تنسب إليهما فيقال سمهرية ردينية ؛ وأشرعت الرمح إلى الرجل سددته إليه . فالرمح شارع والرماح شوارع وشرع ؛ والمطاعن : مواضع الطعن ؛ والأيِّد بالياء المكسورة المشددة القوى من الأيد وهو القوة ؛ والاعتلاق : التعلق ؛ وشباة الرمح : طرفه ؛ والإجداء : النفع ؛ ولا يجديك هذا : لايفيدك ولا ينفعك ؛ والحلائل : جمع حليلة وهي الصاحبة زوجة أو غيرها ؛ ولا تبعد : دعاء يدعى به يقال : لاتبعد يا فلان ولا أبعدك الله ، فمن جعله من بعد بضم العين فهو خلاف القرب . ومن جعله من بعد بكسر العين فمعناه الهلاك . وكلاهما يدعى به . والحوض مجتمع الماء والإبل يقال بكسرتين وبكسرة فسكون كما هنا وكلاهما فصيح . وشذ الرجل عن الناس : ذهب عنهم ؛ والظمء بكسر الظاء : ما بين الشربتين . وأطلق هنا على آخره ، وهو أوان الورود ؛ والأفيل : ابن المخاض ونحوه ؛ والمستورد : المورد ، يقال أورد الإبل الماء واستوردها : إذا أحضرها الماء ، والمستورد أيضا والمتورّد : الوارد ؛ والسدة بضم السين : باب الدار ؛ ودعوة الجفلى والأجفلى : الدعوة العامة ؛ وضدها النقرى : وهي التي يخص فيها فلان . قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى   لاترى الآدب منا ينتقر

الآدب : صانع المأدبة ، فهو عندهم لاينتقر ، بل يعم الناس كرما وسعة ؛ والمذعن : المستسلم ، والمارد ضده ، جمعه مرد ؛ والحبالة بكسر الحاء : الأحبولة التي يصطاد بها ؛ ورهينها : المحبوس فيها ؛ والعائل : المفتقر ، عال يعيل عيلا وعيلة فهو عائل وهم عالة ؛ والمتكفف : السائل يمد كفه للناس ؛ والقثرد بالمثلثة وقيل بالمثناة : الكثير الغنم ؛ والسخال والممجد : المعظم ؛

والحشد : الجمع ؛ والموالى : العبيد والأنصار ؛ والمعبد : المذلل المستسخر ؛ ومعنى الأبيات السبعة : أنه لما ذكر المنون وأنها سبيل الناس أجمعين لاينجو منها والد ولا مولود شبهها بأشياء ، فضرب لها خمسة أمثال : فكأنها سهم مسدد إلى نفوس الأحياء ، وهى له كالأغراض ، فأى مهجة رماها أقصدها : أى أصابها فقتلها مكانه . أو كأنها رمح من الرماح السمهرية الخطية فى كف رجل قوى معتاد للطعن بصير بالمقاتل ، إذا طعن أصاب المقتل ، وإذا تعلق رمحه بآخر مات وذهب ولم ينجه قول الناس لاتبعد وقد بعد . أو كأنها حوض مورود والناس كالإبل ، فإذا كان ورودها حشدها راعيها إليه بعصاة فلا يشذ منها صغير فضلا عن كبير بل ترد كلها . أو كأنها سدة : أى باب يدعى الناس كلهم للدخول منه دعوة الجفلى ، فلا يبقى شريف ولا مشروف ولا نبيه ولا خامل ولا منقاد ولا متمرد ، وكأنها حبالة كل الناس مقنوص فيها ، لاينجو منها فقير ولا ذومال ولا ملك ذو أعوان وجنود ولا ذليل مقهور . ثم قال :

عَرَضَتْ بَنِى ساسانَ فى غُلَوَائِهَا قِدَماً على غَرْبِ الحُسامِ المِجْدَدِ

تقول عرضت فلانا على السيف إذا قتلته ؛ وبنوساسان : الفرس المتأخرون ينسبون إلى ساسان الأصغر ابن بابك بن ساسان الأكبر ، وكانوا نحو ثلاثين ملكا منهم امرأتان وباقيهم رجال ، أولهم أزدشير بن بابك بن ساسان الأصغر ، وهو الذى قام بجمع ملك فارس بعد تفرقه أيام ملوك الطوائف ، وآخرهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى المقتول فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، ولولا خوف الطول لذكرناهم ملكا ملكا . وأما الفرس الأولون فسنشير إليهم بعد إن شاء الله تعالى . والغلواء بضم الغين وفتح اللام ، وقد تسكن الغلواء ، وهو مجاوزة الحد ؛ وغرب السيف : حده القاطع ؛ والحسام : القاطع من السيوف ؛ والمجدد : مفعل من الجدد ، وهو القطع وصف بعد وصف . ومعنى البيت : أن المنون قد أهلكت الأمم الساسانية قديما وأفنتهم ، كما لو عرضتهم على السيف القاطع وهو تمثيل ، وهذا شروع منه فى ذكر وقائع من مضى من القرون تحمل العاقل على الحذر والانكماش عن الدنيا لعدم بقائها وسرعة تقلبها والرغبة فيما عند الله تعالى ، والوقائع عند العرب : أيام حروبها ، والمراد هنا وقائع الدهر لأنه المحارب الأعظم وحربه أفظع . ثم قال :

وكَسَتْهُمُ ثَوْبَ الصَّغارِ وغادَرَتْ
تِلْكَ الحَدَائِقَ كالبَرَاحِ المُصْلَدِ

الصغار بفتح الصاد : الذل ؛ والمغادرة : الترك ؛ والحدائق جمع حديقة ، وهى الروضة ذات الشجر ، أو بستان أحدق به الحائط ؛ والبراح : بفتح الباء المتسع من الأرض لازرع فيه ولا شجر ؛ والمصلد : الصلب ، صلدت الأرض وأصلدت : صلبت . ومعنى البيت : أن المنية قد كست بنى ساسان الذل بعد العز ، وأخلت مساكنهم ، وفى نسخة : ثوب العفاء : وهو الخراب والخلاء . ثم قال :

وَرَمَتْ مَقَاصِيرَ القَيَاصِرَةِ الأُلى عَظُمُوا بِسَهْمٍ مِنْ رَزَايا مُصْرِدِ

المقاصير : جمع مقصورة ، وهى الدار الواسعة المحصنة ؛ والقياصرة : جمع قيصر ، وهو لقب لملك الروم ، كما أن كسرى سمة لملك فارس ، وخاقان لملك الترك ، وتبع لحمير ، والنجاشى للحبشة . والقياصرة ملوك كثيرة من الروم ، والروم أولاد روم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، ويقال إنه ولد ثلاثين ولدا منهم الروم ، وكان أصفر اللون فقيل لولده بنو الأصفر . وأول من سمى منهم قيصر ، قيصر بن أنطرطس ، وكانت أمه حاملا به فتعسرت ولادتها ، فشق بطنها وخرج فسمى قيشر ، ثم قيل قيصر ، وكان يفتخر على الناس بأن النساء لم تلده ، فصار هذا اللفظ سمة لملوك الروم بعده . والألى بمعنى الذين ؛ والسهم : معروف ؛ وأصرد الرامى سهمه : أنفذه ، ويقال أيضا سهم مصرد : أى مخطئ على الضد ؛ والرزايا : جمع رزية ، وهى المصيبة ، وأصله الهمز كما يقال فى خطايا ، يقال رزءا : أى نقصه رزأ . ومعنى البيت : أن المنون رمت أيضا ملوك الروم الذين عظموا وعتوا بسهم من رزايا منفذ فذهبوا : أى انقرضوا . ثم قال :

وَنَحَتْ إلى دَارَا العَظِيمِ لِحَاظَهَا فاحْتَلَّ دَارَ العَنْقَفِيرِ المُؤيِّدِ

نحت : صرفت ؛ ودارا المذكور : هو دارا بن دارا الملك المشهور أحد ملوك فارس ، وهو آخر الفرس الأقدمين الجامعين المملكة . واختلف فى نسب فارس ، فقيل : هم من ولد فارس بن ناسور بن سام بن نوح ، وقيل هم من

ولد هرم بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل من ولد يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وقيل من ولد لوط عليه السلام لبنته ، وقيل غير ذلك . قيل ولا خلاف أنهم من ولد كيومرت وإليه يرجعون . واختلف النسابون فى أيامهم ودولتهم ، فمن الناس من جعلهم أربعة أصناف ، لكل صنف دولة ؛ ومنهم من جعلهم صنفين : الصنف الأول من كيومرت إلى دارا الذى قتله الإسكندر كما يأتى قريبا إن شاء الله تعالى . والصنف الثانى من أزدشير بن بابك إلى يزدجرد بن شهريار وهم الساسانية وتقدم ذكرهم واختلف فى كيومرت ، فقيل إنه ولد لأولاد ابن إرم بن سام بن نوح ، وقيل إنه من ولد آدم لصلبه ، وإنه أول من تولى الملك من بنى آدم ، وذلك أنه لما كثر البغى فى الناس والظلم اجتمعوا ، فرأوا أنه لاينتظم أمر الناس إلا بإمام يسودهم ، فتقدموا إلى كيومرت وقالوا : أنت أكبر أهل زمانك بقية أبناء آدم ، وقد فسد أمر الناس ، فضم أمرهم فملكوه ووضعوا التاج على رأسه ، وهو أول من وضع التاج على رأسه ، فقام بالناس وكان حسن السيرة أربعين سنة ، وكان ينزل إصطخر . واختلف فى عمره فقيل ألف سنة ، وقيل غير ذلك ، ثم مات فملك ابنه وهلم جرا إلى دارا بن دارا ؛ وكانوا فيما ذكر النسابون عشرين ملكا فيهم امرأة ، وكانت مدتهم ثلاثة آلاف وعشرين سنة ، وقيل وثلاثمائة سنة والله أعلم بذلك ، ولولا قصد الاختصار لذكرناهم ملكا ملكا . واللحاظ : جمع لحظ ؛ والاحتلال : النزول ؛ والعنقفير على وزن زنجبيل والقاف قبل الفاء : الداهية ؛ والمؤيد : الأمر العظيم ، والداهية أيضا فهو توكيد ، وهو بضم الميم ثم واو مقلوبة عن همزة ثم ياء مكسورة مثناة من تحت من الأيد وهو القوة . ومعنى البيت : أن المنية قد قلبت لحظها إلى دارا العظيم الملك ، فأنزلته منازل البلاء والفناء ، وسنذكر قصة هلاك دارا عند ذكر قاتله بعد . ثم قال :

وثَنَتْ بِغَائِلِهِ الحَكِيمِ وَلَمْ يَذُدْ عَنْهُ الرَّدَى مَاصَانَهُ مِنْ عَسْجَدِ

ثنت : أى ثنت دارا بغائله ، وهذا على مذهب من يقول ثنيت زيدا : أى صرت له ثانيا ، وهذا واحد فأثنيته ، والأشهر أن يقال : فعلت كذا وثنيت بكذا تثنية ، وفى نسخة : ووفت من الوفاء كأنها مطلوبة فأدته ، وهو أوضح وأبعد عن التكلف ؛ والغائل : المهلك ، غاله غولا أهلكه ، والضمير لدارا ؛

والحكيم : وصف للغائل . والذود : الطرد والردى : الهلاك . والصون : الحفظ . والحزن والعسجد : الذهب . ومعنى البيت : أن المنية قد وافت بعد دارا بغائله وهو الحكيم فأهلكته . ولم يدفعها عنه ما خزنه من الذهب ولا غير ذلك . والحكيم المذكور هنا أنه قاتل دارا هو الإسكندر الفيلسوف اليونانى . ويقال له ذو القرنين . قيل لأنه بلغ قرنى الأرض . وقيل لأنه كان له قرنان صغيران فى رأسه . وقيل غير ذلك والكلام فيه مشهور . وقصة إهلاكه لدارا أن دارا كانت تؤدى إليه ملوك زمانه الإتاوة . وكان ذلك للفرس من زمان يستأسف الملك . لأن بختنصر كان زبانا له . فدوّخ البلاد واستولى على الممالك فكانت ملوك الأقطار تؤدى الإتاوة لملوك فارس حتى كان زمان دارا . فكان أبو الإسكندر يؤدى إليه ذلك . فقيل كان يؤدى إليه كل حول ألف بيضة من الذهب فى كل بيضة ألف مثقال . فلما نشأ الإسكندر دفعه أبوه إلى أرسطاطاليس الحكيم المشهور يعلمه الأدب والحكمة . فمكث عنده نحو خمس سنين . ونال منه ما لم ينل أحد من تلامذته . ثم مرض أبوه فبعث إليه يعهد إليه . فلما ملك الإسكندر بعد أبيه لم يدفع الإتاوة لدارا . فكتب إليه دارا يتهدده . وأجابه هو بمثل ذلك فى كلام كثير جرى بينهما . فخرج كل بجموعه والتقيا ببلاد الجزيرة فكانت بينهما الحرب مدة وجرت أمور حاصلها قتل دارا وفساد ملكه . وقيل قتله حاجباه . وقيل صاحب شرطته . وقيل حمل إلى الإسكندر فأمر بقتله . فاستولى الإسكندر على ملك دارا وخزائنه وبلاده فلما استولى عرض جيشه وجيش الفرس . فقيل كان ألف ألف أو أكثر . وهمّ باستئصال عظماء الفرس . ثم بدا له أن يشاور فكتب إلى معلمه أرسطاطاليس يستشيره فى ذلك . فكتب إليه ألا تفعل . فإن لكل بلد وزمان رجالا . وإن أنت أهلكت الأشراف شرفت السفلة وهم أضر شىء للملك . ولكن فرقهم فى المملكة وولّ كل واحد منهم ناحية وضع التاج على رأسه . فإنهم بذلك يتنافسون الملك وتعود أحقادهم بينهم . ولا يجتمعون على حربك أبدا . ومن تعاصى منهم وحده كنت قادرا عليه . ففعل الإسكندر ذلك وفرقهم وهم ملوك الطوائف . وبقوا على ذلك إلى أن قام أزدشير بن بابك كبير الساسانية . فجمع المملكة كلها كما مر . فرجع الملك فيهم إلى حاله حتى

أذهبه الله تعالى بالإسلام ، وأورث الله من شاء من عباده ، ثم تقدم الإسكندر إلى أرض الصين والهند فدوّخ تلك البلاد كلها واستولى على الممالك فى حروب غرائب أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة ؛ فلما رجع من تلك النواحى وبلغ شهرزور أقام بها أياما فاحتضر ومات . قيل وكانت مدة ملكه ست عشرة سنة وعمره ست وثلاثون سنة . قيل وكان بين وفاته وبين الهجرة ستمائة سنة ؛ وقيل أكثر . ولما مات جعل فى تابوت من ذهب وطلى بالأطلية الممسكة وحمل إلى أمه بالإسكندرية . قيل جمع أرسطاطاليس عليه الحكماء وأمرهم أن يتكلم كل منهم بكلام وكانوا عشرة ، فقال الأول : أصبح آسر الأسرى أسيرا ، وقيل أشار إلى التابوت فقال كان يخبأ الذهب فصار الذهب يخبؤه . وقال الثانى : هذا الإسكندر طوى الأرض العريضة وهو اليوم يطوى منها فى ذراعين . وقال الثالث : العجب القوى قد عقب والضعفاء لاهون . وقال الرابع : ما سافر الإسكندر سفرا بلا آلة سوى سفره هذا . وقال الخامس : سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته . وقال السادس : كان يحكم على الرعية فصارت الرعية تحكم عليه . وقال السابع : كنت تأمرنا بالحركة فما بالك ساكنا . وقال الثامن : رب حريص على سكوتك وهو اليوم حريص على كلامك . وقال التاسع : كم أمات هذا الصندوق لئلا يموت فمات . وقال العاشر : كان الإسكندر يعظنا بنطقه وهو اليوم يعظنا بسكوته . وقالت أمه : مما يسلى عنه المعرفة باللحاق به . وقالت ابنة دارا : ما كنت أظن أن غالب دارا يغلب . وأخبار الإسكندر كثيرة وهى طرائف ونوادر ، واقتصرنا على ما ذكرنا خشية السآمة . وفى البيت التوجيه ، لأن ما صانه من العسجد يحتمل ماصانه الإسكندر فى بيوت الأموال ، ويحتمل ماصان الإسكندر وهو التابوت المذكور ، وتكون الإشارة إلى القصة ، والكلام متوجه إليهما معا . ثم قال :

وَسَفَتْ عَلَى الأَقْيالِ هُوجَ رِياحِها
وَزَوَتْ مَدَى عَبْدِ المَدَانِ الأَقْمَدِ

سفت الريح التراب : ذرته أو حملته ؛ والأقيال : جمع قيل ، يقال اقتال عليهم : أى ملك وهو قيل بتشديد الياء المكسورة ، أصله قيول من القول .

لأنه إذا ملك كان له القول كما يشاء أو أنه يكثر قوله فقلبت الواو ووقع الإدغام كنظائره ، وقد يخفف كميت ، ثم إذا جمع فقد يراعى أصله فيقال أقوال ، وقد يراعى الحال فيقال أقيال ، واشتهر هذا الاسم على ملوك حمير كما قال امرؤ القيس :

لعمرك ما إن ضرنى وسط حمير وأقوالها إلا المخيلة والسكر

وقيل : القيل دون الملك ؛ والهوج : جمع هوجاء ، وهى الريح الشديدة التى تقلع البيوت ؛ وزوت : قصرت أو جمعت أو قبضت وطوت ؛ والمدى : الغاية ؛ وعبد المدان : رجل من عظماء العرب ، وبنو عبد المدان كم لهم ذكر وشرف ، ولذلك قال القائل :

ولو أنى بايت بهاشمى خئولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

وكانت لهم أجسام كمل وألسن فصاح ، ولذا وصف بأقمد ، وهو الضخم لعنق الطويله ، وكان هجاهم الشاعر ، ويقال إنه حسان ، فقال :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير

فقالوا : قد تركتنا نستحى بذكر أجسامنا بعد ما كنا نفتخر بها ، مالنا على هذا بقاء ، فقال : سأغسل عنكم ما أزرى بكم ، وأنشد :

وكنا قائلين إذا رأينا لذى جسم يعد وذى بيان
وكأنك أيها المعطّى بيانا وجسما من بنى عبد المدان

وهذا من اقتدار الشعراء فى المدح والذم . ومعنى البيت : أن رياح المنون قد جرت عواصفها على أقيال حمير فأبادتهم وطوت بنى عبد المدان تحت أطباق الثرى . ثم قال :

وَنَزَتْ عَلَى سَبَأٍ وَعَادٍ نَزْوَةً فَغَدَوْا أحادِيثَ السَّمِيرِ السُّهَّدِ

نزت : وثبت ، نزا عليه نزوا ونزوانا ؛ وسبأ : اسم بلد بلقيس ولقب لعبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإليه ترجع قبائل اليمن . وفى الخبر « سئل صلى الله عليه وسلم عن سبأ فقال : كان رجلا وله عشرة من الولد ، تيامن منهم ستة قبائل وتشاءم أربعة » .

وقصة سبأ وهلاكها كما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز : كان لهم واد عظيم

جنبتاه الفواكه والزرع ، وبنوا سدا غلق ما بين الضفتين ، قيل بنته بلقيس ، وقيل حمير ، فوقف الماء وصار بحيرة عظيمة ، فكان يرتفع الماء برفق ويسقى الجنان فى جنبتى الوادى ، ثم عتوا وطغوا وبعث الله إليهم فيما يقال ثلاثة عشر نبيا ، فكذبوهم ، فبعث الله على ذلك السد جرذا أعمى توالد فيه فجعل يخرقه ويقلعه شيئا فشيئا حتى أفسده ، فسال عليهم الماء ، وأغرق الجنات والأمزال ، وأهلك الناس ، ومن بقى تفرق شذر مذر ، وذهبوا فى كل وجه .

وعاد : قبيلة ، وهم قوم هود عليه السلام المذكور فى القرآن ، وأخبار سبأ وعاد لايفى بها هذا التعليق ، والقدر المحتاج من ذلك مشروح فى القرآن والأحاديث : جمع أحدوثة بمعنى الحديث ؛ والسمير : المسامر من السمر ، وهو التحدث بالليل ؛ والسهد : الساهدون . ومعنى البيت : أن المنون أيضا نزت على سبأ وعلى عاد فغدوا : أى صاروا حديثا يتحدث بهم فى الأسفار ، وتكرر .. الأخبار ، قال تعالى ـ فجعلناهم أحاديث ـ . ثم قال :

وحَدَتْ بَنِى مَرْوَانَ بَعْدُ إلى الرَّدَى
فَخَدَتْ مُبارِيَةَ الظَّلِيمِ المُوفِـدِ

حدت : ساقت ؛ وبنومروان : هم عبد الملك وعبد العزيز وبشر بنومروان ومن بعدهم من الملوك كالوليد وهشام وسليمان وعمر وغيرهم مشهورون . أولهم مروان بن الحكم وكان واليا ، وآخرهم مروان الحمار ؛ وخدت : أسرعت ، يقال خدى يخدى : أسرع ؛ والمباراة : المعارضة والمغالبة ؛ والظليم : الذكر من النعام ؛ والموفد : المسرع . ومعنى البيت : أن المنون ساقت بنى مروان إلى الهلاك فجروا أسرع من الظليم فى إسراعه . ثم قال :

وَغَدَتْ دَساكِرُ جِلَّقٍ صُفْرًا كأنْ
لَمْ تُغْنَ قَطُّ بِحُفَّـدٍ أوْ وُفَّـدِ

عدت : صارت ؛ والدساكر هنا : بيوت يتخذها الأعاجم للشرب واللهو جمع دسكرة ؛ وجلق بكسر الجيم مع تشديد اللام مكسورة ومفتوحة هى دمشق ، وقيل عرصتها ؛ والصفر : الخالى ؛ والحفد : جمع حافد ، وهو الخادم ؛ والوفد : جمع وافد ، وهو القادم . والمعنى : أن المنون لما أهلكت

الملوك المروانية صارت دساكرهم فى دمشق خالية كأن لم تكن تغشاها قبل ذلك وفود الناس ، ولم تحفها الحفدة أيام حياتهم وملكهم . ثم قال :

وَحَصَتْ بَنِى العَبَّاسِ أَمْلاكَ الوَرَى
بِجِمارِها فَغَدَوْا حَصِيدَ العُبْرُدِ

حصت : رمت ؛ وحصاه بالحصى : رماه بها ؛ وبنو العباس : الملوك الإسلاميون ، والعباس هو ابن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه ، والملوك من ولده أولهم أبو العباس السفاح ؛ والأملاك جمع ملك ؛ والورى : الخلق ، ووصفهم بذلك تفخيما لأنهم بيت الخلافة الإسلامية ، وفيه إشارة إلى ما ورد فى التاريخ أن ابن عباس رضى الله عنه لما ولد له عبد الله وهو جدّ الملوك أتى به عليا كرم الله وجهه ، فقال له على : ما سميته ؟ فقال له : أويحل لى أن أسميه حتى تكون أنت تسميه ، فأخذه علىّ وسماه فقال لأبيه : خذ إليك أبا الأملاك . والجمار : جمع جمرة ؛ وهى الحصاة ؛ والحصيد : المحصود ؛ والعبرد على أمثال قنفذ من العشب الرقيق الردىء . ومعنى البيت : أن المنون رمت بجمارها ملوك بنى العباس فصاروا كأنهم الحشيش المحصود . ثم قال :

فَلَقَدْ سَقَتْ فى الدَّهْرِ كُلَّ مُمَلَّكٍ
شَرْيًا وَهَدَّتْ رُكْنَ كُلِّ مُمَرَّدِ

واسْتأْصَلَتْ فى الجَوِّ أَعْقُبَهُ وفى الـــبَيْدَاءِ كُلَّ مُغَوِّرٍ وَمُطَوِّدِ

هَلْ أَقْصَرَتْ عَنْ ذِى دَهاءٍ حُوَّلٍ
لِحَوِيلِهِ أَوْ عَنْ هُمَامٍ صِنْدِدِ

أَمْ فى البَسِيطَةِ غَيْرَ صَيْدٍ مُعَرَّضٍ
لِسِهَامِهَا وَخَلا لَهَا مُسْتَحْصَدِ

الشرى : الحنظل ؛ والممرد من البناء : المطول ؛ والتمريد : التمليس والتسوية ؛ والأعقب : جمع عقاب ، الطائر المعروف ؛ والبيداء : الفلاة ؛ والمغور : سالك الغور ؛ والمطود : سالك الأطواد : أى الجبال ؛ والدهاء : المكر وجودة الرأى ؛ والحويل والاحتيال : الحذق وجودة التصرف فى الأمور

ورجل حول بضم الحاء وتشديد الواو المفتوحة : شديد الاحتيال ؛ والهمام الملك العظيم . والهمام أيضا : الشجاع ؛ والصندد على مثال زبرج : السيد الشجاع ، ويقال هو الحليم أو هو الجواد . ويقال أيضا صنديد ؛ والبسيطة : الأرض ؛ والمعرض : الذى باغ السنخ للرامى فأمكنه من نفسه ؛ والخلا : العشب الرطب ؛ واستحصد : الذى بلغ أن يحصد . ومعنى الأبيات الأربعة : أن المنية قد سقت على مرور الدهر كل مملك من الناس الحنظل . كما سقت ذلك كل مملوك ، فلم ينج من مرارتها شريف ولا مشروف ؛ وهددت : أى صدعت أركان كل قصر ممرد . وقد استأصلت أيضا فى الهواء أعقبه : أى أخذتها جميعها والمراد الطير كله ، وإنما ذكر العقاب لأنه كان يضرب به المثل فيقال : أعز وأمنع من عقاب الجو . فغيره أحرى : إماحقيقة فى هذا لأن الموت عام فى النفوس ، وإما كناية عن كونها لاينجو منها أحد من الناس ولو كان فى عز العقاب ، وكذا استأصلت وحش البيداء سواء منه ساكن الجبال كالأوعال أو ساكن السهول كالنعام أو ساكنهما معا كالذئاب ؛ وهذا أيضا إما حقيقة وإما كناية والمنية هل أقصرت أى ما أقصرت أى ما عجزت عن صاحب العقل والدهاء فينجو منها بحيلة ؛ ولا عن الهمام الصنديد فينجو بشجاعته وقوته وليس النجاة فى عادات الناس من الأعداء وكل من يتقى شره إلا بأحد هذين من الاحتيال أو الصيال وقد بطلا معا هاهنا ؛ فلم ينج واحد منها من الموت وليس فى الأرض إلا صيد مستهدف لسهام المنية وخلاء قد آن أن يحصد بها ؛ يريد أن الفرس كلها بمنزلة الصيد والكلأ للموت . ثم قال :

مَا المَرْءُ إلاَّ ابنُ التَّوَى وَلَوِ ارْتَقَى ... أُفُقَ السَّمَاءِ بِسُلَّمٍ لَمْ يُخْلَدِ
شَخْصٌ تَكَنَّفَهُ الثُّرَيَّا وَالثَّرَى ... فَالجِسْمُ مُكَوَّنٌ مِنْ خَسِيسِ الجَرْمَدِ
وَالرُّوحُ كَانَ نُشُوءُهُ مَنْزُوعُهُ ... مِنْ ذَلِكَ المَلَإِ العَلِيِّ الأَمْجَدِ
فَيَحِنُّ ذَاكَ لِأَرْضِهِ بِتَسَفُّلٍ ... وَيَحِنُّ ذَا لِسَمَائِهِ بِتَصَعُّدِ
وَالمَرْءُ بَيْنَهُمَا مَخَافَةَ فُرْقَةٍ ... وَنَوَى قَذُوفٍ فِى المُقِيمِ المُقْعِدِ

التوى بالمثناة من فوق : الهلاك ؛ وفى نسخة : الثرى وهو التراب وأصله التراب الندى ؛ والتكنف : الاشتمال والإحاطة ؛ والثريا : النجم المعروف .

والخسيس : الدنىء ؛ والحرمد : من الطين الأسود المتغير اللون والرائحة ؛ والنوى القذوف : البعيدة من القذف وهو الرمى كأنها ترمى بصاحبها إلى بعد ؛ والمقيم المقعد : مثل للأمر الهائل ، ويقال وقع فلان فى المقيم المقعد : أى هول عظيم كأنه يقيمه تارة ويقعده أخرى . ومعنى الأبيات الخمسة : أن الإنسان ما هو إلا ابن الهلاك : أى لكونه لاينفك عنه ، فكأنه ابنه كما قال : ابن السبيل وابن غبراء أو أنه ابن الهالكين ، فإن له نسبا فى الهالكين عريقا كما قال أبو نواس ، وأيضا ابن الثرى : أى يرجع إليه فكأنه ابنه أوأنه ابن آدم المخلوق من الثرى ويقال له عرق الثرى أو أعراق الثرى كما قال امرؤ القيس :

إلى عرق الثرى وشجت عروقى وهــذا الموت يسلبنى شــبابى

وإذا كان أصله منه فيوشك أن يرجع إلى أصله ، قال تعالى ـ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ـ والمرء شخص أحاط به شيئان : أحدهما فى غاية الرفعة كالثريا وهو الروح ، والآخر فى غاية الانحطاط كالثرى وهو الجسد . فأما الجسد فمخلوق من طين من حمأ مسنون كما قال تعالى . وأما الروح فمخلوق فى العالم العلوى الرفيع حسا ومعنى لكونه محلا للملأ الأعلى من الأرواح المقدسة العارفة من الملائكة والأنبياء ، ثم أهبط وأودع فى هذا الهيكل ليستحصل فيه سعادته بالفعل وشقاوته على ما حصل له فى علم خالقه جل اسمه وتعالت كلمته ، وقد جعل الله تعالى فى طباع الأشياء الميل إلى الأصل والحنين إلى المنشأ ، فقد كان الجسد يميل إلى التجرد والعلو وذلك أصله ، وشتان ما بين الخبث والصفاء والأرض والسماء كما قيل :

راحت مشرقة ورحت مغربا شتان بين مشرّق ومغرب

فكان الإنسان من هذا الأمر فى حيرة كبيرة وهول عظيم ، وإنما مثاله فى ذلك مثال الولد الصغير يفترق والداه ويتقاطعان ويتباعدان ، فهما يتجاذبان قلبه ويطيلان حيرته وغمه ، أو مثال الطير المقفوص فطبعه إلى الطيران وفيه روحه وأنسه والقفص يمنعه ويجذبه . وفى هذه الأبيات إشارة إلى شرح المملكة الإنسانية وسيفصح بذلك بعد ، وهناك يقع شرحها إن شاء الله تعالى ، وفى المقيم المقعد التورية لأنه مثل كما مر ، وأشير به إلى أن الجسم يقعد والروح يقوم ثم قال :

والرُّوحُ كُلِّفَ أنْ يُزَوِّدَ لِلنَّوَى ... بِرًّا فَبِهَا هُوَ بَانَ غَيْرَ مُزَوَّدِ
وَيُحَطَّ عَنْهُ عِبْؤُهُ وَيُكَفَّ عَنْـ ... ـهُ قُيُودُهُ فَمَشَى رَسِيفَ مُقَيَّدِ
وَيُمَاطَ عَنْـهُ بِتَوْبَةٍ أَدْرَانُهُ ... حَتَّى يَعُودَ إلى الصَّفَاءِ كَمَا بُدِى
وَيُشَالَ مِنْ وُهْدِ الحُظُوظِ إلى العُلا ... بِتَعَلُّقٍ وَتَخَلُّقٍ وَتَجَـرُّدِ
وَيُفَصَّ مِنْ حَمَإِ الَّذِى قَدْ شَابَهُ ... بِتَأَنُّسٍ وَتَوَحُّشٍ وَتَفَـرُّدِ
وَيُمَدَّ ضَبْعَاهُ وَيَكْحَلَ جَفْنُهُ ... بِتَذَكُّرٍ وَتَفَكُّرٍ وَتَفَقُّـدِ

بان الرجل من منزله: خرج عنه مرتحلا أو مسافرا ، والعبء بكسر العين: الحمل الثقيل ؛ والرسيف : مشية المقيد ، يقال رسف فى قيوده يرسف رسفا ورسيفا مشى ، وكذلك ماط الشيء وأماطه عنك : أبعده وأزاله ؛ والأدران: الأوساخ ؛ وأشاله: رفعه ؛ والوهد : ما انخفض من الأرض ؛ وحظوظ النفس: كل مالها فيه متعة ولذة حسا ومعنى كالأكل والنكاح والرياسة وبعد الصيت ؛ والفص : الفصل ، تقول فصصت الشيء من الشيء إذا فصلته عنه وانتزعته منه ؛ والحمأة : الطين الأسود المنتن الرائحة ، وحمىء الماء خالطه ذلك ؛ والشوب : الخلط ؛ والمد : البسط ؛ والضبع : العضد ، ومددت ضبع فلان قويته وأعنته ونصرته . ومعنى الأبيات الستة: أن الإنسان لما أودع هذا الروح كلّفه الله تبارك وتعالى أن يزوّده زادا يسعد به؛ فإن الروح غريب فى البدن ، خليفة فيه كما سنشرح ذلك وهو بصدد السفر والانقلاب إلى مولاه تعالى وذلك بالموت وليس يصحبه البدن ، لأن البدن راجع إلى التراب حتى يلتقيا فى الموعد ولا تصحبه الدنيا لأنها فانية ، وإنما يصحبه ما علم وما عمل ، فإن كان معرفة وطاعة ارتفع بها وسعد وصعد وبلغ بها عليين وهذا هو الزاد المطلوب ، وإن كان جهلا ومعصية انتكس بها وشقى وحجب ، نعوذ بالله من الخذلان . والبر : هو الطاعة والخير وهو الذى طلب من الإنسان أن يشتغل به ليتزود به روحه إذا ارتحل ، وها هو الإنسان غافل مشتغل بالدنيا والشهوات حتى يرتحل عنها بلا زاد فتقع الحسرة ولا تنفع الندامة ؛ نسأل الله التوفيق . وطلب منه أيضا أن يسعى فى حط أعباء الشهوات والمعاصي والذنوب والغفلات عن روحه ، وهذا كله جمال يبرك بها فى حضيض النقصان وقيود تعقله عن الارتحال إلى

حضرة مولاه . فلو فك عنه هذا القيد لوصل ، ولكنه اشتغل عنه فجعل يرسف في قيوده ، وأين يصل بالرسيف ؟ طلب منه أيضا أن يزيل عنه أدرانه : أى أوساخه التى أوجبتها المعاصى والغفلات حتى يعود صافيا كما بدأ : أى كما خلق فإنه قد أنشئ صافيا عالما بالطبع وإنما يحدث له التدنس والعمى فى هذا البدن لارتكاب الذنب وكثافة الحجب . وطلب منه أيضا أن يرفع من مقام الحظوظ التى هى الحضيض السافل إلى المقام العالى وهو مقام النزاهة والطهارة والمعرفة ، وذلك مقام الملائكة وخواص بنى آدم ، وإنما يكون بالتعلق بالله تعالى والتخلق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا والتجرد عن أوصاف البهائم وأوصاف السباع وأوصاف الشياطين بعد التجرد عن العلائق والشواغل الحسية كلها . وطلب أيضا أن يفصل الروح من طينة الجسم الأرضية ، والمراد الانفصال عن طبائعها والتطهر من لوثها ، وذلك عند التأنس بالله تعالى والتوحش من غيره والتفرد قلبا وقالبا حسا ومعنى أو معنى فقط وهو أقوى وأكمل ، ولكن مبدؤه التفرد الحسى والله ولى التوفيق . وطلب أيضا أن يمد ضبعاه : أى يقوى وينصر ، ويكحل جفنه : أى يفتح بصيرته وذلك بالتذكر العهد المأخوذ يوم « ألست بربكم » أولا ، والمأخوذ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا ، والتفكر فيما له وعليه ، وفى حكمة الله تعالى وصنعته وأحكامه وآياته والتفقد لأحواله وأقواله وحضراته وغير ذلك . واعلم أنه ما مر لفظ فى هذه الأبيات إلا وهو قابل لغير ما فسرنا به ، ومحتمل لأزيد من ذلك وأكثر ، مما يتسع به مجال الناظر البصير العبر ، وإنما قصدنا به تمشية الكلام بأقل ما يمكن ، وإلا فهى محتوية لمن تأمل على جميع ما يشرحه أرباب القلوب فى السلوك والرياضة والتخلى والتحلى ، وفيها مع ذلك إطناب ماحمل عليه الشغف بالبيان والمبالغة فى الباب ، ولو تعرضنا لشرحها احتجنا إلى مجلد فيها أو أكثر . ثم قال :

وَالمَرْءُ مَشْغُوفٌ بِإِتْرَافِ الَّذِى ... مِنْ ذَاتِهِ هُوَ عَنْ قَرِيبٍ مُرْتَدِ
وَمُضَيَّعٌ مَا لَيْسَ يَبْرَحُ دَائِمًا ... مَعَهُ عَلَى مَرِّ الوُجُودِ السَّرْمَدِ
كَالعَيْرِ لَيْسَ لَهُ بِشَىْءٍ هِمَّةٌ ... إِلاَّ اقْتِضَامَ القَضْبِ حَوْلَ المِذْوَدِ

الإتراف : التنعيم ، والمرتدى : الهالك من الردى وهو الهلاك ؛ والعير بالفتح

الحمار ؛ والاقتضام: الأكل بمقدم الفم والقضب : الكلأ الرطب ؛والمذود على وزن منبر والذال الأولى معجمة : معلف الدابة . ومعنى الأبيات الثلاثة: أن الروح مطلوب تخليته وتحليته كما مر والمرء متغافل عن ذلك المطلوب مشغوف مولع بتكميل ما هو من ذاته هالك قريبا فى التراب وهو الجسد ، ومهتبل بتنعيمه وترفيهه ومضيع ما هو باق معه لايفارقه فى الدنيا والآخرة ، وهو روحه الذى هو محل الخطاب ومهبط الأنوار ، وإنما مثاله فى القيام بجسمه وتضييعه روحه مثل الحمار ، فان الحمار لاهمة له إلا فى أكل الحشيش واقفا حول المذود إذ لا أرب له ولا مطلب وراء شهوات بدنه ، ولو كان الإنسان حمارا لم يكن عليه بأس ، فإن الحمار لم يلزم التكليفات ولا استودع الأمانات ، فلو كان للمرء بصيرة وتوفيق لاعتنى بروحه التى يشهد بها المولى . ثم قال :

وَيْحَ المُشَرِّفِ لِلْخَسِيسِ مُجِلِّهِ ... ومُذِلِّ ذى الشَّرَفِ الأَثِيلِ الأَقْعَدِ
وَحَفِيظِ مَنْ هُوَ لِلصَّداقَةِ خائِنٌ ... وَخَوْنِ ذى الوُدِّ الصَّفِىِّ الأَتْلَدِ

ويح : كلمة تقال رحمة ،تقول ويحا لزيد وويح لزيد؛ والإذلال : الإهانة أذله فهو مذل له ؛ والأثيل: الأصيل ؛ والأقعد: الأثبت ؛ والأتلد: الأقدم الأصيل؛ والمعنى : أن المرء مطلوب بالسعى فيما يبقى من طهارة نفسه وتحليه بالمعارف والاعتناء بأشرف الجزءين ، وهو الروح الذى هو محل العلم والمعرفة ، فويحا لمن اشتغل بتشريف الخسيس وهو الجسد الظلمانى وإجلاله بترفيهه والسعى فى مصالحه وإهانة ذى الشرف الأصيل ،وهو الروح الذى هو أقعد فى الشرف وأعرف بالمجد وحفظ من هو خائن لايدوم على الصداقة بل يفارق بالموت وهو الجسم وخيانة الودود الصفى الود التليد الحب ،وهو الروح ؛ وحفظ الأول بما ذكر من الاعتناء بمصالحه وحراسته عما لايلائمه ومراعاة غذائه من غير تفريط ولا غفلة وخيانة . والثانى بإهماله عما يصلح به من الغذاء وحراسته عما يضره من الدواء ،وغذاء الجسم الطعام والشراب ، وغذاء الروح العلم والمعرفة والأنوار المستجلبة بالطاعات والموافقات ، ويصح أن يراد بالأول الشيطان الموسوس ، وبالثانى الملك الملهم . ثم قال :

ولِبائِعٍ حُورًا حِسانا خُرَّدًا ... عُرُبا بِعَظْمٍ فى التُّرابِ مُدَوَّدِ

البيع : الإبدال : فمن باع شيئا بشيء فقد أبدله به ؛ والحور : جمع حوراء، وهى الشديدة سواد العين الشديدة بياضها ؛ والحسان : جمع حسنة وحسناء ؛ والخرد : جمع خريدة ، وهى الحيية ؛ والعرب : جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها ؛ والمدود : الذى دخله الدود يقال دود اللحم فهو مدود : أى ويحا لمن يبيع حور الجنة الحسان الخرد العرب بعظم يدود فى التراب . والمعنى : أنه يشتغل باللذات وما لها إلى جسمه وجسمه سيدود ويفنى ويترك الطاعات التى يستوجب بها الحور فقد باعها . ثم قال :

ولِـرَاضِعٍ ثَدْىَ الهَوَىٰ وَسْنَانَ فى   لَيْلِ الضَّلالَةِ خابِطٍ مُتَرَدِّدِ

الوسنان : من أصابته السنة ؛ والخابط : من أتى ليلا على طريق لايعرفه ؛ والتردد : التحير : أى ويح لمن يرضع ثدى الهوى بأن يلتزم ما تحب نفسه ويسعى فيه من غير موجب من الشرع ؛ ورضاع الثدى إما كناية عن التزامه والعكوف عليه كما أن الرضيع لايغفل عن ثديه ولا يستطيع الصبر ، وإما كناية عن حبه والشغف به ، كما أن الصبى يحب مرضعته ويولع بها ؛ وسنان : أى غافل فى الضلال الذى هو كالليل المظلم ساع فيه بلا تبصر ولا نظر فيما يحسن ويقبح شرعا . ثم قال :

مُتَخَمِّطٍ فى تِيهِـــهِ مُتَصَلِّفٍ   ومُذَبْذَبٍ فى نَوْكِهِ مُتَلَدِّدِ

المتخمط : الشديد الغضب ؛ والتيه بكسر التاء : الصلف والكبر ؛ والتيه أيضا الضلال ، تاه يتيه فهو تائه وتيهان ؛ والمتصلف : من يتكلف الصلف ، وهو الخروج عن الطريق ومجاوزة الحد تكبرا ؛ والمذبذب : الحائر ؛ والنوك بالضم والفتح : الحمق ، نوك بالكسر نوكا ونواكة فهو أنوك : أى أحمق ؛ والمتلدد بدالين مهملتين : المتحير فهو توكيد : أى ويح المتصف بهذه الأوصاف . ثم قال :

فَطِنٍ بِدُنْياه بَصِيرٍ ناقِـــدٍ   مُتَغافِلٍ فى دِينِـــهِ مُتَبَـــلِّدِ
حَرِدٍ إذا ما سِيمَ خَسْفًا جاهُهُ   وإذا يُسامُ إلهُـــهُ لَمْ يَحْرَدِ

الفطن : الحاذق ؛ والناقد : المميز للأشياء معرفة وخبرة ؛ والمتبلد : المتحير والمتبلد أيضا : الخاضع غير المتجلد ؛ والحرد : الغضبان ؛ والخسف : الذل ،

وسامه خسفا أراده به وعرّضه له . والمعنى : أنه ذو فطنة فى أمور الدنيا وبصيرة وانتقاد ، فلا يفوته شىء منها دقيق ولا جليل وذو تغافل فى أمور الدين وتبلد ، فلا يكاد يدرك منها شيئا ، وهو مع ذلك إذا سامه أحد خسفا بنقص جاهه ، أو إذايته غضب وانتصر ، وإذا انتقص جناب الله تعالى أوضيع حقه لم يبال .

ثم قال :

يُسْدِى ويُلْحِمُ فى الغُرُورِ مُزَاوِلاً ما عَنْهُ بُدٌّ مِنْ لُعاعِ القُنْرُدِ
ويُضيعُ ما استَكْفَاهُ رَبُّ العَرْشِ مِنْ سَعْيٍ لأمْرِ مَعَادِهِ وتَزَوُّدِ

السداء واللحمة للثياب ، وأسدى الثوب يسديه جعل له السدى ؛ وألحمه : نسجه ثم صار ذلك مثلا فى الاشتغال بالشىء ، يقال هو فى هذا الأمر يسدي ويلحم ؛ والغرور : كل ما لابقاء له ولا حاصل من أمور الدنيا ؛ والبد : العوض والمثل ؛ واللعاع : الجرعة من الماء ، واللعاع أيضا : نبت يخرج ناضرا أول ما يظهر ، ومنه قيل للدنيا اللعاع واللعاعة ، لأنها زهرة لابقاء لها ؛ والقنرد : قماش البيت ؛ واستكفيت الأمر فلانا : استحفظته . والمعنى : أنه أيضا يسعى ويجتهد فى الغرور الدنيوى مزاولا : أى معالجا ومتكلفا لما عنه خلف من لعاعة الدنيا وقماشها والإضافة فيه للبيان كشجر أراك ، ويضيع ما كلفه الله تعالى بحفظه ومراعاته من السعى لآخرته ، والتزود من العمل الصالح لعقباه ، والمغبون من اشتغل بما ضمن له عما طلب منه ، ومن باع الباقى بالفانى.

ثم قال :

ذِى خِلَّتَيْنِ عَرُوبَةٍ حُسَّانَةٍ رَوْضِ الخَنِيلِ وَحَيْزَبُونٍ عِلْكِدِ
وَمِقٍ لِهَذِى وَهْىَ خِبٌّ فارِكٌ فَرِكٍ لتلكَ عَلَى هَوًى لَمْ يُحْصَدِ

الخلة : الحبيبة والحبيب أيضا يكون للذكر والأنثى ؛ والعروبة : المتحببة والحسانة بضم الحاء وتشديد السين : الحسناء ؛ والحيزبون : العجوز ؛ والعلكد العجوز الداهية ؛ ومقه يمقه مقة : أحبه ؛ والخب بكسر الخاء : الخبث والخديعة وصف به المرأة مبالغة كما يقال رجل عدل وامرأة عدل ؛ والفارك : المبغضة لزوجها تقول فركت زوجها بالكسر وقد يفتح فهى فارك وفركها

هو أيضا أبغضها ؛ والهوى : المحبة والميل ؛ والخضد : كسر الغصن ونحوه من غير إبانة . والمعنى : أن الغافل المؤثر لدنياه على آخرته شبيه برجل له خلتان حبيبتان : إحداهما حسناء تحبه ، وهى روض الخليل : أى فيها لخليلها الأنس وكل ما تشتهى كالرياض ؛ والأخرى عجوز فانية شريرة تكرهه وتبغضه ، وهو مع ذلك يحبّ هذه العجوز الخداعة الخبيثة الفارك ، ويبغض تلك الحسناء على هوى منها فيه ، وميل منها إليه لم يتبدّل ، كالغصن لم يقطع له شىء فضلا عن الإبانة . ثم قال :

مُتَكاسِلٍ عَنْ كُلِّ حَقٍّ عاجِزٍ مُتَشَمِّرٍ فى كُلِّ ما بُطْلٍ أَدِى

التكاسل : تعاطى الكسل ؛ والحق : الثابت ؛ والمتشمر : ضد الكسلان ؛ والبطل مصدر بطل الشىء يبطل بطلا وبطولا : إذا ذهب ضياعا وخسرا ؛ والأدىّ بتشديد الياء بوزن غنىّ : الخفيف من الناس المتشمر ، وهو وصف للمتشمر لاللبطل ، كما أن عاجزا وصف المتكاسل لاالحقّ . والمعنى : أنه يتكاسل عما يدوم ويبقى ويعجز عنه ، ويشمر إلى مايذهب ويفنى ويتحبب إليه . ثم قال :

لَوْ كانَ ذَا لُبٍّ لَأَيْقَنَ أَنَّهُ ماكانَ أُنْشِىءَ باطِلًا أَوْ عَنْ دَدِ

كَلَّا وَلا لِلْخُلْدِ فِى الدنْيا وَلا

لِيَكُونَ أَقْصَى عَيْشِهِ العَيْشُ الردِى

بلْ مُنْشأً فى الأرْضِ لامُسْتَوْطِنًا لكِنْ لِيَعْبُرَ نَحْوَ ذَاكَ المَوْعِدِ

اللبّ : العقل ؛ والدّد : اللعب ؛ والعبور : المجاوزة . والمعنى : أن الإنسان لو كان له عقل يتأمّل به لعلم أنه لم يخلقه الله تعالى باطلاً لغير غاية تراد ولاخلقه عبثا ولعبا ، قال تعالى ـ وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ـ وقال ـ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ـ الآية ، كلا ليس الأمر كذلك ، فليس بمخلوق عبثا ولا ليخلد فى الدنيا ولا ليكون العيش الدنيوى الردىء منتهى عيشه بحيث لايبعث ولايكون له جنة ولا نار كما يتوهم منكر البعث ، وهذا حصر الأحوال المتوهمة ، وهو أن الإنسان ما خلق باطلا لغير حكمة ولا غاية ، وإن جاز ذلك عقلا ، ولا خلق ليبقى فى الدنيا خالدا ، ولا يفنى بالموت فناء لاحياة بعده ، فإذا بطلت هذه كلها لم يبق إلا أنه منشأ فى الأرض راحلا مسافرا لامستوطنا فيها ، ولكن ليعبر نحو

ذلك الموعد ، وهو موعد الأوّلين والآخرين ، وفيه يستبين مآل أمره ويجنى ثمرة غرسه . ثم قال :

وَخَلِيفَــةٌ لِيَسِيرَ فيها سِــيرَةَ الْـ مُسْتَخْلَفِ المُسْتَحْفَظِ المُسْتَعْهَدِ
مَلِكٌ يُوَازِرُه الحجا ويُمَدُّ مِنْ جُنْدٍ بأَنْوَارِ الغُيُوبِ مُجَنَّـدِ
والكائناتُ رَعِيَّةٌ تُجْـبَى إلى تصْرِيفِ فِكْرٍ عِنْدَهُ مُتَبَدِّدِ
وَهَوًى بِرِبْقَةِ بَيْتِهِ خِدَعُ الهَوَى وَسَطَا بِجَمْعٍ مالْحظُوظ مُحَشَّدِ
فَتَكَنَّفَ المَلِكَ البُغَاةَ مَتَى يَرُمْ نَحْباً يُعادُ على السَّدَادِ ويُحْسَدِ
وَتَلَظَّتِ الحَرْبُ العَوَانُ فإنْ يكنْ حَضَرَ المَلِيكَ وَزِيرُ صِدْقٍ يُعْضَدِ
مُسْتَنْصِرا بالرُّشْدِ والتَّزْنِيقِ فى غَمَرَاتِها وقِرَاعِهِ الجَمْعَ العَدِى
فَثَنَى جُمُوعَهُمُ وَفَلَّلَ غَرْبَهُمْ بغِرارِ سَيْفٍ من حِجَاهُ مُهَنَّدِ

المستخلف : هو المجعول خليفة ؛ والمستحفظ : الموكّل بحفظ الشيء ؛ والاستعهاد : استفعال من العهد وهو الوصية ، ويقال أيضا : استعهد من صاحبه إذا اشترط عليه وكتب عليه العهدة ، واستعهد فلانا من نفسه إذا ضمنه حوادث نفسه ؛ والجند بالضم : العسكر ؛ والمجند : المجموع ؛ وسطا عليه سطوة : صال عليه ؛ والمحشد : المجموع ؛ والبغاة : جمع باغ ، وهو الظالم الخارج عن الطاعة ؛ والنحب : الحاجة والنذر ؛ والسداد بفتح السين : الصواب ؛ والحرب العوان : التى قوتل فيها مرّة بعد مرّة أخرى ، استعارة عن عوان النساء وهى التى تقدم لها زوج ؛ والغمرات : مواطن التحام الحرب استعارة من غمرات الماء ؛ والقراع : المقاتلة والمدافعة ؛ والعدى على وزن غنىّ : جماعة القوم يعدون للقتال ؛ والتفليل : الكسر ؛ والغرب : الحدّ من السّيف ، ويُستعار للقوّة والشوكة فيقال : فلّ غربهم : أى كسر شوكتهم ؛ والغِرار بكسر الغين : حدّ السيف ونحوه . ومعنى الأبيات الثمانية : أن الإنسان من حيث روحه خليفة فى هذه الجثة استخلفه الله تعالى فيها ، واستحفظه إياها وأوصى عليها ، وذلك ليسير فيها سيرة المستخلف بتصريف كلّ جارحة ظاهرة وباطنة فيما خُلقت له مما يعود عليه به نفع وصلاح فى العاجل والآجل ، وحراسته من كلّ ما يؤذيه

والوقوع فيما يرديه . وهذا الروح كالملك فى البدن ، والعقل كالوزير ، والأنوار التى يمدّه الله تعالى بها كالجنود له ؛ ثم إن الهوى كالقائم عليه يريد أن يفسد عليه ملكه ، وقد استمال بخدعة ربة البيت وهى النفس فتبعته وصال على الروح والعقل بجند من الحظوظ : أى الشهوات والشيطان معينه فتكنف لهذا الملك وهوالروح البغاة : أى أحاطوا به من كل جانب ، فمتى يحاول أمرا يقضيه من الخير والصلاح عادوه وحسدوه ونازعوه ، وعند ذلك تلظت : أى اشتعلت الحرب بين الروح والهوى ، هذا يدعو إلى الخير وهذا يدعو إلى الشر ، فإن كان مع الروح وزير صالح ناصح وهو العقل الكامل السالم ، فإنه يعضد أى ينصر ويعان على عدوه حالة كونه مستنصرا على العدو بالرشد من الله تعالى والتوفيق منه ، فإن العقل غير نافع بلا توفيق ، وذلك فى غمرات هذا الحرب وفى قراعه هذا الجمع العدى ، فإن فعل ذلك ثنى جموع الهوى والشهوات وحسم شوكتهم بسيوف العقل المهندة القاطعة . وأشار فى هذه الأبيات إلى ما ذكره أرباب القلوب فى المملكة الإنسانية ، وفيها كلام كثير وترقيق لايسعه هذا التقييد . وحاصل ما وقعت الإشارة إليه باختصار أن الله تبارك وتعالى أودع الروح فى هذا الجسد كالخليفة فيه ليصرفه ، وعبر أرباب الحقائق عن هذا المعنى بطريق التمثيل والمقايسة وقالوا : إن الإنسان هو العالم الأصغر ، وقد بينا وجه ذلك فى غير هذا المحل ، وكما أن الله تعالى استخلف آدم فى الأرض من العالم الأكبر فكذلك استخلف الروح فى أرض الجسم من العالم الأصغر ، ولما استخلفه جعل له مدينة هى مملكته وموضع سياسته ونظره وهى الجسم ، وجعل له منها محلا هو قصر الملك يحل فيه أو يقوم به أو يراعيه على الأقوال الثلاثة فى أن الروح جوهر متحيز أو عرض أو جوهر مجرد ، وهذا القصر هو القلب وقيل الدماغ على الخلاف المشهور ، وكل ما احتوت عليه هذه المدينة هى حضرة الملك ، وماخرج عنها هو باديته ، وجعل له الحواس كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس جباة يجبون له صور المكونات ومعانيها ، وجعل له متنزها فى أعلى هذه المدينة يشرف منه على رعيته وهو الدماغ ، وجعل فى مقدّمه خزانة يجتمع فيها جبايات الجباة وهى المسموعات والمبصرات والمشمومات والمذوقات والملموسات ، ويقال لهذه الخزانة الحس المشترك ، ومنها

انتقل إلى خزانة الخيال بعد تمام العمل ، ومنها تنقل إلى خزانة الفكر فى وسط الدماغ ، فيأخذ ما صح منها ويرد ما لم يصح ، فهو الضابط الحافظ القيم على الخيال ، كما أن الخيال هو القيم على الحراس ، وجعل آخر هذا المتنزه خزانة أخرى للحفظ ، وأوجد تبارك وتعالى فى هذه المملكة النفس وهى محل التطهير والتغيير وهى حرة هذا الملك وربة بيته ، وأوجد الله العقل فجعله وزيرا لهذا الملك عنه يقع الإيراد والإصدار ، فاذا وردت الجبايات على الفكر رفعها إلى العقل ، ثم رفعها إلى الملك وهو الروح ، ثم رفعها الروح إلى الملك الحق لا إله إلا هو رب العالمين ؛ وتسمى فى الرتبة الأولى محسوسات ، وفى الثانية متخيلات وفى الثالثة والرابعة معقولات لأن الفكر خادم العقل ، وفى الخامسة أسرارا ؛ ثم إن الله تعالى خلق فى هذه المدينة رئيسا آخر ثائرا قويا ينازع الروح فى المملكة الإنسانية ويقال له الهوى ، وكما أنه قد أمد الله تعالى الملك الأول وهو الروح بالملائكة والعلوم والمعارف وهى جنوده ، كذلك قد أمد هذا الثائر بالشياطين وأصناف هذه الشهوات واللذات وهى جنوده قالوا على طريقة التمثيل : ثم إن هذا الثائر وهو الهوى قد اطلع يوما مع وزيره وهو الشهوة وجنوده فرأته النفس ورآها ، فلما تراءيا عشقته وعشقها ، فرام أن يستمكن منها فجعل يخادعها ويهاديها ويمنيها ، فلما رأت نعمته عاجلة ولذته حاضرة مالت إليه ، والروح لم يشعر بشيء من هذا والعقل الذى هو الوزير قد علم به غير أنه كان يلاطف الأمر عسى أن ترجع ، ثم إن الروح استدعاها فتعاصت عليه ولم يدر سبب تعاصيها ، فسأل الوزير عن نشوزها وتمردها فقال له الوزير : إنها قد مالت إلى غيرك ، فإن هنا رئيسا نعمته عاجلة مشهورة ونعمتك آجلة غائبة ، ومساعيه لذيذة سهلة ومساعيك شاقة كريهة وقد أعجبها فاستهواها ؛ فحينئذ عظم الأمر على هذا الملك وهو الروح ، فلم ير مغيثا ولا ناصرا إلا الرجوع إلى ربه ومالكه الحق الذى استخلفه وهو الله تعالى اسمه لينصره ، وهذا حكمة خلق هذا الثائر ، فان الروح مخلوق فى غاية الطهارة والمعرفة والكمال ، فلو ترك ونفسه لكان ربما دخله طغيان وغفلة عن مالكه الحق وجهل باقرار النعم ، فابتلاه الله بهذا الثائر العدو ليصرف عجز نفسه وعظيم افتقاره إلى مولاه تعالى ، وليرجع اليه ويتعرف كفايته وحمايته وعنايته به ، فإذا رجع إلى مولاه فى شأن هذه الناشزة الخائنة

كفاه الله تعالى بفضله أمرها وناب عنه فيها، فخاطبها تعالى فقال - يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى - وفى هذا الخطاب متسع لفهوم أهل الإشارات ولا غرض لنا فى التعريض لذلك ، فإذا سمعت نداء الحق أجابت وأذعنت لأنها وغيرها فى قبضته تعالى ، فدخلت تحت سلطان الروح وجرت حركتها على إشارته وبرئت من الهوى ، ثم كلما هم هذا الثائر بالاستيلاء على المملكة نهض الوزير فى دفعه ولاتزال الحرب بينهما ، لأن كلا منهما يريد أن يكون تصرف المملكة على يديه لما يرى من أن ما ينحو إليه هو صلاحها وفوزها ، غير أن الروح مجتهد مصيب والهوى مخطئ ضال ، فإذا كان الوزير متيقظا موفقا قام بحراسة المملكة وسد كل ثلمة يخاف منها العدو ، ونصب فيها قاضى العدل ومفتى العلم وسور الورع إلى غير ذلك فقوى الملك واستقامت السياسة ، وإن كان الوزير ناقصا غافلا أخلد إلى الدعة والنوم ، وجعل يغتر ويحسب كل بيضاء شحمة ، فلا يشعر إلا وهم دخلوها من كل باب فاذا هو به أسير ، وإذا بالملك وهو الروح مقبوض عليه مسجون ، وإذا بالعمال وأرباب الجبايات من السمع والبصر والفكر ونحوها مذعنة للهوى داخلة تحت سلطانه تتصرف على إشارته « نسأل الله العصمة من كل وصمة » وعند ذلك ترى المرء يتمنى الخير وهو لايفعله لكون الروح مسجونا يتمنى أن يتصرف فى المملكة ولايستطيع ، فان سبقت له من الله تعالى عناية رجعت إليه بالتضرع وغاية الاضطرار ، فتأتيه النصرة من ربه القوى المتين، فلا يشعر الثرار إلا وقد أصبحت عليهم الجنود الربانية - نصر من الله وفتح قريب - فاجتاحوهم وأخرجوا الروح من سجنه وأجلسوه على كرسيه يأمر وينهى ، وعند ذلك ترى المرء يبيت عاصيا متهتكا ويصبح تائبا مخلصا - إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده -.

(فائدتان : الأولى) اعلم أنه جرى فى هذا الكلام ذكر الروح والنفس والعقل ، وليست بمعان متباينة وإنما هو شيء واحد اختلف بالاعتبار وتعدد بتعدد الصفات ، والمعنى بالجميع فى الجملة هو اللطيفة المدركة المودعة فى الإنسان وهى التى يميز بها الإنسان من الحيوانات العجماوات ، ويقال لها فى لسان الحكيم النفس الناطقة ، وليست هى الحياة المصححة للحس والحركة ، لأن

الحياة بجميع الحيوان ، فهى قوة زائدة وليست أيضا مجرد الإلهام الوهمى والخيالى المتعلق بالجزئيات ، فإن هذا أيضا موجود لغير الإنسان ، وبه نفرت الشاة من الذئب وميز الحمار معلفه ، وإنما هى قوة عنها يكون التميز بين الخلائق الكليات، غير أنها من حيث التعلق بالمدارك كائنة ما كانت تسمى عقلا ومن حيث الجنوح إلى القذارة تسمى نفسا ، ومن حيث الجنوح إلى الصفاء والقدس تسمى روحا . وقال الإمام الساحلى رضى الله عنه فى [بغيته] : قد يجرى لنا أثناء كلامنا فى هذا المجموع ذكر النفس والقلب والروح والسر ؛ فقد يظن الظان أنّ اختلاف هذه الأسامى لاختلاف مسمياتها ولست أريد بها إلا مسمى واحدا واختلاف أساميه لاختلاف صفاته، وهو الروح الجوهر اللطيف الصافى الشريف الذاكر العارف بمهبط الأنوار الإلهية الصادرة من أمر الله تعالى فما دام مائلا إلى جنبه النقص فى أغلب الأحوال عبر عنه بالنفس ، ولايزال مع قيامه بوظائف مقام الإسلام تضعف فيه جنبة النقص وتقوى فيه جنبة الكمال حتّى إذا تخلص من مقام الإسلام تساوت عنده الجنبتان فينقلب عندها ، فعند ذلك عبر عنه بالقلب ، ولا يزال مع قيامه بوظائف مقام الإيمان تغلب جنبة الكمال على جنبة النقص ، حتّى إذا تخلص من مقام الإيمان اتحدت فيه جنبة الكمال ، لكن يبقى معها أثر من ذلك النقص كما يبقى أثر الجراحات بعد البرء ، فعند ذلك عبر عنه بالروح ، ولا يزال مع قيامه بوظائف مقام الإحسان حتّى تذهب تلك الآثار وتتخلص تصفيته ، فعند ذلك عبر عنه بالسر انتهى ، وقد اعتبر هو القلب ونحن اعتبرنا العقل ، وكل صحيح فى محله باعتبار والله أعلم .

(الفائدة الثانية) أنه قد جرى أيضا فى الكلام ذكر المدد الملكى والشيطانى فاعلم أن الله أيد العقل بالملك ، وأيد النفس بالشيطان ، ومن غلب كان الحكم له كما سبق فى مشيئته تعالى ، ويسمى إلقاء الملك فى القلب إلهاما ، وإلقاء الشيطان وسوسة ، وهما خاطران يترادان الأول بالخير والثانى بالشر . وجميع الخواطر أربعة : ربانى وهو ما يرد من الله تعالى على القلب كفاحا ، وملكى وهو ما يرد من الله تعالى على يد الملك ، وشيطانى وهو ما يرد من تلقاء الشياطين ونفسانى وهو ما يخطر من جهة النفس ، والأولان نافعان والأخيران مضران فى الجملة ، والكلام فيهما على التحقيق يخرجنا عن الغرض . ثم قال :

وأعَدَّ أعْدَاداً لِيَوْمٍ هائِلٍ   وَصَحِيفَةٍ سُطِرَتْ وَعَرْضٍ مُرْصَدِ

أعدّ الشيء : هيأه لوقت الحاجة إليه ، والأعداد بفتح الهمزة جمع عد بكسر العين وهو القرن والند أيضا ؛ واليوم الهائل : يوم القيامة لأنه يهول الناس ؛ والصحيفة : ما يكتب فيه ؛ والمسطورة : المكتوبة ، والمراد بها هنا صحيفة الحفظة على الإنسان من حسنات أو سيئات ؛ والعرض مصدر : وهو العرض بين يدى الله تعالى يوم القيامة ؛ والمرصد : المعد . ومعنى البيت : أن الإنسان إذا دفع جنود الهوى وغلبهم فحينئذ تستقيم حالته فيعد الزاد ليوم القيامة ويسعى فى الطاعة واكتساب الحسنات ليأخذ صحيفته بيمينه ، ولينج عند العرض الذى أعده الله له ، فجعل ما يلقى به ربه ويزانه من الأعمال الصالحة كأنها أقران تعدّ للقاء وتدخر ليوم الكفاح ، ويجوز أن يكون جمع عدد أى أعداد من الحسنات يثقل بها الميزان . ثم قال :

يَوْمٌ يَشِيبُ بِهِ الوَلِيدُ وَيَسْتَوِى   فِيهِ المَسُودُ مِنَ الوَرَى بِمُسَوَّدِ

المسود: هو المغلوب ؛ والمسوّد: هو المشرف ، تقول ساد فلان قومه فاقهم فهو سيد وهم مسودون ، وسوّده قومه عليهم فهو مسوّد : أى يوم يشيب فيه الصبى إما لطوله وإما لهوله ، ويستوى فيه الشريف والوضيع إلا من أكرمه الله تعالى . ثم قال :

وَيُدَاسُ هادِىَ كلِّ مارٍ مارِدٍ   فِيهِ بِأخْمُصِ كلِّ ألْكَنَ ألْكَدِ

الدوس : الوطء بالرجل ؛ والهادى : العنق ؛ والمارى : الجاحد ، يقال مراه حقه إذا جحده ؛ والمارد : العاتى البالغ للنهاية فى العتوّ ؛ والأخمص : باطن القدم ؛ والألكن : من لايبين منطقه ؛ والألكد : اللئيم الملصق بالقوم . والمعنى : أى يوم توطأ رقاب الجبابرة الظلمة بأقدام الضعفاء وهو إشارة إلى ما ورد من أن الجبابرة يكونون كالذر فيوطئون . ثم قال :

وَيَفِرُّ فِيهِ مِنَ الخَلِيلِ خَلِيلُهُ   وَيَوَدُّ فِيهِ المَرْءُ لَوْ لَمْ يُولَدِ
وَيَوَدُّ لَوْ كانَتْ لَهُ الدُّنْيا بِمَا   فِيها فَأعْطاهَا هُنالِكَ فافْتَدِى

قال تعالى ـ يوم يفر المرء من أخيه وأمه ـ الآية ، وقال تعالى ـ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض ـ الآية . ثم قال :

وَيَوَدُّ أَنْ لَوْ كانَ فى العَجْماءِ مَنْ ... ما لَيْسَ مَوْعُوداً ولَيْسَ بِمُوعِدِ

اليَوْمَ يَمْرَحُ بالمُرَاحِ وَيَرْتَعِي ... وَغَداً يَصِيرُ إلى التُّرَابِ الرِّمْدِدِ

العجماء : غير الإنسان من الحيوانات ؛ والوعد فى الخير والإيعاد فى الشر ، وهما مخصوصان بالمكلفين ؛ والمرح : الأشر والبطر ؛ والمراح : موضع مبيت الشاء مثلا ؛ والارتعاء افتعال من الرعى ؛ والرمد على وزن زبرج : الرقيق من التراب جدا . والمعنى : أن الإنسان فى ذلك اليوم إذا عاين العذاب ورأى البهائم قد صيرت ترابا ، حينئذ يتمنى أن لو كان بهيمة فى الدنيا لايتعلق به خطاب ولا وعد بالجنة ولا وعيد بالنار يرعى اليوم فى الدنيا الأعشاب ويلعب بالمراح ، وغدا يرجع إلى التراب ويسلم من العذاب . ثم قال :

يَوْمٌ يُهابُ لَهُ بِعُمَّارِ الثَّرَى ... وتُساقُ عُنْفاً كالوَسِيقِ المُطْرَدِ

وتُجِيبُ مُهْطِعَةً نِداءَ مُسَيْطِرٍ ... بالحَقِّ مِنْ كَثَبٍ سَمِيعٍ فُدْفُدِ

يقال هاب الراعى بغنمه : إذا صاح بها لتجتمع أو ترجع ؛ وعمار الثرى : عمار المقابر أو عمار الأرض ؛ والعنف : ضد الرفق ؛ والوسيق من الإبل : ما جمع من الغارة مثلا ؛ والمطرد : المأمور بطرده ، يقال طرد الإبل إذا ساقها أو جمعها من نواحيها ، وأطردت الشيء أمرت بطرده ؛ والمهطع : المسرع ؛ والمسيطر : المتسلط ؛ والكثب : القرب ؛ والسميع : المسمع ، كما قال عمرو ابن معديكرب : أمن ريحانة الداعى السميع

والفدفد كهدهد : الصيت الجافى الكلام : أى يوم يصاح له : أى لاجله أو إليه بمن كان فى المقابر أو بمن كان فى الدنيا ، ويساقون إليه عنفا كالإبل المسوقة ، يجيبون نداء الملك يوم ينادى من مكان قريب مسرعين إليه ؛ وقوله بالحق : احتراس أى أن الملك وإن تسلط فهو بحق لاجور ، والحق أيضا من أسمائه تعالى ففيه تورية . ثم قال :

ويُذادُ مِنْ بينِ الوُفُودِ مَعاشِرٌ ... نَفْيَ الزُّيُوفِ مِنَ النُّضَارِ الجَيِّدِ

وَيَرَى المُسِيءُ بِهِ مُجازَاةَ الأُلَى ... عَمِلُوا فَيَقْرَعُ سِنَّهُ مِنْ مَعْبَدِ

الذود : الطرد ؛ والزيوف هنا الزائفة من الدراهم وهى المردودة لغشها ؛ والنضار : الذهب أو الفضة ؛ وقرع السن نقرها ويكون عند الندم ؛ والمعبد

مفعل من قولك عبد الرجل بالكسر عبدا إذا ندم : أى يوم يطرد فيه عن الحوض أقوام من بين الوفود الواردين على الحوض كما ترمى الزيوف من بين الجيد ، وهم الذين بدلوا وغيروا ، فيقول النبي عليه الصلاة والسلام « سحقا سحقا » وهذا فى أحاديث الحوض مشهور ، ويرى فى هذا اليوم أيضا المسىء فى الدنيا ما يعطاه العاملون من الثواب فيقرع سنه ندما . ثم قال :

وَالنَّاسُ بَيْنَ مُفَضَّلٍ وَمُجَلَّلٍ عَفْوًا وَشِلْوٍ فى الجَحِيمِ مُهَرَّدِ

الشلو بالكسر : العضو ، والجسد كله ؛ والمهرد : المنضج ، تقول هردت اللحم هردا ، وهردته تهريدا : إذا أنعمت نضجه : أى الناس فى ذلك اليوم ثلاثة أصناف : صنف فضلهم الله تعالى وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، وصنف جللهم الله : أى غطاهم بعفوه فغفر لهم من المؤمنين ، وصنف تنضجهم النار وهم الكفار نسأل الله العافية . ثم قال :

وَالبِرُّ يَغْمُرُ كُلَّ بَرٍّ مُخْبِتٍ وَالحُزْنُ يَغْشَى كُلَّ حَزْنٍ سَجْدَدِ

البر بكسر الباء : الخير ؛ والغمر : التغطية غمره الماء وغمره الغطاء ؛ والبر بفتح الباء : المطيع ؛ والمخبت : الخاشع الخاضع ؛ والحزن بالضم : ضد الفرح ؛ والحزن بالفتح : الصعب ؛ والسجدد كقنفذ : الشديد المارد : أى الخير فى ذلك اليوم يعم كل مطيع لله تعالى خاشع له ، والحزن يغشى كل عاص ممتنع عن الشريعة متمرد على الأمر والنهى . ثم قال :

وَلِحُفْرَةٍ يُدْلَى إِلَيْهَا عَارِيًا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ غَيْرَ سَعْىٍ مُعْتَدِ
وَمُقَاوِلاً مَنْ لَا يُقَاوَمُ غِلْظَةً وَمَهَابَةً وَأَذًى وَلَيْسَ بِمُعْتَدِ

الحفرة : القبر ؛ وإدلاء الميت إليها إنزاله فيها كالدلو فى البئر ؛ والمعتد : المعد ، يقال اعتد الشىء اعتادا ؛ والمعتد فى القافية الثانية من الاعتداء والمجرور أول البيتين عطف على قوله ليوم هائل : أى وأعد الزاد لحفرة سينزل إليها حال كونه عاريا من ماله وجاهه وعشيرته وأنصاره ومن كل شىء إلا من السعى والعمل الذى أعده صالحا أو سيئا وحال كونه عند نزوله فى القبر ؛ مقاولا : أى مخاطبا للملك الفتان الذى لايستطيع بشر أن يقاومه من غلظته ومهابته وإذايته مع أنه غير معتد ولا ظالم لأحد بل باذن ربه . ثم قال :

وَلِيَوْمِ بَيْنٍ وانْتِباذٍ بالعَرَى ... وَفَجِيءٍ مُسْتَقْضٍ عليه مُهَكِّد
وتَمَلْمُلٍ وَتَضَاؤُل وَتَقَصُّف ... رَغْمًا لَهُ ولِرَهْطِه والعُوَّد
عَنْ وَائِلٍ رَاثٍ وَوَالٍ رَائِثٍ ... وَحَزِينَةٍ ثَكْلَى وَجَذْلان عَدِ
وَفِرَاقِ أَوْطَانٍ وإِخْوَانِ الهَوَى ... وَنَفَائِسٍ وَحُلُول بَطْنِ الجَدْجَدِ

يوم البين : هو يوم الموت لأن الروح تبين من الجسد ؛ والانتباذ افتعال من النبذ : وهو الرمى، تقول نبذته فانتبذ ؛ والعراء : فى الأصل الأرض العارية التى لاشجر فيها أو لانبات ، والمراد هنا المقابر لأنها تكون فى ذلك غالبا ؛ والفجىء : الفاجئ وهو الآتى بغتة ؛ والمستقضى : الطالب لقضاء الدين ؛ والمهكد : المشدد فى التقاضى ؛ والتململ : التقلب ، وتململ الرجل فى فراشه تقلب لمرض أو هم ؛ والتضاؤل : التصاغر ؛ والشىء الضئيل : الصغير الرقيق وتضاءل تصاغر أو أخفى شخصه ؛ والتقصف : التكسر : والقصف : الكسر والوائل : الراجع ؛ وآل إليه رجع ، والمراد هنا من يرجع إليه بصداقة أو خدمة ؛ ورثى له : رحمه ورق فهو له راث ؛ والوالى : القريب ؛ والرائث : المبطئ ، راث الشىء يريث أبطأ ، وأرّث به أبطأ به ؛ والثكلى : الفاقدة ولدا ؛ والجذلان : الفرح ؛ والعدى : المبغض ، يقال عدى له بالكسر أبغضه ؛ والنفائس جمع نفيسة ونفيس المتاع أجوده ؛ ؛ والجدجد : الأرض الصلبة . والمعنى : أنه يعد الزاد أيضا ليوم البين : أى يوم الموت يوم يرتمى خارج البلد مدفونا فى المقابر ، وهو اليوم الذى يأتيه صاحب الدين المشدد فى التقاضى وهو ملك الموت ، فإن الروح كأنه دين عند الإنسان يؤديه إذا حل الأجل ولا يأتى إلا فجأة ، وذلك اليوم أيضا يوم تململ : أى تقلب فى الفراش وتضاؤل : أى تصاغر من عظيم ما حل وتكسر ، فانه عند نزع الروح تكون الأعضاء كلها كأنها تقصف ولا سيما الصدر عند الحشرجة ، وذلك كله يكون رغما لأنف الميت ورغما لرهطه ولمن يعوده ، فإنه لايستطيع الدفاع عن نفسه ولا يستطيعون ويكون بينه على أصناف من الناس : منهم الصديق الذى يئول إليه بمخالة أو إحسان وهو يرثى له ويرق أو يرثيه : أى يبكيه بالشعر وذكر محاسنه ؛ ومنهم الوالى : أى القريب الوارث ، وهو يكون قد أبطأ أخذ الميراث

بموته فهو يتربص به الموت ؛ ومنهم الحزينة الثكلى كأمه ؛ ومنهم منافسه ومناوئه ، فهو فرح بموته لأنه مبغض له وقدما قيل :

يبكى الغريب عليه ليس يعرفه   وذو قرابتــه فى الحى مسرور

وهو أيضا يوم فراق وطنه وخليله ونفائسه المدخرة ونزول بطن الأرض. ثم قال :

يا غُمَّةً لِنُفُوسِنا مِنْ فُرْقَــةٍ   أَبَدِيَّةٍ لِلْمَأْلَفِ المُتَعَــوَّدِ
إنَّ الفِرَاقَ يَشُوقُنا ويَرُوعُنا   فى هَذِهِ الدُّنْيا فَكَيْفَ بِأَبْعَدِ

الغمة والغم : الكرب ؛ والشوق : نزوع النفس وحركة الهوى ، شاقه الشيء هاجه : أى ما أشد الغم على نفوسنا من الفرقة الأبدية التى لارجوع عنها وذلك بالموت إذ لارجوع إلى الدنيا أبدا ، والدنيا هى المألف المتعود : أى الشيء الذى ألفناه وتعودناه ، والآخرة لاتألفها النفوس ولم تعتدها ، فلذلك كانت مشقتها أعظم المشقات وقربتها أشد الكربات ، فان الفراق يشوقنا ويفزعنا فى هذه الدنيا مع قرب المسافة وانتظار الأوبة فكيف بفراق الروح وبينونتها عن الجسم بينونة من الدنيا ، والمألوفات لاآخر لها ، وإضافة ذلك كله إلى النفس لكونها هى الآلفة للدنيا وزهراتها وهى المتألمة بفراقها ، مع أن الروح أيضا يؤلمه فراق الجار وما يتوقع من هول المطلع فى تلك الدار ، فلذا عظم أمر الموت . ثم قال :

والنَّفْسُ آلفَةٌ تَذُوبُ عَلَى النَّوَى   ذَوْبَ اللُّجَيْنِ عَلَى لهيبِ المَوْقِدِ

اللجين بضم اللام : الفضة ؛ والموقد بفتح الميم : موضع اشتعال النار ، وبضم الميم مشعلها : أى النفس ألوف بالطبع ، فالفراق يذيبها كما يذيب الفضة لهيب النار فى الموقد ، واللهيب الذى يؤججه موقد النار ، وهذا تخلص لذكر الترحل والسفر . ثم قال :

ولقدْ رأتْ هِنْدٌ وكانَتْ غِرَّةً   مِنْ قَبْلُ أنَّ نَوَى الأحِبَّةِ فى غَدِ
فَتَوَسَّدَتْ شَوْكَ القَتادِ وأبْطَنَتْ
جَمْرَ الغَضَا وتَمَلْمَلَتْ فى المَرْقَــدِ

الغرة بكسر الغين : التى لاتجربة لها ؛ والقتاد : شجر له شوك كالإبر يضرب به المثل فى الأمر الصعب ؛ والغضا : شجر عظام جمره أشد الجمر وأبقاه .

أى ولقد رأت هند : أى ظهر لها أن نوى الأحبة فى غد وكانت قبل ذلك غرة لم تر صروف الدهر ولا ذاقت مرارة الفراق ، فلما رأت ذلك جعلت تململ فى مرقدها : أى تتقلب حزنا وغما ، واستبطنت الخمر فما يدعها أن تنام : ثم قال :

وَتَوَسَّنَ الوَجْدُ العَمِيدُ شَغَافَهَا فاسْتَعْلَنَتْ بِتَلَهُّفٍ وَتَوَجُّدِ

توسنه : أتاه عند الوسن ؛ والوجد : الحزن ؛ والعميد : العامد أى المضنى ، يقال عمده إذا أضناه ؛ والشغاف داخل القلب ، فاذا خرقه الوجد فهو مشغوف واستعلنت : أعلنت ؛ والتلهف : هو التحسر ؛ والتوجد : هو التشكى ، يقال توجد السهر إذا شكاه ، وفى نسخة : وتنهد ، وأطلقه على تنفس الصعداء وأصله نهود الثدى : أى ارتفاعه ، ونهود الرجل إلى الأمر : أى نهوضه : أى جاء الوجد إلى المذكورة مع اليأس فجعلت تتلهف من ألم الفراق وتعلن إذا غلبها ما تجد . ثم قال :

وَرَنَتْ بِمُقْلَةِ مُطْفِلٍ مَحْرُوبَةٍ خَلْفَ القَنُوصِ لِمَا لَهَا مِنْ فَرْقَدِ

رنت : نظرت فأدامت ؛ والمقلة : شحمة العين ، قيل هى السواد والبياض وقيل هى الحدقة وهى المراد ؛ والمطفل من البقر : ما لها ولد ؛ والمحروبة : المسلوبة ولدها ؛ والقنوص : هو القانص ؛ والفرقد : ولد البقرة ، نظرت المذكورة بمقلة كأنها مقلة البقرة الوحشية ذات الولد الناظرة إلى القانص لولدها الذى ليس لها غيره ، وفى تلك الحالة تظهر سعة العين مع الكآبة والحزن . ثم قال :

وَتَصَوَّبَتْ عَبَرَاتُهَا وَتَصَعَّدَتْ زَفَرَاتُهَا تَشْدُو بِقَوْلَةِ مُنْشِدِ :

لامَرْحَبًا بِغَــدٍ ولا أَهْلًا بِهِ والدَّمْعُ يَكْحَلُهَا مَكَانَ الإِثْمِدِ

التصوب : النزول من فوق إلى أسفل ؛ والعبرات الدموع ؛ والتصعد : التعلى ؛ والزفرة : إخراج النفس مرة بعد مرة فعل المغموم ؛ وشدا يشدو : رفع صوته بالشعر : أى جعلت دموع هذه المذكورة تنزل ، وزفراتها تعلو وهى تغنى بقول المنشد وهو النابغة :

لامرحبا بغــد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غد

والدمع فى ذلك يكحلها : أى يملأ عينيها بدل الإثمد ، وهو الحجر الذى يكتحل به . ثم قال :

وَيَطُلُّ رَوْضَةَ وَجْنَتَيْها والحَيا   فى الرَّوْضِ يُنْبِتُ كلَّ زَهْرٍ أغْيَدِ

طلت الأرض بالضم وطلها الندى فهى مطلولة ؛ والطل : أضعف المطر ؛ والحيا بالقصر : المطر ، وبالمد معروف ؛ والأغيد من النبات : الناعم المتثنى . أى جعل الدمع يقطر على وجنتيها كأنه الطلّ ، وكأن الوجنة الروضة من بهائها ونضرتها ، والحيا : أى المطر متى نزل فى الروض أنبت فيه كل زهر ناعم ؛ وكذا وجنتها الآن تتلون كأن فيها أزهارا حمرا وصفرا كما سنبينه بعد ، ويجوز أن يراد بالحيا الممدود وبالروض الوجنة المعهودة فهو تورية . ثم قال :

فَرِقَتْ فأنْبَتَتِ البَهارَ مُنَوَّرًا   وَعَذَلْتُها فَصَبَغْتُهُ بِتَوَرُّدِ

فرقت بكسر الراء : فزعت ؛ والبهار : نبت ، قال فى الصحاح هو العوار الذى يقال له عين البقرة هو بهار البر ، وهو نبت جعد له تفاحة صفراء ينبت أيام الربيع انتهى ، وذلك تورية ، ويقال نوّر النبت تنويرا : أخرج نوره ؛ والعذل : اللوم ؛ وورّدت الشجرة توريدا ، ووردت المرأة : احمر خدها فتورد الخد : أى جزعت هذه المرأة وخافت من الفراق فاصفارّ خدها ، فكأنها أنبتت فيه البهار عند ما انفتح نوره الأصفر وعذلتها على ذلك الجزع ، فخجلت من كلامى فاحمارّ خدها ، فكأن ذلك صبغ أحمر ، وكأن البهار صار وردا ثم قال :

وَتَبيتُ تَلْسُنُنِى المَلامَ لَعَلَّها   تَثْنِى عِنانِى أوْ تَمَلَّكُ مِقْوَدِى

يقال لسن زيد عمرا : إذا تسلط عليه بلسانه ، ولسنه أيضا غلبه فى الملاسنة ، ولسنته العقرب لدغته ؛ وثنى الدابة : صرفها إلى ناحية أخرى ؛ والمقود : ما تقاد به الدابة . أى تبيت هذه المرأة تأخذنى بلسانها ملاما ، أو تلدغنى من لدغ العقرب على ما أروم من البين والرحلة لعلها بذلك تصرفنى عن رأيى إلى رأيها أو تجعل زمامى بيدها . ثم قال :

وَتَظُنُّ تَفْتِلُ باللِّحاءِ ذُؤَابَتِى   وَتَلِينُ مِنِّى مَتْنَ رُمْحٍ عَصْلَدِ

اللحاء : اللوم لحاه يلحاه ؛ والذؤابة : أخرى الشعر ؛ ومتن الرمح : عوده ؛ والعصلد : الشديد الصلب . أى تظن هذه المرأة أنها ستفتل ذؤابتى : أى تستمكن منى كما يستمكن الرجل من الدابة إذا أخذ بناصيتها ومن الإنسان إذا أخذ بشعر رأسه ؛ أو تخدعنى كما يخدع الممسوح عليه من بعير أو دابة ؛

وفى المثل : ما زال يفتل منه فى الذروة والغارب حتى فعل ، وتظن أيضا أن تصرف رأيى أو توهن عزمتى وتعطف قناتى ولم تدر أنها صلبة لاتنثى . ثم قال :

وتخالُ تَمْحَضُنِى النَّصِيحَةَ بَرَّةً   والنُّصْحَ آونَةً مَقَالَةُ مُؤْتَدِ

تخال : تظن ؛ ومحضته النصح إذا خلصته له ؛ والبرّة ضد الفاجرة : والآونة : جمع أوان ، وهو الوقت من الزمان ؛ والمؤتد مفتعل من قولك أدوت له وأديت : إذا ختلته . أى تظن أنها بعذلها تمحضنى النصيحة محسنة أى صادقة . والنصح أحيانا كلام ختال مخادع . ثم قال :

فَتُسِرُّ حَسْوًا فى ارْتِغاءٍ تارَةً   وتَقُولُ أُخْرَى خامِرِى وتَلَبَّدِى

الإسرار ضد الجهر ؛ والحسو : حسو اللبن والماء مثلا ؛ وارتغى اللبن أخذ رغوته ، فكأنّ الرجل إذا أراد أن يحسو اللبن ولا يفطن له أرى الناس أنه يرتغى أى يزيل الرغوة من فوقه ، فيضرب لك مثلا لمن يظهر الإحسان أو الإعانة أو الإصلاح ، وهو يريد الغائلة أو الحاجة ، فيقال يسرّ حسوا فى ارتغاء ، ويقال خامرى أم عامر ، وهى الضبع ، ومعنى خامرى : تسترى ؛ والتلبد : الانكماش إلى الأرض ، والعرب تقول ذلك للضبع عند اصطيادها ، فضرب مثلا لمن يخادع . أى أن هذه المرأة فى الظاهر تخب فى النصيحة وتضع ، وفى الحقيقة تمكر وتخدع . ثم قال :

كُفِّى خَبالَكِ لا أبا لَكِ إنَّنِى   عِوَصُ المَرَامى عَنْ نِبالِ المُفْنِدِ

الكف : الصرف والمنع ؛ والخبال : النقصان فى العقل وغيره ، ويقال لاأبا لك : وهو لفظ خبر ومعناه الدعاء ؛ وعوص الأمر بالكسر : اشتد ؛ وعوص الكلام : صعب ؛ وأفنده : كذبه وخطأه . أى قلت لها كفى عنى ما تأمريننى مما هوناشئ عن خبال عقلك ونقصان ميزك ، فانى عوص : أى صعب المرمى ، فمن رام تخطئتى وتعجيزى وجدنى صعبا لاتصل إلىّ نبال قوله وعذله . ثم قال :

لاأَرْأَمُ البَوَّ النَّفُوحَ ولا أرَى   وأبِيكِ قَعْقَعَةَ الشِّنانِ مُهَيِّدِ

رئم فلان كذا : بكسر الهمزة أحبه ، ورئمت الناقة ولدها مثلا : عطفت عليه ولزمته ، والبو : جلد الحوار يسلخ إذا مات فيحشى بشىء كالتبن أو الثمام

فيقرب من أمه لتعطف عليه فتدرّ ؛ والنفوخ : المنفوخ ؛ والشنان بالكسر : جمع شن ؛ وهى القربة البالية . والقعقعة : حكاية صوتها ؛ والتهييد : التحريك والإفزاع ، وكان اللص من العرب إذا أراد أن يختلس من إبل أحد أتى بشنة فعلقها إلى واحد من الإبل بحيث تسقط ، فاذا سقطت نفرت الإبل من قعقعتها فيتبعها أو بعضها ويذهب بها . قال النابغة :

كأنك من جمال بنى أقيش يقعقع بين رجليها بشن

فيقال فلان لايقعقع له بالشنان : أى لايخضع لحوادث الدهر ولا يروعه ما لاحقيقة له . ومعنى البيت : أنى لاأكون بترهاتك مغرورا كالناقة تخدع بالبوّ فتعطى لبنها ، ولا أرجع بتهديدك مذعورا كالإبل يرمى الشن بين أرجلها . ولفظ مهيد إما اسم فاعل خبرا عن قعقعة لأنه بمعنى تحرك أو صوت ، أو اسم مصدر : أى التهييد مبالغة . ثم قال :

وآقْنِى حَيَاءَكِ إنَّنِى أنِفُ اللّغا أَمّا وأرْمى للْجَلِيلِ الأقْمَدِ
وأحُثُّ بَيْنَ مُهَجَّرٍ وَمُعَرِّسٍ عَنْسِي وَبَيْنَ مُصَوِّبٍ وَمُصَعِّدِ
فإنِ انْثَنَتْ بالْغُنْمِ فَهْىَ حَرِيَّةٌ أوْ أخْفَقَتْ يَوْما فَلَسْتُ بأوْحَدِ

يقال قنى الحياء : إذا لزمه ؛ وأنفت عن الشىء : ترفعت عنه ؛ واللغا : الشىء الخسيس الحقير اليسير ؛ والأمّ : القرب ؛ والجليل : العظيم ؛ والأقمد : المتمنع ؛ والحث على الشىء : التحضيض عليه ؛ والتهجير : المشى فى الهاجرة ؛ والتعريس : النزول من آخر الليل للاستراحة ؛ والتصويب : النزول ؛ والتصعيد عكسه ؛ والانثناء : الرجوع ؛ والغنم : الغنيمة والظفر ؛ والحرىّ بالشىء : الحقيق به ؛ والإخفاق : الرجوع بخيبة ، يقال غزوا فأخفقوا : أى لم يغنموا ، ولست فى هذا الأمر بأوحد : أى لاأختص به . والمعنى : أنه يخاطب تلك المذكورة فيقول اقنى : أى الزمى حياءك واسكتى ولا تثبطينى عن طلب المعالى فانى لاأرضى بالدون والنصيب الخسيس ولو كان ينال عن قرب بلا مشقة ، وأرمى بهمتى للعظيم ولو كان فى غاية التمنع والإباية عن الانقياد ، ولا أزال أرتحل قلبا وقالبا حسا ومعنى مع المرتحلين بالليل والنهار نازلين أو طالعين ، وذلك كناية عن الجد فى أى زمان وأى مكان ، فان رجعت عنسى

ظافرة غانمة فهي حقيقة بذلك ، لأن الجد مع الصبر مظنة الظفر ، وإن خابت فلي أسوة بغيري ومبلغ نفسي عذرها مثل منجح . ثم قال :

ولَقَدْ تَخِذْتُ وَداعَ إخْواني أخا   خِلَصًا ولَيْتَ وَفاءَهُ لمْ يَلْكَدِ
وَوَمِقْتُ وَصْلَهُمُ فأعْرَضَ جافيا   أبِدًا علَيَّ ولَيْتَهُ لمْ يأْبَدِ

تخذت الشيء واتخذته بمعنى ؛ والخلص بكسر الخاء : الخالص ؛ واللكد : اللزوم هنا ، وأصله قولهم لكد عليه الوسخ بكسر الكاف : أى لصق؛ وومقت الشيء بكسر الميم أمقه مقة : أحببته؛ وأبد بكسر الباء أبدا غضب : أى جعلت وداع الإخوان : أى فراقها أخا خالصا وافيا لايغدر ولا يفارق وليته فارقني وغدر ، وأحببت وصلهم فلم يجبني ، بل أعرض عني وجفاني وغضب عليّ واستوحش مني ولم يألفني وهذا كله مجازٌ ، والمراد الإخبار بكثرة الترحال والأشغال ، وفي ذلك كثرة التوديع والفراق وقلة الوصل وعدم دوام التلاق، وفي جعل الوداع لكذا إشارة إلى تكرهه كالوسخ . ثم قال :

كَمْ بَلْدَةٍ فارَقْتُها وأحِبَّـــةٍ   وَدَّعْتُ عَنْ وُدٍّ صَفا وَتَوَدُّدِ
وألِيفِ صِدْقٍ لمْ أُبالِ فِرَاقَهُ   وَنَحِيبُهُ خَلْفَ المَطايا الوُخَّدِ
ومَضَيْتُ قُدْمًا والأسَى وَقْدُ الجُذَى
فَفثَأْتُ فَوْرَتَهُ بِفَضْلِ تَجَلُّدِ
حتّى كأنِّي ما وَجَدْتُ بِمَوْقِفِي   ألمَ النَّوَى وَحُسامُها في الأكْبُدِ
والبَيْنِ يَعْلَمُ والصَّبابَةُ ما أرَى   مِنْهُ وإنْ تَسَلِ المَدامِعَ تَشْهَدِ

الود : الحب ؛ وتوددت إلى فلان ، أظهرت له الود ، وتوددته اجتلبت وده ؛ والنحيب : أشد البكاء ؛ والوخد : جمع واخدة : أى مسرعة ، تقول وخدت الناقة فهي واخدة ؛ ومضى فلان قدما بضم القاف والدال : أى لم يعرِّج وسكنت في البيت تخفيفا كعنق وعنق ، والأسى بفتح الهمزة : الحزن والوقد : المتوقد ؛ والجذى : جمع جذوة من النار ؛ وفثأه بالمثناة وبالمثلثة : كسره ؛ والفورة فعلة من فار الشيء يفور إذا هاج وفاض ؛ والتجلد : تكلف الجلد : أى القوة . أى كم من بلدة فارقتها طلبا للمعالي وارتحالا فيما يكسب المراتب العوالي والذخائر الغوالي ، وكم من أحباب ودعتهم عن ذلك

لاعن بغض ولاقلى بل عن ودّ صاف وتودد كاف : وكم من أليف صدق : أى صحيح الألفة والمحبة لم يلهنى فراقه ولا بكاؤه خلف المطايا بل مضيت لوجهى فما لويت عليه ولا التفتّ إليه والحزن عليه مع ذلك متوقد الجمرات ، ولكن إذا فارت علىّ نار الجذى كسرتها بتجلدى وأخمدتها بصبرى حتى كأنى ماوجدت فى ذلك الموقف موقف الوداع والفراق ألم النوى ، ولا ذقت مرارتها التى هى كمرارة الحسام : أى السيف القاطع فى الأكبد ، وكأن صورتى من قوة الصبر صورة خلى من الحب والجامد الطبع ولست كذلك ، فإن البين والصبابة الواقعة لأجله يعلمان ما ألاقى منهما من الألم ، وأنت أيها الشاكّ لو سألت المدامع الجارية على خدى عند ذلك لشهدت لك شهادة بينة . ثم قال :

الصِّدْقُ مِنِّى وَالوَفَاءُ سَجِيَّةٌ ... لأخى وَلَسْتُ بِذى الوِدادِ المُثْمَدِ

إنْ رَاغَ ذُو ودّ فَلَسْتُ بِرَائِـغٍ ... أوْ جَدّ حَبْلَ إخائِهِ لَمْ أجْذُدِ

وإذا أُعاقِدُ لَمْ تَكُنْ أُنْشُوطَةٌ ... عُقْدِى ولا عُشَرًا عَلَى مُسْتَوْقَدِ

وَحَفِظْتُ عَهْدَ الوُدّ حَيْثُ نأتْ بِهِ ... دَارٌ وأسْتَبْقِى الوَرَى بِتَعَهُّدِ

السجية : الطبيعة والخلق ؛ وأثمد الماء اتخذه ثمدا ، والثمد: هو الماء القليل والذى لابقاء له يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف ؛ وراغ روغانا : تقلب ؛ والجد: القطع ؛ والأنشوطة بضم الهمزة: عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة مثلا؛ والعشر بضم العين وفتح الشين : شجر عندهم معروف له صمغ حلو يقال له سكر العشر ، وله حراق يقتدح فيه النار وهو أجود شىء فى ذلك ؛ والمستوقد موضع الإيقاد ؛ والوداد بكسر الواو : الود ؛ والثرى فى الأصل : ما يستخرج من باطن التراب يبقى فيه الندى ويطلق على الود كما قاله الأول :

فلا توبسوا بينى وبينكم الثرى ... فان الذى بينى وبينكمُ مثر

أى لاتقطعوا المودة كالتراب تحفره فيخرج إلى الشمس فييبس ؛ والتعهد : التفقد . والمعنى : أن ما ذكر من كثرة توديع الإخوان وفراقهم لم يكن عن سوء أخلاق وقلة وفاء وعدم ثبات ، فان الصدق فى القول وفى العقد والوفاء لإخوانى سجية فىّ لاتتحول ، وهذا أبلغ من مجرد الثبوت ، وودى لإخوانى ليس

ودا ضعيفا ولا زائلا كالثمد من الماء بل قوىّ راسخ ، إن راغ ذو ود عنى وانحرف فلست برائغ عنه أنا ، وإن قطع حبل الإخاء لم أقطعه أنا ، ومتى عاقدت أحدا على صحبة أوأخوة كانت عقدتى محكمة ، ولم تكن أنشوطة بأدنى شيء تنحل وتفسد ، ولا كالحراق يطرح على النار فيحترق بسرعة ويضمحل ، فالمراد من العشر حراقها ، ومن شأنى أن أحفظ أخى بظهر الغيب حتى بعدت داره وأستبقى المحبة بينى وبينه بالتفقد بالإحسان والمواصلة . ثم قال :

وَلَرُبَّ مَذَّاقٍ أبانَ فِرَارُهُ ... طُولَ اللّيالى عَنْ ضَبابٍ لُبَّدِ
فَطَرَدْتُ سائِمَةَ الهَوَى عَنْ مَرْتَعٍ ... مِنْ وِدِّهِ مُسْتَوْبَلٍ مُسْتَوْبَدِ
وَطَوَيْتُهُ حِلْما وإغْضاءً عَلى ... بَلَلاتِهِ طَىَّ السِّقاءِ المُنْفَدِ
إنَّ الزجاجَ إذَا تَناوَلَهُ الفَتى ... عَنَفا تَصَدَّعَ صَدْعَةً لَمْ تُكْلَدِ
وإنِ ابْتَدَى أغْضَيْتُ عَنْ عَوْرَاتِهِ ... ما لِلْكَرِيمِ عَلَى البَذاءَةِ مِنْ يَدِ

المذق : شوب اللبن بالماء مثلا ، فاستعمل ذلك عند عدم صفاء المحبة فيقال مذق وده : أى لم يخلصه فهو مذاق ؛ وفر الدابة يفرها فرا وفرارا مثلث الفاء : كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ؛ والضباب : جمع ضب وهو الحقد والغيظ ؛ واللبد جمع لابد : أى مقيم ؛ والسائمة : الراعية من الماشية ؛ والأرض الوبيلة : الوخمة ، واستوبلها لم توافقه فهى مستوبلة ؛ والمستوبد : السيئ الحال ، يقال رجل وبد ومستوبد : أى سيئ الحال ، والوبد فى الأصل مصدر معناه ضيق المعيشة وسوء الحال ، ويوصف به مبالغة كما يقول رجل عدل ؛ وطويت السقاء على بلته وبللته وبللاته : أى طويته حين نفد ماؤه على ما به من بقية البلل ، وكانوا يطوونه كذلك لئلا يتكسر ؛ والكلد : جمع الشيء بعضه إلى بعض ؛ والابتذاء الافتعال من البذاءة : وهى الفحش ، يقال بذو الرجل بالضم بذاء وبذاءة ؛ والعوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة ؛ واليد : القدرة والطاقة : أى رب امرئ يدعى المحبة وهو مذاق غير مخلص ، فأظهرت منه التجربة بعد طول أنه ذوأحقاد وضغائن مستكنة فى قلبه لاتبرح ، ووصفها باللبود تخييل

كأنها الضباب الحيوانية التي تلبد في جحرتها ، فلما تبين ذلك من حاله رددت هواي ومحبتي عنه وصرفت قلبي عن محبته كما تصرف السائمة من المواشي عن المرعى الوخيم السيئ لئلا يهلكها ، ومع ذلك لم أعامله معاملة اللئام الفجار فلم أفضحه ولا تكشفت عن سوء حاله ، بل قابلته بالحلم والإغضاء عن عيوبه ، وتركته على ما هو فيه وسايرته على ما ظهر منه من الوداد المنبوق حذرا أن يضمحل كما يطوي السقاء على بقية البلل لئلا ينكسر ، وما أسرع مثل هذا المذاق إلى العداوة والشنآن لو عومل بالانتفاء كالزجاج متى لم يمسك برفق كان أسرع شيء إلى الانصداع وإذا انصدع لم يجبر أبدا ، وإن وقع منه بذاء أغضيت عنه إذ لا طاقة لى بمقابلته ومكافأته ، فان البذاء إنما يقابل بالبذاء وليس ذلك من وصف الكريم ، وإنما هو شأن كل فاحش لئيم كما قيل :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

واعلم أن ما وقع في هذه الأبيات وما يقع بعدها من شبه الافتخار والتظاهر بمحاسن الأخلاق والأفعال هو شيء مستباح في الشعر لايعاب فيه على أحد ، ومجازه مجاز النسيب أصلا وثمرة ، وفيه لطف ليس هذا محل بسطه . ثم قال :

وَلَقَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ شَطْرَيْهِ وَقَدْ دَرَّتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَصْنَافِ الثُّدِى

فعَرَفْتُ ما لَمْ تَعْرِفِى وَسَمِعْتُ ما لَمْ تسْمَعِى وَشَهِدْت ما لم تَشْهَدِى

يقال حلب فلان الدهر أشطره أو شطريه : أى نال خيره وشره ، وأصله فى الناقة لها خلفان قادمان وخلفان آخران ، فكل خلفين شطر فلها شطران ، وربما يحلب الشطر ويترك الشطر فاذا حلبهما معا فقد استوفى ؛ ودرت الناقة تدر : جادت باللبن ؛ والثدى جمع ثدى ، ونسب الدرور إليها لأنها محل اللبن ؛ وفى نسخة : مريت ، وأصله فى الضرع تقول مريت الناقة : إذا مسحت ضرعها لتدر فأمرت هى أى درت . والمعنى : إنى خبرت الزمان وعرفت ما شان وزان ، ونلت مطالبه وعرفت مصائبه ، فلا تعذليني ياهند فعندى من العلم ما ليس عندك . ثم قال :

وَعَلِمْتُ نَظْمَ الشَّمْلِ عَزَّ منالُهُ إلا بِشَمْلٍ فى البِلادِ مُبَدَّدِ

والجَفْنُ لم يُكْحَلْ بِنَوْمٍ هادئٍ　　إلاَّ بِنَوْمٍ قَبْلَهُ لَمْ يَهْتَدِ

المبدّ : المفرق ؛ والهادئ : الساكن ، يقال هدأ هدوءا سكن ، والاهتداء الافتعال منه : أى علمت أن انتظام شمل الإنسان عزيز المنال ما لم يتسبب لذلك تفريق الشمل بأن يغترب فى الطلب ، وهذه القربة التى يشتت فيها شمله تحمل له من المكان ما يكون به مستقيم الأمر صالح الحال فينتظم شمله بسبب تفرقه ، وكذا جفنه لايكتحل بالنوم ويحصل له الاهتداء إلا بعد أن يطير نومه فى الجد والمجاهدات ونسبة السكون إلى النوم مجاز . ثم قال :

والبَيْنُ عِزٌّ للفَتَى ومَكانَةٌ　　يَوْمَ المآبِ وحَظْوَةٌ لم تُعْهَدِ

المآب : الإياب وهو الرجوع ؛ والحظوة : المنزلة والحظ من الرزق . أى علمت البين عزا ، أى يوجب الاعتزاز للفتى وينال به يوم المآب مكانة عند الناس لم تكن له قبل ذلك لما اتصف به من الكمال واجتلب من الخير الذى اقتضى تبجيله وتوقيره ، وهو مجرد ارتياح إليه لتوحشه كما هو العادة فى ملاقاة الغائب . وعلى هذا فالكلام مما خرج مخرج التمليح ، أى لو لم يحصل للغائب إلا حظوته يوم القدوم لكان ذلك كافيا فى فضل السفر والرحلة ، وضرب لما ذكر من الاعتزاز بالبين والاحتظاظ بالغيبة مثلين : أحدهما العيد ، فانه لو عم الليالى بأن كانت كلها عيدا لم تكن له منزلة ، فلما كان لايأتى إلا مرة أومرتين حظى . الثانى الغيم لو دام لم يطلب . ثم قال :

والنُّجْحُ فى دَرْكِ المَعالى والمُنَى　　فى ضِمْنِ أرْقالِ المَطايا الُخفَّدِ

مِنْ كُلِّ مُسْنَفَةِ اللِّبانِ شِمِلَّةٍ　　وَجْناءَ ناجِيَةٍ أمُونٍ مأْخَذِ

تَرْنُو بناظِرَتَىْ طَرِيدٍ فارِدٍ　　وتَزُفُّ لاغِيَةً نَجاءَ خَفَيْدَدِ

وكأنَّ هادِيَها حِبابُ ساجِمٍ　　فى الرَّوْضِ أوْمهزُوزِ غُصْنٍ أخضَدِ

وكأنَّ كَلْكَلَها صُدُورُ بَنِيَّةٍ　　مَسْموكَةٍ نَحْوَ السَّماءِ بِقَرْمَدِ

تَمْطُو بِساعِدِ مُخْمِسٍ ذِى هَجْمَةٍ
نائِى المَحِلَّةِ ماتِحٍ مُتَجَرِّدِ

وكأنَّما أخْفافُها فى لاحِبٍ　　رَاحُ النَّوائِحِ أوْ لَوائِحِ مجْلَدِ

الإرقال : الإسراع ؛ والخفد : جمع خافدة ، ويقال خفد خفدا وخفدانا إذا أسرع فى مشيه ؛ والمسنفة الضامرة المجعول لها السناف ، وهو حبل يشد فى الحزام ثم يقدم حتى فى الصدر وهو اللبان ، وإنما يفعلون ذلك إذا أخمص بطن البعير فاضطرب الحزام فيه فيشدونه ليثبت الحزام فى موضعه ، ويقال لذلك الحبل السناف بكسر السين ، وأسنفت الناقة فهى مسنفة ، وسنفتها أيضا شددت لها ، ووصفها بذلك كناية عن دؤوب السير عليها ؛ والشملة بكسرتين مشددة اللام : السريعة ؛ والوجناء : العظيمة الوجنتين ؛ والناجية : السريعة ؛ والأمون : الآمنة من العثار والمأخذ : الكثيرة الأخذ ؛ والرنو : إدامة النظر إلى الشيء رنا يرنو ؛ والناظرة : العين ؛ والطريد : المطرود من الوحش مثلا ؛ والفارد : المنفرد ؛ والزفيف : الإسراع ؛ واللغوب : الإعياء ؛ والنجاء : الإسراع والسبق ، تقول نجا ينجو نجاء : أسرع وسبق ؛ والخفيدد : الظليم ، والخفيدد أيضا السريع ؛ والهادى : العنق ؛ والحباب بالفتح : معظم الماء ونفخاته كما مر ؛ والساجم : السائل ، تقول سجم الدمع سجوما إذا سال ومهزوز الغصن من إضافة الصفة إلى موصوفه : أى غصن مهزوز ؛ والأخضد : المتثنى من الغصن مثلا ؛ والكلكل : الصدر ، والصدور جمع صدر : وهو مقدم الشيء ؛ والبنية : المبنية كالصومعة والغرفة ونحو ذلك ؛ والمسموكة : المرفوعة ؛ والقرمد معروف ، ويقال قرمود بضم القاف أيضا ؛ والمطو : المد ؛ والساعد : ساعد اليد وهو محل السوار ؛ والمخمس : الذى أورد إبله الخمس ، والهجمة من الإبل : الأربعون فما فوق ، وقيل من السبعين إلى نحو المائة ؛ والنائى : البعيد ؛ ومحلة القوم : منزلهم ؛ والماتح ، المستقى وهو النازع الدلو من البئر ، ويتجرد من ثيابه لذلك ؛ والأخفاف للإبل كالحوافر للخيل ؛ واللاحب : الطريق الواضح ؛ والراح : جمع راحة وهى الكف ؛ والنوائح : جمع نائحة ؛ واللوائح : جمع لائح وهو ما يتراءى إليك ؛ والمجلد على مثال منبر : قطعة من جلد تمسكها النائحة تلدم بها وجهها . ومعنى الأبيات السبعة : أن النجح : أى الظفر بالحاجة فى إدراك المعالى وإدراك جميع المنى : أى ما يتمناه الإنسان إنما هو فى ضمن سير المطايا مرقلة خافدة أى مسرعة ، والمراد أن المنى تدرك بالتحرك والأسفار والاغتراب ، وفى الحكمة الأولى « الحركة بركة » ثم بين المطايا ووصفها بأنها

كل ضامرة جعل لها السناف ، وذلك لذؤوب السير عليها وذلك دليل عتقها وجودتها موصوفة بما ذكر من الأوصاف ، ومنها أنها تنظر بعيني مطرود ، وذلك نظر الفزع بحدة وهو دليل النشاط وتسرع إسراع الظليم وذلك بعد لغوبها وهذه مبالغة ، وكأنّ عنقها فى خفته وسلامته الماء الجارى فى الروض ، وهو فيه أسلس ، أو غصن مهزوز وهو ناعم ينثنى ، وكأنّ صدرها فى عظمته وضخامته مقدم البيت المرفوع بالقرمد ، وفى الألفاظ كلها مبالغة أكثر مما شرحنا وهى أيضا تمطو : أى تسرع فى سيرها وتمد بذراعين كأنهما فى خفة ساعد رجل ينزع الدلو من البئر موصوفا بما ذكر من التجرد للعمل ، وكونه يسقى الكثير من الإبل ، وكونه نائى المحلة فهو يبادر بسرعة وقوة ، وكأن أخفافها فى سرعة انقلابها على الأرض فى الطريق أكف النساء النائحات اللادمات لوجوههن ، أو كأنها المجالد التى يلد من بها ، وهذه التشبيهات لائقة بأرباب الإبل حاضرة فى خيالاتهم يفهمونها . ثم قال :

فالمَاءُ يُكْسَى بالرُّكودِ كدُورَةً ... ويَرُوقُ رَوْنَقُهُ إذَا لَمْ يَرْكُدِ
والبَدْرُ لَوْ لمْ يَنْتَقِلْ لمْ يَسْتَنِرْ ... والطِّفْلُ لَوْ لمْ يَنَمْ لمْ يَسْتَرْشِدِ
والسُّوكُ لَوْ لَبِثَتْ بِنَعْمان لَمَا ... رَشفَتْ بأقْصَى الغَرْبِ ثغْرَ مُنَهَّدِ
ولَوِ اسْتَقَرَّ الدُّرُّ فى أصْدافِهِ ... ما حَلَّ حَلْمَا للغْزَالِ الأجْيَدِ
واللَّيْثُ لَوْ وَجَدَ الفَرِيسَةَ رَابِضًا ... فى الغيلِ لمْ يَغْتَلْ حَظِيرَةَ مُوصِدِ
ولَوِ الفَتَى يُلْفِى بِمَأْوَاهُ المُنَى ... ما جاوَزَ الدَّرْبَ امرُؤُ القَيْسِ الرَّدِى

حَتَّى اسْتَقَى مِنْ آلِ قَيْصَرَ شَرْبَةً
نَقَعَتْ حَشَاهُ فَبَاتَ غَيْرَ مُوَسَّدِ

ولَمَا تَجَشَّمَ فى البِحارِ شَدَائِدًا ... سَيْفٌ لِيَقْطَعَ هامَةَ المُتَمَرِّدِ
حتى قَرَى الغِرْبانَ غَرْبَ مُهَنَّدٍ ... وأناخَ فى عَرَصَاتِهِمْ بالنُّهَّدِ
ولَمَا خَدَتْ مِنْ كلِّ فَجٍّ ضُمَّرٌ ... خُوصٌ لِخَيْرِ العالَمِينَ مُحمَّدِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ ما نَمَّ الصَّبا ... بِهَارِ مَطْلُولِ الرِّياضِ مُوَرَّدِ

الركود : الثبوت والإقامة ؛ والكدورة : ضد الصفاء ؛ وراقه الشيء : أعجبه

والرونق : الحسن ؛ والاسترشاد : الاهتداء ، تقول أرشد واسترشد لأمره إذا اهتدى له ؛ والسوك : جمع سواك وهو العود يستاك به ؛ والمنهد : التى نهد ثديها من الجوارى أى كعب ؛ والحلى : ما يتحلى به ؛ والأجيد : الطويل الجيد أي العنق ؛ والرابض مثل البارك ، والربوض فى الكلاب وفى الغنم والبقر ، والبروك للإبل ، والجثوم فى الطير ، والغيل للأسد ؛ والاغتيال : الاقتحام والإهلاك ؛ والحظيرة ما يحتظر للغنم ونحوها ؛ والموصد : المغلق ، يقال أوصد الباب إذا طبقه وأغلقه ؛ والمأوى : المنزل ؛ وامرؤ القيس : هو ابن حجر الكندى الشاعر ؛ والردى : الهالك حسا أو معنى ؛ والنقع : إزالة العطش ، يقال نقع الماء عطش فلان : أى سكنه ، وشرب حتى نقع : أى روى ؛ وسيف : هو ابن ذى يزن الحميرى ؛ والهامة : الرأس ؛ والقرى بالكسر : ما يقدم للضيف وأقراه يقريه ؛ والغربان : جمع غراب وأريد به هنا الحبشة لسوادهم فهو استعارة ؛ والغرب : الحد ؛ والمهند: وصف للسيف ؛ والإناخة إناخة الناقة مثلا . وهى إبراكها . ثم يقال: أناخ أى نزل ، والنهد جمع ناهد: وهو الناهض للحرب وطلب اللقاء ؛ والضمر : جمع ضامر ؛ والخوص : جمع خوصاء وهى الغائرة العينين من الضمر وكثرة السير ؛ ونم : نقل الحديث ، واستعمل هنا فى نقل ريح الصبا رائحة البهار إذا كان فى مطلول الرياض: أى الروض المطلول وهو الذى أصابه الطل ، والمورد : الذى كان له ورد . ومعنى هذه الأبيات : أنه احتج على ما ذكره من الحض على الحركة والترغيب فى النقلة بأمثال ضربها شوهد فيها أداء الحركة إلى الفائدة ، وأن الإقامة لاينال معها الأرب ، ولذلك احتيج إلى الحركة وهى فى هذه الأمثال . أما الحركة العرفية وهى الانتقال من حيز إلى حيز . وأما الحكمية وهى الخروج من القوة إلى سبيل التدريج كما فى نمو الطفل وزيادة الهلال فقال فالماء إذا ركد بأن أقام ولم يجر تعلوه الكدرة ، وإذا جرى صفا وظهر رونقه ، وكذا البدر لو لم ينتقل بالزيادة إذا كان هلالا لم يصر له النور التام بصيرورته بدرا ، والطفل لو بقى طفلا ولم يتحرك بالزيادة لم يصر رشيدا عارفا بالمصالح مالكا أمر نفسه ، وكذا المساويك لو بقيت فى وادى نعمان الأراك وهو واد حول الحرم ولم تنتقل فى أيدى الآخذين لها لم تصل إلى أرض الغرب ولا وصلت إلى أفواه العذارى

النواهد ثديها ، وكذا الدر لو بقى فى أصدافه وهى أوعيته التى يكون فيها فى البحر ولم ينتقل فى أيدى الآخذين له لما صار فى القلائد ولا حل فى رقاب الولائد ، وكذا الليث : أى الأسد لو وجد ما يأكله فى غيله لم يحتج إلى تجشم الحظائر المغلقة الأبواب وتعسف الغيطان والدواب ، ولو كان المرء يجد مآربه وما يتمناه فى منزله لما تكلف الناس مشاقّ الفراق واعتساف الآفاق وركوب الأخطار فى جوب الأقطار ؛ ولما تجاوز امرؤ القيس الدرب ذاهبا إلى قيصر ، والدرب : كل مدخل إلى بلاد الروم من بلاد العرب حتى آل أمره إلى أن سُمّ ومات وجعل السم ناقعا لقلبه ، لأنه تخيله ماء على طريق الاستعارة التهكمية نحو « فبشرهم بعذاب أليم » وقوله : * تحية بينهم ضرب وجيع *
ومبيته غير موسد : كناية عن موته فى الفلوات أو عن ضجعته فى لحده ، إذ ليس هنالك الوساد المعتاد ، ولو كانت المنى تصاب بلا رحلة أيضا لما تجشم سيف ابن ذى يزن الشدائد والأهوال فى البحار التى ركبها فى مقفله من كسرى طالبا أن يقطع رءوس الحبشة المتمردين فى بلاد اليمن ، وقطع الهام إما حقيقة أو كناية عن حسم الشوكة ، وفى ذلك القطع مع سيف مناسبة لطيفة حتى أطعم الأغربة حد السيف ، ونزل فى منازلهم بالقوم الناهدين من أبناء فارس ، وإطعام السيف أيضا استعارة تمليحية ، كما قال الآخر :

نقريهم لهذميات نقدّ بها ما كان خاط عليهم كل زرّاد

وسنذكر قصة هذين الرجلين ، ولو كانت أيضا المنى تكفى فى المنازل لما خدت : أى أسرعت من كل ناحية ومن كل فج من فجاج الأرض المطايا الضمر الخوص من كثرة التسيار إلى زيارة خير العالمين « محمد » النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم ما حملت ريح الصبا عرف البهار فى الرياض المطلولة وهو مورد : أى منور وذلك أطيب وأفوح ، وإنما كان مورد وهو نكرة وصفا لبهار ، وهو مضاف لأن إضافته لاتفيده تعريفا يمنعه عن ذلك ، فإن المضاف إليه إما لوصف نفسه ولا يتعرف بالإضافة ، وإما الموصوف اعتبارا لكون الصفة فى نية التأخير وأل فيه جنسية ، وهو فى المعنى كالنكرة فيعامل معاملة المعارف نظرا إلى اللفظ كثيرا ، ويجوز أن يعامل معاملة النكرة نظرا إلى المعنى ، وكذا يوصف بالجملة كقوله : * ولقد أمر على اللئيم يسبنى *

وجوّز فى قول النابغة :

فبت كأنى ساورتنى ضـئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع

أن يكون ناقع : صفة للسم ، وهذا معلوم فى محله .

وخبر امرئ القيس أنه لما قتل أبوه قام فى أخذ الثأر وطلب الملك ، فجال فى بلاد العرب ثم بدا له أن يستمر إلى الروم ، فخرج إلى قيصر وفى ذلك يقول :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لاتبك عيناك إنمـا   نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقال أيضا :

وإنى زعـيم إن رجعت مملـّكا   بسير ترى منه الفرانق أزورا

وقصته فى ذلك مشهورة فلا نطيل بها . وحاصله أنه رجع من قيصر فأتبعه سما ويقال ثوب أو قميص مسموم ، فلما لبسه جعل لحمه ينقطع فمات ، وذلك بموضع من بلاد الروم يقال له أنقرة ، ويقال هى عمورية التى غزاها المعتصم . وسبب السم أنه وشى به رجل من بنى أسد يقال له الطماح إلى قيصر ، وفى ذلك يقول امرؤ القيس :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه   ليلبسـنى من دائه ما تلبسا

وأما خبر سيف ، وهو سيف بن ذى يزن الحميرى ، فانه كانت الحبشة تغلبت على بلاد اليمن من زمان ذى نواس الحميرى ؛ وذلك أن ذانواس لما أوقع بأهل نجران ، أفلت منهم رجل فالتحق بقيصر يستنصره على ذى نواس وجنوده ، فكتب له قيصر إلى ملك الحبشة بنصره ، فجهز ملك الحبشة جيشا فى سبعين ألفا ، فساروا حتى نزلوا بساحل اليمن ، فخرج إليهم ذو نواس فهزموه ودخلوا اليمن وتملكوها ، وكان صاحب أمرهم بها أرياط ، فقام أبرهة الأشرم صاحب الفيل على أرياط فقتله فملك اليمن ، فلما مات فى وقعة الفيل ملك ابنه يكسوم بن أبرهة ، فلما مات ملك أخوه مسروق بن أبرهة ، فلما طال البلاء بأهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن إلى قيصر يستنصره عليهم فلم يساعده ، فخرج إلى كسرى فقال له غلبتنا الأغربة فجئتك لتنصرنى ويكون ملك بلادي لك ، فقال كسرى : بلادك بعيدة ولا خير فيها ، وأجازه بعشرة آلاف درهم وكسوة حسنة ، فلما قبض سيف ذلك أخذ يفرق ذلك على الناس

هنالك . فبلغ الخبر إلى كسرى فاستدعاه . فقال له : ما حملك على ما فعلت من إتلاف ما أعطيتك ؟ فقال سيف : أيْ حاجة لى به ، جبال أرضى كلها ذهب وفضة ، وأراد بذلك ترغيبه ؛ فلما سمع كسرى ذلك خلا بمرازبته فقال : ما ترون فى أمر هذا الرجل ؟ فقالوا : أيها الملك إن فى سجونك قوما فادفعهم معه فان ظفروه كان ذلك زيادة فى ملكك ، وإن هلكوا فذلك ما يريد منهم . ففعل ذلك وجهز معه من فى السجون وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم رجلا يقال له رهذر فى ثمان سفائن فهلكت سفينتان فى البحر ووصل إلى ساحل اليمن ست سفائن ، فاستنصر سيف من وجد من العرب ، فخرج إليهم مسروق بن أبرهة فى جنوده ، فكان حاصل الأمر فى حديث طويل أن رماه رهذر الفارسى بسهم فقتله ، وتفرقت الحبشة يقتلون فى كل وجه ، ودخلت فارس صنعاء ولم يزالوا بها إلى أن كان آخرهم باذان الذى أسلم ، حيث كتب إليه كسرى أن رجلا من قريش يزعم أنه نبى فاستتبه ، فان تاب وإلا فأتنى برأسه ، فأعلم باذان النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى إن الله تعالى أعلمنى أنه سيقتل كسرى فى يوم كذا من شهر كذا ، فلما بلغ ذلك باذان توقف فقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال ، وقتل الله تعالى كسرى فى الوقت الذى حدده الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم على يد ابنه شيرويه ؛ فلما رأى باذان ذلك أرسل باسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
وفى قصة سيف يقول أبو الصلت الثقفى :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن ريم من البحر للأعداء أحوالا
حتى أتى ببنى الأحرار يحملهم إنك عمرى لقد أسرعت قلقالا
لله درهم من عصبة خرجوا ما إن أرى لهم فى الناس أمثالا
بيضا مرازبة غلبا أساورة أسدا تربت فى الغيضات أشبالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد أضحى شديدهم فى الأرض فلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا فى رأس غمدان دار منك محلالا
فاشرب هنيئا فقد شالت نعامتهم وأسبل اليوم فى برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم قال :

فَدَعِ المَطِيَّ يَشِمْنَ ظِرَّانَ الصُّوَى ... وَيَشِمْنَ بِاليُسَرَاتِ خَـدَّ الأَجْلَدِ

وَيَشِمْنَ بِاللَّحَظَاتِ كلَّ مُخَيِّلٍ ... وَيَسِمْنَ بِالثَّفِنَاتِ كُلَّ مُبَلَّدِ

وَيَعِمْنَ بِالمَلَوَاتِ عَيْمَ ضِبابِها ... وَيَعُمْنَ فى غَمَرَاتِ آلِ صَيْهَدِ

وَيَزِمْنَ مِنْ دَيْنِ السُّرَى ماقدْ لَوَا ... هُ كُلُّ وَخمٍ للدّعاتِ مُخَلَّدِ

تَرْقُدُ بِالحَدَدِ ارْقِدَادَ نَعائِمٍ ... وَتَخالُ فى الوَعْثِ اخْتِيالَ الخُرَّدِ

حَتَّى تَرَاها كالقِسِيِّ مَجَاهِلاً ... أَوْتارُها أَوْ كالحَنايا العُمَّدِ

وَتَرَى بناتِ العيدِ أَضْحَى نِقْضُها ... عِيداً لِوَحْشٍ بِالفَلاةِ مُعَيَّدِ

دع بمعنى اترك ؛ والمطى جمع مطية ؛ والو أم : الكسر ، وثمت المطايا الأحجار يثمها ؛ والظران جمع ظرن بالكسر : وهو الحجر أو المدور منه المحدد ؛ والصوى جمع صوة بالضم : وهى ما ارتفع من الأرض ؛ والوشم فى البدن أن تغرز الإبرة فى اللحم ثم يذر عليها النيلج وهو معروف ، وفى الأرض مجاز عن الآثار الواقعة بالوطء ؛ واليسرات : القوائم الخفاف ؛ والأجلد : المكان الصلب ، يقال مكان أجلد ، قال جرير :

أجالت عليهن الدوامس بعدنا ... دقاق الحصا من كل سهل أجلد

والأجلد أيضا : الأشد والأقوى من الجلادة وهي القوة والشدة ؛ وشام البرق يشمه : نظر أين ينحو أو أين يمطر ؛ واللحظات جمع لحظه : وهى نظرة العين ؛ والمخيل من السحاب : ما يظن منه ماطرا ؛ والوسم : وضع السمة وهى العلامة وسم يسم ؛ وثفنات البعير بكسر الفاء : ركبته وما يمس الأرض منه ؛ والعيم ؛ شهوة اللبن ، والعيم أيضا : العطش وهو المراد فى البيت ، يقال عام يعيم عيما وعيمة فهو عيمان ؛ والملوات : الفلوات ؛ والعوم : السبح فى الماء ؛ والغمرات جمع غمرة : وهى معظم الماء ، والآل : السراب ؛ والصيهد : هو السراب الجارى ؛ والوزم قضاء الدين وزم يزم والسرى : سير الليل ؛ واللىّ : المطل ، يقال لوى فلان غريمه أى مطله والوخم : الثقيل ؛ والدعات جمع دعة : وهى الراحة والنعمة ؛ والتخليد

الإخلاد ، يقال أخلد إلى شيء نزل إليه وتساقط عليه ؛ والارقداد : الإبراق ؛ والجدد بفتحتين : الموضع الصلب وضده الوعث ، وهو الذى تغمس فيه الأرجل ؛ والنعائم جمع نعامة ؛ وخال يخال واختال يختال فى مشيته ؛ والخرّد جمع خريدة : وهى الحيية ؛ والقسى جمع قوس وأصله قووس ثم قلب ؛ والمجال : محل الجولان من الأرض ؛ والوتر : وتر القوس ؛ والحنايا : جمع حنية : وهى الخشبة يسقف بها ، أو المعوجة مطلقا بمعنى محنية ، تقول حنوت الشيء أحنوه إذا عطفته فهو محنى وحنى ، ومن ثم قيل للقوس حنية وجمعها حنايا وهو المعروف عند العرب لأنها محنية أى معطوفة ، غير أنه هنا لما ذكر القسى فى صدر البيت لم يبق إلا أن يراد شيء آخر وهو السقائف ، ولذا وصفها بالعمد أى العامدة ، وهى مجاز لأنك تقول أعمدته : إذا أقمته بالعماد فنسب ذلك إلى العماد نفسه مجازا ، والعرب تشبه المطايا وضمورها بالسقائف كما تشبهها بالقسى ، قال الشاعر :

ورفعت راحلة كأنّ ضلوعها من نص راكبها سقائف عرعر

غير أن هذا شبه الضلوع وما فى البيت تشبيه الجملة ، والمراد من الجميع الحنوّ أو الضمر ؛ والعيد : فحل منجب معروف تنسب إليه النوق النجائب فيقال بنات العيد وناقة عيدية ؛ والعيد فى عجز البيت هو الموسم كالأضحى ؛ والعيد عند العرب كل يوم فيه جمع ، وعيّد القوم : شهدوا العيد ؛ والنقض بالكسر : المهزول من السير جملا أو ناقة . ومعنى الأبيات : أنه لما احتج على الرحلة بما مر من الأمثال وأبان أنها مجلبة لخصال المعالى ومعالى الخصال استنتج من ذلك الأمر بها والإقبال على طلبها فقال : فدع المطايا تسير بجد ونشاط وقوة فتهشم حجار كل رابية ، وتنظر فى وجه كل قاع شبه الوشم فى خد الجارية ، وتشم برق كل سحاب مطمع ، وتسم بثفناتها كل موضع بركت فيه ، وتشيم البروق كناية عن السير فى المهامه المقفرة ، وذلك كناية عن بعد الشقة وهو شأن الهمة الرفيعة ، وسيم المكان هو ما يبقى فيه من أثر الراكب والإفخاذ وغير ذلك بعد النهوض ، وتعطش بالقفار عطش ضبابها فان الضب لايشرب ، وتقوم فى غمرات كل سراب كالماء ؛ وأنكر بعض أهل اللغة أن يكون الصيهد هو السراب الجارى وقال : إن الصيهد هو شدة الحر ؛ وعلى

هذا القول البيت صحيح أيضا على حذف مضاف أى آل ذى حر شديد أومبالغة بلا تقدير ، ونقضى من دين السرى ما لواه ذووالهمم الساقطة المخلدون إلى الراحات الراضون بالمأكولات والمشروبات : أى أن السرى لطلب المعالى كأنها حق على الناس ودين على العقلاء ، وهذا الدين يمطله اللئام ويفى به الكرام وإذا بلغت هذه المطايا الجدد من الأرض أرقلت إرقال النعام ، وإذا بلغت الوعث كالرمال والخبار جعلت تتقلع كأنها تختال اختيال الخرائد ، ولا تزال فى دأب السرى حتّى تراها أيها الناظر ضامرة كأنها القسى فى ضمورها وانعطافها وكأنّ ما بين أخفافها الأوائل والأواخرمن الأرض هى أوتار تلك القسى ومن نظر إليها متأملا علم ذلك ، أو كأنها السقائف فى نحولها وطولها ، وترى تلك النجائب العيدية قد بقى مهزولها فى الفلوات فصار عيدا للوحش يعيد عليه . وفى الأبيات نوع من السجع غريب يقع فىالصدور وهو صنيع أفراد من بلغاء الكتاب ، وسيأتى إن شاء الله تعالى . ثم قال :

فَلَكَمْ لَبِسْتُ الدَّهْرَ مِنْ شُقَقِ المَلا
كالخِرْقِ يُبْلَى فى المُلاءِ ويَرْتَدِى

وَسُرادِ أُفُقِ السَّماءِ إذا سَجَى ... أرْعَى كَوَاكِبَها بجَفْنٍ مُسَهَّدِ
فى مَضْجَعٍ أغْشاهُ غَيْرَ مُدَمَّثٍ ... وَذِرَاعُ نَبْتِ القَفْرِ فيهِ مُوَسَّدِ
وكأنَّما جَفْنِى المُسَهَّدُ طائِرٌ ... حَذِرٌ مَتَى يَرُمِ الوُقُوعَ يُشَرَّدِ
وكأنَّما حَسِبَ الدُّجَى فَتَخاءَ قَدْ ... أرْخَتْ عَلَيْهِ مَخالِبَ المُتَصَيِّدِ

الشقق : جمع شقة ،وهى من الثياب معروف ، والشقة أيضا : البعد والجهة التى يقصدها المسافر ؛ والملا بفتح الميم والقصر : الصحراء ، ويقال أيضا الملا : جمع ملاة وهى الفلاة ذات الحر والسراب ؛ والخرق بكسر الخاء : السخى من الفتيان أوالسخى الظريف ، وإبلاء الثوب معروف ،والملاء بضم الميم جمع ملاءة : وهو نوع من ثيابهم ويقال لها الريطة ؛ والارتداء : الالتحاف ؛ والسرادق بضم السين : شىء يمد فى صحن الدار مثلا والبيت من الكرسف ؛ وسجى الشىء دام وسكن ؛ والمسهد بفتح الهاء : الأرق ، يقال سهد وسهدته أنا تسهيدا فهو مسهد : أى تركته بلا نوم ؛ والمضجع : موضع الاضطجاع ؛ والمدمث :

المسوّى المسهل ؛ ونبت القفر هى الحجر والصخر ؛ والفتخاء : المسترخية الجناحين ؛ وتطلق على العقاب ؛ والمخالب جمع مخلب : وهو للسباع ، والمراد سباع الطير. ومعنى هذه الأبيات : أنه لما ندب إلى الرحلة والاغتراب ذكر مالقى فى هذا الباب وما قاسى من المشاق والمتاعب وتعاطى من المهالك والمعاطب فقال كم لبست الدهر ، أى فى دهرى من شقق الملا ، وفيه إبهام ، لأنه إما شقة البين والقرينة ذكر الملا ، وإما شقة اللابس والقرينة ذكر اللابس قبله ، وعلى الأول فالاستعارة فى اللابس بأن اعتبرت المسافات وجعل الدخول فى كل واحدة هو لبسها والخروج عنها هو إبلاؤها وطرحها بلبس الأخرى ، وكذا أشبه بالخرق يلبس الملاء ثم يطرحها ويرتدى أخرى ، وعلى الثانى فالاستعارة فى لفظ الملا أى الصحراء والفلوات بأن شبهت بالثياب أى بجنس منها ، وأضيفت شقق ذلك الجنس إليه تخييلا ، ويجوز أن يكون تشبيها بليغا واستعارة تصريحية فى لفظ الشقق . والمعنى إنى كثيرا ما قطعت مسافة ودخلت أخرى من كثرة الترسال ودوام الانتقال ، وسرادق : أى بيتى أو ظلى الذى آوى إليه إنما هو أفق السماء إذا سجى أى ظلامه أو سجى ليله . وذلك الوقت وقت انقلاب الناس إلى بيوتهم ؛ وليس لى أنا بيت إلا الجوّ الواسع والسقف السماء أرعى كواكب السماء بجفن شخص مسهّد وذلك فى مضجع من الأرض أغشاه : أى أفضى إليه ؛ إذ لا فراش ولا وطاء وهو غير مدمث ؛ إذ لا قرار ولا خادم مع عدم الركون إلى الدعة والالتفات إلى الرفاهية ؛ وذراع الحجر : هو الموسد أو هو مكان التوسيد فإن ذلك الوقت وقت يتوسد فيه المقيم فى دعة ذراع ضجيعته وليس لى أنا ضجيع ولا وساد إلا الأحجار ، وكأنما جفنى المسهد من كثرة قلقه وقلة سكونه وهدوئه طائر شديد الحذر كالغراب مثلا متى يحاول الوقوع : أى النزول إلى الأرض يشرّد إلى الجو فيطير صاعدا وكأنه أيضا يحسب الدجى : أى الظلم وهى جمع دجية يظنها حيث انسدلت عقابا فتخاء : أى مرخية الجناحين تهم بشىء تخطفه فهى قد أرخت : أى أدلت مخالبها التى تتصيد بها ، فإذا توهم هذه الصورة لم يسكن ولم يغشه نوم . ثم قال :

وكَمِ اشْتَكَيْتُ غَرِيبَ دَارٍ لَيْسَ لى
مِنْ عُوَّدٍ غَيْرِ الدَّخِيلِ المِلْسَدِ

الاشتكاء : إظهار ما بك من مكروه أو مرض ونحوه ، والاشتكاء أيضا من الشكو وهو المرض نفسه : تقول منه شكا شكوا وشكا شكاية وتشكّى واشتكى ، ومن الأول يقال اشتكى عضوا من أعضائه ، والذى فى البيت يصح أن يكون منه فيكون حذف المعمول اختصارا أو اقتصارا ، وأن يكون من الثانى وهو ظاهر ؛ والعوّد جمع عائد وعائدة من عيادة المريض ؛ والدخيل : الحزن والهم الداخل فى الفؤاد ؛ والملسد مفعل من اللسد : وهو الرضاع . أى كم مرضت وأنا غريب الدار وليس لى عائد يعودنى غير ما فى الحشا من الحزن المصاص للفؤاد الداخل كل حين ؛ وبئس العائد . ثم قال :

وَلَرُبَّ لَيْلٍ نابِغِيَّ رُضْتُهُ ... جَمَلاً لِرَحْلِى ما اشْمَأَزَّ ولا حُدِى

وَسَقَتْ عَلَىَّ دُجاه أشْتاتَ الْهَوَى ... وَسَقَتْ فُؤادِى كأسَ وَجْدٍ مُؤْدِدِ

واسْتأسَدَتْ فيهِ الْهُمومُ عَلَى الْحَشا ... حَنَقًا فَبِتُّ لَهَا بِلَيْلَةِ أنْقَدِ

الليل النابغى : الطويل ، وهو منسوب إلى النابغة الذبيانى حيث يقول :

فبتّ كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع

يُسَهَّد من ليل التمام سليمها ... لحلى النساء فى يديه قعاقع

فقيل من ذلك ليلة نابغية وصار مثلا ؛ والاشمئزاز : النفور ؛ والحدى : الزجر والسوق ، وسقت جمعت وسقته فى المصراع الثانى من سقى يسقى ؛ والمؤدد مفعل من الأد ، يقال أدته الداهية تؤده : إذا دهته ؛ واستأسد الرجل أو غيره صار كالأسد . واستأسد علىّ : اجترأ ؛ والحنق : أشد الغيظ ؛ وأنقد : هو القنفذ وقد يقال بالألف واللام ، وفى المثل « بات بليل أنقد » أى لم ينم ، لأن القنفذ لا ينام : أى رب ليل طويل قطعته سيرا . وفى البيت مثلان سائران : أحدهما قولهم : ليلة نابغية كما قررنا ذلك . الثانى قولهم : اتخذ الليل جملا إذا سار فيه ؛ غير أنه فى البيت زاده ترشيحا بقوله رضته فهو جمل مرتاض ذلول ؛ وقوله لرحلى هو من خواصّ الجمل الحقيقى كالارتياض ، وقوله ما اشمأزّ ولا حدى : يريد أنه جمل ما نفر قطّ من حمل ولا ركوب ولا احتاج إلى حاد ، وهذا لا يوجد فى الإبل وكأنه بتلك الرياضة اتصف بهذا ، ففى البيت من المحاسن ما يطول بنا شرحه ؛

ثم وصف الليل بأنه وسقت : أى جمعت ظلمه أشتات الهوى ، فإن الهوى والحزن والهم يروح إلى القلب مع الليل ، وذلك لأنه يتفرغ إذ ذاك بخلاف النهار ، فانه يشتغل فيه بالأشغال ويتسلى ، وأنه سقت الفؤاد كأسا من الوجد الداهى ، وأن الهموم استأسدت فيه : أى صارت أسودا وتجاسرت على الحشا فذهب النوم بذلك وبات بليلة أنقد ، وهذا أيضا مثل سائر . ثم قال :

وَلَبِسْتُ منْ ساجِيهِ ساجا رُصِّعَتْ   مِنْــهُ فَرَائِدُ لُؤْلُؤٍ بِزُمُرُّدِ
والبَدْرُ فى أُفُقِ السَّماءِ كأنَّهُ   مَلِكٌ مِنَ الزُّهْرِ الدَّرَارِى فى نَدِ
وَتَرَى الثُّرَيَّا حَــوْلَهُ وكأنَّها   جَمْعٌ لأمْرٍ فى العَشِيرَةِ مُنْتَدِ
وكأنَّما الجَوْزَاءُ عِقْدٌ فُصِّلَتْ   مِنْهُ فَرَائِدُ لُؤْلُؤٍ بِزَبَرْجَــدِ

الساجى : الدائم الساكن كما مر ؛ والساج : الطيلسان الأسود أو الأخضر ؛ والمرصع : المخلل ، وأصله قولك رصع به إذا لزق ، وارتصع : التصق ؛ والفرائد جمع فريدة : وهى الجوهرة النفيسة ؛ والزمرد بالضمات وتشديد الراء : هو الزبرجد ، ويقال أيضا بذال معجمة وهى اللغة المشهورة ؛ والدرارى جمع درىّ : وهو الكوكب المضىء ، وهو الأزهر أيضا ؛ والندى : المجلس ؛ والثريا : النجم المعروف ؛ وانتدى القوم ينتدون : اتخذوا مجلسا : أى لبست من ظلام الليل الساجى ساجا مرصعا بالجوهر والزمرد : أى الكواكب مع ما يتخللها من اللون الأزرق والبدر فى الأفق كأنه والكواكب المحيطة به ملك من الملوك اجتمعت عنده أرباب دولته ؛ والثريا كأن نجومها المجتمعة جمع من الناس منتدون للتشاور فى أمر وقع ؛ فى العشيرة : عشيرتهم ؛ وأفرد منتد مراعاة للفظ جمع ؛ والجوزاء كأن نجومها فرائد ، وما يبدو بينهما من لون السماء كأنه الزبرجد . ثم قال :

حتّى بَدَا ثَغْرُ الصَّباحِ كأنَّهُ   وَخْطُ المَشِيبِ بِفَرْعِ خَوْدٍ مُنْتَدِ
أوْ ثَغْرُ زِنْجِيّ تَبَسَّمَ شائِصًا   بأرَاكَةٍ عنْ مِثْلِ صَافِى الخِفْرِدِ

وخطه الشيب : خالطه ، وقيل هو أن يستوى البياض والسواد ؛ والفرع هنا : الشعر فى الرأس ؛ والخود : الحسنة الخلق الشابة ؛ والمنتد : المفترق معا ، يقال ندا الشىء يندو تفرق وهو وصف للشعر ؛ وشاص : فاه بالسواك دلكه به فهو

شائص ؛ والحفرد : الجوهر : أى لم أزل سائرا ومتخذا الليل جملا حتى ظهر الصباح كأنه الثغر الأبيض ، وكأن بياضه فى سواد الليل شيب فى شعر الخود الكثيرة الشعر المسود وهو منتشر ، أو كأنه ثغر شخص زنجى أسود ، وقد شاصه بعود أراكة فيتبسم عن أسنان مثل الجوهر الصافى ، وقد اجتمع حينئذ بياض الأسنان مع خضرة السواك محوطا بسواد كثير ، وذلك صفة الفجر الواضح ثم قال :

وَالقَوْمُ سَكْرَى بِالْكَرَى فَكَأَنَّهُمْ مِيلاً عَلَى الأَكْوَارِ صَرْعَى صَرْخَدِ
يَتَيَمَّنُونَ مِنَ الصَّبَاحِ بِأَغْرُبٍ بُقْعٍ وَسَعْدُ الغُرْبِ أَغْرَبُ مُسْعِدِ

السكرى جمع سكران ؛ والكرى : النعاس ؛ والميل جمع أميل ، وهو الذى لايثبت على المركوب ؛ والأكوار جمع كور بالضم : وهو الرحل ؛ والصرعى جمع صريع : وهو المصروع ؛ والصرخد : الخمر ؛ والتيمن من اليمن وهو ضد الشؤم ؛ والأغرب جمع غراب ؛ والبقع : جمع أبقع ، وهو فى الطير بمنزلة الأبلق فى الدوابّ ؛ والغرب : جمع غراب ؛ والأغرب من الغرابة : وهى الندور والقلة. أى والقوم وهم الرفقاء فى ذلك السرى قد أسكرهم النعاس فهم لايثبتون على الرواحل وكأنهم قد شربوا الخمر فصرعتهم وهم يتيمنون : أى يعدّون الصباح مخرجا لهم من مشقة السير وطول الليل فهو سعيد ، وهو كأنه غراب أبقع : أى مختلط البياض بالسواد ، فقد تيمنوا بالغراب الأبقع ، وكون الغربان ميامين من أغرب ما يسمع ، فإن العرب يستوحشون منها ويزعمون أنها تنذر بالفراق كما قال : * وجرى بينهم الغراب الأبقع * وإنما ذلك لكونها تحلّ بالديار الخالية وتصيح بعد الافتراق . ثم قال :

وَالعِيسُ مِنْ دَأْبِ السُّرَى مَحْرُوكَةٌ تَشْكُو ذُرَاهَا كُلَّ جِبْسٍ حِلْفِدِ

العيس : الإبل البيض مع شقرة والواحد أعيس والأنثى عيساء ؛ والمحروكة : التى أصيب حاركها ؛ والذرى جمع ذروة ؛ والجبس من الرجال : الثقيل الجامد؛ واللئيم والجبان ؛والحلفد على مثال زبرج :الثقيل السىء الخلق. أى الإبل من دوام السرى قد دبرت حواركها ، وذراها تشكو بلسان حالها ركوب كل ثقيل جافّ غير راحم . ثم قال :

فى مَهْمهٍ يُشْجِي البَوازِلَ ضَاحِيا وَيُرُوعُ عِيصاناً فُؤَادَ الأرْبَدِ
يَتَحَيَّرُ الكُدْرِيُّ فى جَنَباتِهِ حتّى يَحِينَ صَدًى وَلَمْ يَتَوَرَّدِ

المهمه : القفر ؛ والشجى : الحزن شجاه وأشجاه ، ويكون أيضا بمعنى الطرب على الضد ؛ والبوازل جمع بازل : وهو القوىّ من الإبل الذى بلغ تسعا ؛ والضاحي : البارز للشمس ، والمراد هنا ما لاشجر فيه ؛ والروع : الخوف راعه يروعه ؛ والعيصان : جمع عيص ، وهو الملتف من الشجر ؛ والأربد : الأسد ؛ والكدرىّ : القطا ؛ والجنبات : النواحى ؛ وحان يحين : هلك ؛ والصدى : العطش ؛ وتورّد : ورد الماء . أى كان ذلك السرى فى مهمه هذه صفته ، وهو أن ما كان منه عاريا يحزن البوازل إذا توجهت لقطعه وذلك لطوله كما قال امرؤ القيس :

على لاحبٍ لايهتــدى لمناره إذا سافه العود النباطى جرجرا

وما كان منه غابة فهو يهول الأسْد أن تسلكه ، ثم وصفه أيضا بكونه مجهلا مطموس المعالم فقال : إن الكدرى يتحير فيه حتّى يهلك عطشا ولم يصل إلى الماء مع أنه أهدى الطير فكيف بغيره . ثم قال :

فَكأنّهُ بَحْرٌ عَــلَوْناهُ وَمَا حِيتانُهُ غَــيْرَ الدَّبا والجُدْجُدِ
بِسَفِينِ خُوصٍ كالحنايا ضُمَّرٍ نُجُبٍ بأشْرِعَةِ الهَوادِى تَهْتَدِى
يَهْتاجُها رِيحُ الصَّبابَةِ لا الصَّبا وَغِناءُ كُلِّ مُطَوَّقٍ مُتَغَرِّدِ
يَشْدُو فَيَذْكُرُ كلَّ عَهْدٍ سالِفٍ وَيُثِيرُ كُلَّ هَوًى مُحِيلٍ مُخْمِدِ

الدبا بفتح الدال والألف مقصورة كوزن الفتى : الجراد الصغير ؛ والجدجد بضمتين كوزن هدهد: دويبة كالجندب وطائر صغير كالجراد، والسفين : جمع سفينة والخوص : جمع خوصاء وتقدم ؛ والحنايا : القسى ؛ والضمر . جمع ضامر وضامرة ؛ والنجب: جمع نجيبة : وهى الجيدة الكريمة ؛ والأشرعة : جمع شراع بكسر الشين، وهو المنصوب فوق السفينة لتتحرك به؛ والهوادى : جمع هاد، وهو العنق ؛ والمطوق : ما له طوق ؛ والتغريد : رفع الصوت بالغناء : أى فكأن ذلك المهمه المذكور بحر ركبناه ، ولكنه بحر حيتانه الجراد والجنادب ، وإنما خضناه بسفائن من الإبل الضمر كالحنايا الخوص النجب ؛ ولما كانت السفينة

تحتاج إلى شراع وإلى ريح تحرك الشراع كانت شروع هذه السفن أعناقها ، فان البطء والخفة يظهران فيه وريحها ريح الصبابة والشوق إلى من توجهت إليه وغناء ذوات الأطواق المغردات فى حافات الطريق ، يشدو ذلك المطوق : أى يرفع صوته بالغناء فيذكر العهود السالفة ويحرك الهوى المحيل الخامد . ثم قال :

وَلَرُبَّ باكِيَةٍ شَجَتْنِى مَوْهِنًا　　نَغَماتُها فَوْقَ القَضِيبِ الأمْلَدِ
باتَتْ تُطارِحُنِى البُكاءَ كأنّما　　تَدرِى الّذى بِجَوانِحِى مِنْ مَوْجِدِ
فَبَكَيْتُ غَيْرَ بُكائِها إذْ لَمْ تُرِقْ　　دَمْعا وَنَحْرِى بالمَدامِعِ قدْ نَدِى
بَكَتِ الهَدِيلَ عَلى تَقادُمِ عَهْدِهِ　　أفَلا أَحِنُّ إلى حَدِيثِ المَعْهَدِ

الموهن : الوقت من الليل نحو النصف أو بعده ؛ والأملد من النبات : الأنعم اللين والتطارح والمطارحة فى الكلام ؛ والبكاء معروف ؛ والموجد : مفعل من الوجد وهو الحزن ؛ وندى المكان : ابتل ؛ والهديل بفتح الهاء : صوت الحمام والهديل أيضا فرخ تزعم العرب أنه كان فى عهد نوح عليه السلام فصاده جارح أو مات عطشا قالوا : فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه ، وهذا موجود فى أشعارهم كثيرا ، فلهذا وقع فى البيت جريا على مناهجهم : أى رب باكية شجتنى : أى أحزنتنى بنغماتها وأصواتها الحسنة فوق القضبان النواعم نضارة وريا باتت بذلك تساجلنى فى البكاء كأنها قصدت ذلك ، كأنها تدرى : أى تعلم ما فى قلبى من الأحزان ، وفى نسخة : فكأنما تجد الذى أجد من الأحزان فبكيت بسبب بكائها غير أنى بكيت غير بكائها ، إذ هى لاتريق دمعا ، ولذلك يسمى غناء ويسمى بكاء بحسب وجدان السامع ؛ وما أحسن قول ابن عبد ربه :

وشجى قلب الخلى فقال غنى　　وبرح بالشجى فقال ناحا

ودمعى أنا قد جرى حتى إن نحرى قد ندى : أى ابتل بالمدامع ، وفى نسخة : وحلقى بالمدامع قد كدى : أى غص بها ، يقال كدى بالعظم إذا غص به : أى بكت هذه الحمامة الهديل مع تقادم عهده من زمن نوح عليه السلام، أفلا أحن إلى ولد حديث العهد قد ودعته . ثم قال :

وَبَكَتْ وَفَرْخاها هُناكَ وقَدْ عَدا　　عَنِّى فِراخِى كُلُّ نَشْزٍ قَرْدَدِ
مارُمْتُ مِنْهُمْ رِحْلَةً إلاّ حَجَوْا　　أنْ لاتَلاقِىَ بَعْدَ ذاكَ المَشْهَدِ

فَعَلا عَوِيلُهُمُ وَناحُوا نَوْحَةً ... سَلَكَتْ فُؤادَ مُكاشحٍ فى مِفأَدِ
وَسَقَوْا تَراقِيَهُمْ وَقالوا لاتَرِمْ ... أوْلا فَلا تَبْعَدْ ولا تَتَبَعَّدِ
أبْكِى عَلَيْهِمْ بَعْدَهُمْ أسَفًا وَهُمْ ... يَبْكُونَ بَعْـدِى كالثَّكالَى الفُقَّدِ

عدوته عن الأمر عدوا وعدوانا : صرفته عنه وشغلته ؛ والنشز : ما ارتفع من الأرض ؛ والقردد : ما ارتفع وغلظ ؛ وحجا الأمر يحجوه ظنه ؛ والعويل رفع الصوت بالبكاء ؛ والسلك : الإدخال كما تقول سلكت الدرة فى الخيط واللحم فى السفود ونحو ذلك ؛ والمكاشح : المعادى ؛ والمفأد : الآلة التى يشوى بها اللحم ، تقول فأدت اللحم فهو مفئود إذا شويته ؛ ولا ترم : لاتنتقل ولا تبرح ، وبعد يبعد كعلم يعلم : هلك ، وتبعد ضد تقرب ؛ والثكالى جمع ثكلى ؛ والفقد جمع فاقدة وصف كاشف : أى وبكت تلك الحمامة أيضا مع أن فرخيها معها وقد بعدت فراخى وصرفها عنى كل نشز من الأرض حال بينى وبينهم فما يستطيعون الوصول إلى ما رمت عنهم ارتحالا قط إلا ظنوا أن لاتلاقى بعد ذلك المشهد ، وإنى لاأرجع إليهم لبعد الشقة مع شدة المخاوف وكثرة المتالف ، فعلا : أى ارتفع بسبب ذلك بكاؤهم وناحوا نوحة يرق لها العدو حتى يصير قلبه كأنه مشوى على النار فى السفود ؛ وهذه مبالغة ؛ وسقوا بالدموع تراقيهم ، جمع ترقوة : وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق . وقالوا عند ذلك لاترم : أى لارمت وهو تلميح إلى قول ابنة جرير :

أبانا فلا رمت من عندنا ... فإنا بخـير إذا لم ترم

أولم يكن ما تعنينا من الاجتماع فلا بعدت ولا تبعدت أبكى على أولئك الفراخ بعد فراقهم أسفا وحزنا عليهم وهم يبكون بعدى كذلك ، وكانوا كالثكالى فى احتراق الأحشاء واشتداد البكاء . ثم قال :

لَوْكانَ عَبْدُ اللهِ يَسْمَعُ نَوْحَتِى ... ألْقَتْ عَصَاها رِحْلَتِى وَتَزَوُّدِ

عبد الله : هو ابن طاهر المشهور ؛ وإلقاء العصا كناية عن الإقامة وانقطاع السفر ، لأن المسافر يأخذ العصا بيده ، فاذا أقام رمى بها ، وهذا تلميح إلى القصة الواقعة لعبد الله بن طاهر مع عوف بن محلم الشاعر المشهور . وذلك أن

عبد الله خرج فى بعض غزواته ومعه عوف ، فبينما هما يتسايران إذ ناحت حمامة فأنشد عبد الله أبياتا لعوف وهى :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك مياد ففيم تنوح
أفق لاتنح من غير شىء فإننى بكيت زمانا والفؤاد صحيح
ولوعا وشطت غربة دار زينب فها أنا أبكى والفؤاد جريح

ثم قال لعوف : أيحضرك شىء من هذا المعنى وفى هذا الروى ؟ فقال :

أفى كل عام غربة ونزوح أما للنوى من رقية فتريح
لقد طلح البين الفروق ركائبى فهل أرين البين وهو طليح
وأرّقنى بالرىّ نوح حمامة فنحت وذو الشوق القريب ينوح
على أنها ناحت ولم تدرّ عبرة ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخى مهامه فيح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى فتلقى عصا التسيار وهى طريح
فإن الغنى يدنى الفتى من صديقه وعدم الفتى بالمقتدين نزوح

فلما سمع عبد الله هذا الشعر رق له ووصله بعطاء جزيل ورده إلى أهله ، وقال له : يصلك عطاؤك كل عام فى أهلك . ثم قال :

حلاً لَقَدْ أَسْمَعْتَها أنْدَى يَدًا مِنْهُ وأَجْوَدَ بالنَّفِيسِ المُتْلَدِ
وأجَمَّ أفْضَالاً وأفْسَحَ جانبا مِنْهُ وأكْفَى للعَوِيصِ الأمْرَدِ
وأجَلَّ مِقْدَارًا وأعْلَى هِمَّةً مِنْهُ وأرأفَ بالغَرِيبِ الأمْلَدِ
وأعزَّ منه ذُرًى وأوْشَكَ نُصْرَةً لِفَتًى بأيْدِى الحادثاتِ مُلَهَّدِ
وأعَمَّ عارِفَةً وأطْهَرَ ساحَةً وأعَفَّ عَنْ جافٍ لَهُ وَمُنَدِّدِ
وأبَرَّ أفْعالاً وأزْكَى شِيمَةً وأحَقَّ بالمَجْدِ الرَّفِيعِ الأمْجَدِ
غَيْثَ الوَرَى الشَّيْخَ ابْنَ ناصِرِ الّذِى
نَصَرَ الإلَهُ بِهِ شَرِيعَةَ أحْمَدِ

حلا : كلمة تقال جوابا فى رد إذا وقع من أحد كلام تغالى فيه أو يمين فجر فيه أو وعيد عن غير حقيقة تقول له حلا يا فلان : أى تحلل من كلامك

أو من يمينك أو من وعيدك ؛ ومن ذلك قول عمرو بن معديكرب لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه حين ذكر عمر خالدا فيما أتى من الضيافة يستقلُّها ، فقال أمير المؤمنين : إن فى هذا لشبعة ، فقال عمرو : حلا يا أمير المؤمنين فيما تقول أى تحلل من كلامك فإنه لاشبعة هنالك ، والقصة معروفة ، وهو منصوب على المصدرية بالعامل المقدر ، فلما كان قوله أوّلا « لو كان عبد الله يسمع نوحتى » إلى آخره يقتضى أن الجدوى والغنى والبر والجود والفضل قد فاتت بفوات عبد الله وأمثاله ، أو أن نوحة هؤلاء الأولاد ونوحتك لم يسمعها من يرقّ لهم ولك ويجزل عليك العطية ويكفيك النقلة ويكفيهم الفرقة ، وهذا كله غير صحيح ؛ لأن هذه النوحة قد سمعت وسامعها أجود من ابن طاهر وأقعد بكل مكرمة وأثبت فى كل فضيلة ، فأنت أسعد من ابن محلم وأجدر بالظفر وأحق بالنجح وأولى بالربح ، فلذا رد على نفسه مثبتا لهذا الغرض ومتخلصا به من باب النسيب وما التحق به إلى باب المديح الذى هو المقصود بالذات مع ما يلتحق به فقال حلا : أى تحلل من كلامك واخرج عنه ولا تعتقده ، فوالله لقد أسمعتها : أى هذه النوحة أندى يدا : أى أسخى منه : أى من عبد الله وأجود منه بالنفيس المتلد الموصل ؛ وأجمّ : أى أكثر منه إفضالا على الناس ؛ وأفسح : أى أوسع جانبا حسا ، وهو كناية عن الكرم والإطعام ومعنى وهو كناية عن حسن الخلق والتبحر فى العلم مع عموم الانتفاع ؛ وأكفى : أى أعظم كفاية للأمر العويص : أى الخطب الشديد الأمرد ، من قولك مرد الشيء مرودا : إذا عتا وتجاوز الحد ؛ وأجلّ : أى أعظم مقدارا علما وعملا عند الله وعند الناس ، وأعلى همة لانبعاث رغبته إلى معالى الأمور من معرفة الله تعالى ومعرفة أحكامه وحكمته وطلب ما يبقى والزهد فيما يفنى ؛ وأرأف : أى أرحم بالغريب الألمد : أى الذليل المتواضع وأعز منه : أى من عبد الله ذرى أى ساحة ، لأن المعتز بالله تعالى أعز من المعتز بالفانى ـ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ـ وأوشك : أى أوشك منه نصرة الفتى ؛ ملهد : أى مدفوع بأيدى الحادثات ؛ وأعم منه : أى أشمل منه ؛ عارفة : أى عطية ، وصلة لانتفاع الناس به علما وعملا ظاهرا وباطنا ؛ وأطهر منه ساحة لبعده من كل ما يستقبح ويسترذل شرعا وعادة ، وكذا من يعاشره فلا يأمر إلا

بخير ولا يدل إلا عليه ؛ وأعف منه : أى أكثر عفافا عن مجازاة الجافى عن جفائه والمندد من تنديده ؛ والتنديد : هو التصريح بالعيوب وإسماع القبيح ، وندّد فلان بفلان أسمعه القبيح وعابه ، والكريم لايجزى السيئة بالسيئة بل يعفو ويصفح ؛ والعفاف : ترك ما لايحل شرعا أو طبعا ؛ وأبرّ منه : أى أحسن منه أفعالا بجريانها على وفق الشرع ؛ وأزكى : أى أصلح وأطهر شيمة وهى الطبيعة لتهذيبها بمحاسن الآداب الشرعية وتخليها من الأخلاق الذميمة وتحليها بالأوصاف الحميدة ؛ وأحق منه بالمجد : أى الشرف الرفيع البالغ الأمجد : أى الأثبت من قولهم مجد بالمكان أقام ، ثم الموصوف بهذه الأوصاف كلها هو غيث الورى لانتفاعهم به كانتفاعهم بالغيث ؛ ذاك ابن ناصر ؛ وهو سيدنا وإمامنا وقدوتنا ووسيلتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر بن عمر الدرعى الذى نصر الله به شريعة نبينا ومولانا وشفيعنا أحمد المصطفى خير العالمين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم تسليما ؛ لأن الله تعالى أشهرها به وأظهرها ، وأخمد البدع وأذهب آثارها . ثم قال :

وأعادَ وَجْهَ الدّينِ أبْيَضَ مُسْفِرًا ... بَهِجًا مُقِرًّا عَيْنَ كُلّ مُوَحِّدِ

وأقامَ سَمْكَ بِنائِهِ حَتّى سَمَا ... فَوْقَ السِّماكِ على الأواسِي الوُطَّدِ

وأزَاحَ عَنْهُ كُلّ حِنْدِسِ شُبْهَةٍ ... وَضَلالَةٍ وَغَوَايَةٍ وَتَشَدُّدِ

المسفر : المنير ؛ والبهج : الحسن ؛ وقرت عين فلان تقر : بردت وانقطع بكاؤها واستعمل فى لازم هذا المعنى وهو السرور ووجدان المطلوب ؛ وأقر عينه فعل به ذلك ؛ وسمك البناء : رفعه ، ويطلق فى العرف على مقدار طوله وارتفاعه وعلى السموك ؛ والسماك : النجم المعروف وهو سماكان : الأعزل والرامح ؛ والأواسى جمع آسية ؛ والوطد الثوابت جمع واطدة ؛ تقول وطد الشىء إذا ثبت ورسا ؛ والإزاحة : الإبعاد ؛ والحندس بالكسر : الظلمة والليل المظلم . أى وهذا الشيخ هو الذى أعاد وجه الدين أبيض مشرقا لاستقامته واستقامة أهله وتنوره بتنوير بصائر أهله ، وإلا فهو فى ذاته لايزال مستقيما ؛ فصار مبهجا يجد فيه كل موحد ما تقر به عينه ، وفى لفظ موحد مع ما قبله توجيه لاحتمال أن يراد به العام والخاص ؛ ولا شك أن الشيخ رضى الله عنه

قد نصبه الله تعالى قدوة للعام والخاص : وإماما فى الظاهر والباطن ، وأقام أيضا سمك بناء الدين عاليا به حتى علا على السماك ، وإنما أقامه على القواعد الثابتة بالعلم والسنة وتحقيق الإنابة والالتجاء إلى الله تعالى فى كل حال والتفويض والتسليم وغير ذلك ، وما ذكره من الوطد والبناء والأواسى كله استعارة لاتخفى وأزاح عن الدين أيضا كل ظلمة أو مظلم شبهة وضلالة وخلاعة وتشدد.

واعلم أن هذه الأربعة المذكورة فى البيت هى مجمع الشر ومنبع الزيغ والغى نسأل الله العافية . الأولى : اتباع الشهوات أو إلقاؤها فى الأصول والفروع ، وهذا أصل لكل ما بعده فى الجملة . والثانية : الضلالة وهى الخروج عن الحق إما مع استناد إلى شبهة وهو الجهل المركب ، أو بلا شىء وهو الجهل البسيط ، ويكون ذلك إما كفرا أو معصية وإما سوء أدب ، وهذا كله فى الباطن ، والظاهر تبع إما بمحرم أو مكروه من فعل أو ترك . والثالثة : الخلاعة وهى عدم المبالاة بالحق وإن كان معروفا . والرابعة : التشدد وهو الزيادة والغلوّ فوق القدر المحتاج ، والجميع ضلالة ، وبالسلامة منها كلها تحصل الاستقامة ويضمحلّ الهوى . ثم قال :

كَمْ سُنَّةٍ أحيَيْتَ بَعْدَ إماتَةٍ وَضَلالَةٍ أخْمَدْتَ بَعْدَ تَوقُّدِ

أى كم من سنة أحييتها بعد ما أماتها ذووالجهالات وتغلبت عليها العادات ، وكم من ضلالة أخمدتها وأذهبتها بعد ما توقدت نارها وظهرت آثارها ، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب . ثم قال :

وَافَيْتَ والبِدَعُ الحَوَادِثُ قَدْ دَجَتْ
ظُلُماتُهَا وَالجَهْلُ وَارَى الأزْنُدِ
والدّينِ مَطْمُوسُ المَعالِمِ والهُدَى بَيْضُ الأَنُوقِ وَلُقْطَةٌ لمْ تُنْشَدِ
والسُّنَّةُ الغَرَّاءُ قَفْرٌ مُوحِشٌ ما فِيهِ مِنْ هادٍ ولا مِنْ مُهْتَدِ

وافى : أتى وحضر ؛ وورى الزند يرى فهو وار : أخرج ناره ؛ والمطموس الممحوّ ؛ والمعالم : الآثار التى يهتدى بها ؛ والأنوق : الرخمة وبيضها يكون فى الشواهق فلا يوصل إليه فيضرب مثلا فى الشىء العزيز المنال ؛ واللقطة : المال الضائع ؛ وإنشادها : ذكرها ؛ والتعريف بها ونشدها : طلبها والسؤال

عنها : أى وافيت أيها الشيخ بأن ظهرت لهداية الخلق وإقامة الدين وتعليم الطالبين وتربية المريدين ، والحال أن البدع التى هى الحوادث فالوصف كاشف ، أو المحدثة التى لم يستحسنها السلف ومن تبعهم من الخلف وهى البدع المذمومة ؛ ولشرح البدعة وتفصيلها محلّ غير هذا ؛ قد دجت : أى اشتدت ظلماتها ، وما زالت البدعة والجهل تشبه بالظلمة ، لعدم الاهتداء معها إلى الخير وعدم السلامة من الضير كمن يمشى فى الظلمة ، والعلم والسنة يشبهان بالنور ؛ والجهل وارى الأزند : أى ظاهر قوىّ ؛ والدين مطموس المعالم لعدم أهله القائمين به المقتدى بهم فصار كالجهل الذى لاطريق فيه ، والهدى وهو الرشاد ظاهرا وباطنا بالانتفاء عن الجهل والغفلة والبدعة وغير ذلك أعز من بيض الأنوق فلا يكاد يوجد ، وهو أيضا كلقطة ليس لها معرِّف تؤخذ منه ولا طالب ترفع إليه ؛ والسنة التى كانت غراء فى زمن السلف الصالح مشهورة كشهرة الأغرّ بغرته هى اليوم قفر موحش خال ، ما فيه هاد يدل على الحق ، ولا مهتد يدين به أو يطلبه ،وكذا شأن الموضع الخالى. ثم قال :

نَشِبَتْ بِضَبْعَيْها مخالِبُ ضَيْغَمٍ ... مِنْ مأْلَفِ العادَاتِ عادٍ مُحْرَدِ
وَمحَا المِحاقُ بُدُورَها فتَكَنَّفَتْ ... مُقَلَ النُّهَى ظَلْماءُ لَيْلٍ سَرْمَدِ

نشب الشىء بالشىء : علق به ؛ والضبع : العضد،وقيل الإبط ؛ ومخالب السبع معروفة ؛ والضيغم : الأسد ؛ والعادى من العدوان ؛ والمحرد : الكثير الحرد وهو الغضب ؛ والمحاق : أن يستتر القمر فلا يطلع وذلك آخر الشهر لأنه يجتمع بالشمس فتمحق نوره : أى تمحوه وتذهبه ؛ وتكنفك الشىء : أحاط بك ؛ والمقل جمع مقلة ؛ والسرمد : الدائم والليل الطويل وهو المراد هنا أى نشب بضبعى السنة مخالب ضيغم من مألوف العادات فتغلب عليها ، فاضمحلت السنة وظهرت العادات ، وضيغم العادات كثير العدوان شديد الغضب لموافقته هوى النفس ودعوى شيطان الجن والإنس وإثبات الضيغم المفترس للعادات مجاز ، وكذا إثبات الضبع للسنة ، ومحا أيضا المحاق وهو انقراض العلم وأهله بآخر الزمان بدور السنة فيه تورية ، لأنه إما تخييل لبدور السنة ، أو المراد بالبدور أهلها الماضون . ثم قال :

وَعَفَتْ أعاصيرُ الهوَى آثارَها فاستُبْهِمَتْ عن ناشدٍ أو مُنْشِدِ

العفو : المحو ، تقول عفت الرياح الأثر إذا محته ؛ والأعاصير جمع إعصار وهو أقوى الريح ؛ والهوى : الحب والعشق وإرادة النفس . والمراد فى نحو هذا ميل القلب إلى ما هو حظ للنفس من غير مراعاة الشرع ؛ والناشد : الطالب والمنشد : المعرف : أى رياح الهوى محت آثار السنة ، فلم تظهر لمن يتعلمها . ثم قال :

واستَوْثَقَتْ أيْدِى الغَوَايَةِ والهوَى
بأزِمَّــةِ الألْبابِ شُلَّتْ مِنْ يُدِى

الغواية بفتح الغين ، يقال غوى بالفتح غيا وغوى بالكسر غواية ؛ والأزمة جمع زمام : وهو ما تقاد به الدابة ؛ والألباب : العقول ؛ والشلل : اليبس فى اليد أو ذهابها رأسا ، تقول شلت يده تشل بالفتح شلا وشللا ، وشلت بالضم وأشلت ؛ واليدى بضم الياء وكسرها جمع يد كعصا وعصى وفلس وفلوس . أى تمكنت أيدى الغواية والهوى بأزمة الألباب تقودها حيث شاءت واليد والزمام استعارة ، وشلت من يدى دعاء . ثم قال :

والعِلْمُ ضَاحٍ ظِلُّهُ وَصَدَى التُّقَى قَدْ صُمَّ والغَىُّ اعتَلَى بِمُجَنَّدِ

الضاحى : البارز للشمس ، وظله ضاح كناية عن ذهابه وعدمه ، لأن المعدوم لاظل له، فيلس إلا الشمس؛ والصدى . ما يسمع من الشواهق ونحوه يحكى صوتك ، ويقال صم صدى فلان ؛ واعتلى : استطال عليه وتطاول : أى العلم قد عدم فلم يبق له ظل ، والتقى كذلك ؛ والغىّ : أى الضلال قد ثار بجنوده . ثم قال :

فكَشَفْتَ جِلْبابَ الجَهالَةِ عَنْ سَنَا
بَدْرٍ لِسائِمَــةِ الضَّلالِ مُنَــدِّدِ

الجلباب : الذى تلبسه المرأة معروف ويستعار لما يغطى من جهل ونحوه ؛ والسنا بالقصر : الضوء ؛ والسائمة : الراعية ، وهو هنا استعارة للضلالات الفاشية فى الناس ؛ والمندد : المفرق ، وهذا البيت مرتب على قوله : وافيت الخ : أى جئت والبدعة طافحة والعقول إلى الغىّ جانحة ، فكشفت غطاء الجهالة ، فظهر منك بدر شتت الظلام . ثم قال :

بَلْ ضَوْءِ صُبْحٍ بَلْ نَهارٍ ناسِخٍ آياتُهُ لَيْلَ الشُّكُوكِ الزُّرَّدِ

الزرد : الحنق ، وهذا زارد وهم زرد : أى بل كشفت عن ضوء الصباح بل عن النهار المحض ، وهذا ترتيب حسن ، لأن ضوء البدر دون ضوء الفجر وضوء الفجر دون ضوء النهار ، أعنى عند طلوع الشمس والنهار ناسخ لليل والليل هنا الشكوك التى تخنق العقل وتضيق الصدر . ثم قال :

وَطَلَعْتَ فى فَلَكِ الهِدَايَةِ والتُّقَى بِجَلاءِ مَحْلٍ م الكَوَاكِبِ أَسْعَدِ

بِجَدًى عَمِيمٍ غائِثٍ بُقَعَ النُّهى والعِلْمُ لابُقَعَ السَّحَى والغَرْقَدِ

بِمُغَرِّبٍ وَمُشَرِّقٍ مُتَيَمِّنٍ مُتَشَائِمٍ مُتَكَوِّفٍ مُتَبَغْدِدِ

الجلاء بالكسر : الصقل ؛ والمحْل : الجدب ؛ والجدى: المطر العام ، فوصفه بعميم للمبالغة والتوكيد ؛ والغيث : المطر ؛ وغاث الأرض : أصابها ؛ والبقع جمع بقعة ؛ والنهى جمع نهية : وهى العقل ؛ والسحى والغرقد نوعان من الشجر ؛ وتيمن الرجل: أتى اليمن ؛ وتشاءم : أتى الشام ؛ وتكوف: انتسب إلى الكوفة أو تشبه بهم ، وتبغدد انتسب إلى بغداد أو تشبه بهم ؛ ودال بغداد تعجم وتهمل كما فى البيت وفيه لغات : أى طلعت أيها الشيخ فى الهداية والتقى وذلك فلكك الذى تكون فيه حركتك ويظهر سعدك وأثرك بجلاء محل : أى بكوكب هو جلاء للمحل : أى كاشف له ، والنعت بالمصدر مبالغة ، وهذا تجريد كما تقول لقيت بفلان بحرا وأسدا ، وقوله بجدى بدل اشتمال من جلاء لأن كون الكوكب جلاء للمحل أسعد إنما هو بما يصحبه من المطر فهو مفهوم عند ذكره ، ثم وصف هذا المطر بأنه عام وأنه يصيب بقع العقول فيهديها وبقع العلوم فيحييها ، وليس هو المطر الحسى الذى يصيب السحى والغرقد ، فإن هذا أشرف وأعلى ، ثم أبدل منه أيضا قوله بمغرب . يريد أن هذا المطر قد عم حتى وصل إلى المغرب والمشرق ثم وصل منه إلى اليمن وإلى الشام وإلى الكوفة وإلى بغداد ، وهذا كله عبارة عن كون مدد الشيخ ونفعه عم الناس وسار فى الأقطار ولا شك أنه كذلك فقد انتفع به أهل المغرب وأهل المشرق

وانتشرت أتباعه فى تلك الآفاق ، وذلك من فوائد ما حركه الله إليه من الحج كما سنذكره بعد إن شاء الله تعالى . ثم قال :

حَتَّى غَدَتْ سُنَنُ النَّبِيِّ المُصْطَفَى
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مِنْ هَادٍ هُدِى
عَذْبًا مَشَارِبُها زَوَاهِرَ نُضَّرًا   تُزْرِى بِرَوْضٍ فى الرُّبَى مُسْتَغْرِدِ
رَوْضٌ زَهَا نِسْرِينُهُ وَبَهَارُهُ   لَمَّا غَدَاهُ كُلُّ جَوْنٍ مِجْوَدِ
وَجَرَتْ مَذَانِبُهُ فأَصْبَحَ مُنْيَةً   لِلْوُرَّدِ العَذْبَ الرِّوَى والرُّوَّدِ

الهادى : الذى يهدى غيره إلى الخير ؛ والمهدى الذى هداه الله تعالى بأن جعل الهدى فى قلبه ، والنبى صلى الله عليه وسلم هاد مهدى ، وذلك هو الكمال ؛ والمستغرد من الرياض : الناعم كأنه يدعو بنغمته الطير إلى أن تغرد فيه ؛ والنسرين والبهار نبتان معروفان ؛ وغدته السحابة جاءته غدوة ، ويقال غاداه أيضا ، وفى نسخة : لما سقاه وهو ظاهر ؛ والجون : السحاب الأسود من كثرة الماء ، ويكون الجون أيضا بمعنى الأبيض ؛ والمجود بكسر الميم مفعل من جاده الغيث يجوده ؛ والمذانب : مسايل الماء إلى الأرض وجداول تجرى إلى الحوض ونحوه جمع مذنب بكسر الميم كمنبر ؛ والمنية : ما يتمنى الإنسان ؛ والورّد جمع وارد ؛ والروى بكسر الراء : أى المروى ، يقال ماء روى : مرو ؛ والرود جمع رائد وهو طالب الكلأ . أى طلعت بالنجم السعيد والنفع العام للقريب والبعيد حتى غدت سنة النبى صلى الله عليه وسلم من نبى هداه الله وهدى به ، عذبة المشارب زاهرة ناضرة تشرف وتفضل على روض الربى الناعم روضا صفته ما ذكر من الابتهاج والحسن وكثرة النعمة وجريان الماء حتى أصبح منية لطالب الماء العذب ولطالب الكلأ الرطب . فان قلت كان الأولى بالترتيب تقديم المهدى على الهادى . قلت : ذلك بحسب الوجود الخارجى ، والمراد فى هذا شىء آخر ، وهو النظر إلى كون المتصدى للهداية مهديا لادجالا ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم لجرير « اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا » لأن الكلام فى الهادى وأنه إما مهدى أوغير مهدى لافى المهدى ، وأنه إما هاد أوغير هاد فافهم ، مع أن الهادى محتاج إلى الاهتداء فى هدايته أيضا . ثم قال :

وَمَنَحْتَ إحْياءَ الهِدَايَةِ مُوضِحا مِنْهاجَها لِلسَّالِكِ المُتَعَبِّدِ
وَفَتَحْتَ مُغْلَقَ سُبْلِها وَسَدَدْتَ عَنْ
هَا ثَغْرَ لَبْسٍ م الهَوَى لَمْ يُسْدَدِ
وَحَمَيْتَها مِنْ كُلِّ سارٍ سارِقٍ
وَفَكَكْتَ عَنْها الغُلَّ عَنْ هادِ الهَدِى
حَتَّى وَضَعْتَ بِها عَلَى مُحْتاجِها تاجَ السَّنا وَزَفَفْتَها زَفَّ الهَدِى

أي ومنحت الناس إحياء الهداية بأن أجرى الله تعالى إحياءها على يديك حالة كونك موضحا منهاجها : أي طريقها الواضح لكل سالك طريق الدين أو طريق الآخرة أو طريق الخصوصية ، وهو المراد عند العرف متعبدا لله تعالى ، وفتحت المغلق على الناس من سبلها ، وسددت عنها : أي عن الهداية كل ثغر ، وهو في الأصل موضع المخافة بيننا وبين العدو . والمراد مداخل اللبس والوسواس والابتداع مما لم يكن مسدودا قبل وجودك ، وحميتها : أي حفظتها ومنعتها من كل سار بالليل سارق ، وهو هنا شيطان الجن والإنس والهوى والنفس ، والليل ليل الجهل والغرة والغفلة والشهوات ، ففي هذه الظلم يجد الشيطان والنفس مجالا إلى العقل ، وفككت منها الغلّ : وهو ما يجعل في العنق عن هادى الهدى : أي عنق الأسير حتى وضعت بها : أي بالهداية على محتاجها من المريدين وأهل الدين تاج السنا : أي تاجا من النور وزففتها إلى أربابها زف الهدى : أي العروس مجلاة مزينة محفوفة بالبر والاحتفال بارعة البهاء والجمال وهذه كلها مجازات ، والمراد القيام بالسنة وإخماد البدعة وذلك شأنه . ثم قال :

فَهَزَزْتَ عِطْفَيْ كُلِّ بَرٍّ سالِكٍ وَمَدَدْتَ مِنْ ضَبْعَيْهِ مالم يُمْدَدِ
حَتَّى أقَمْتَ بالاسْتِقامَةِ قامَةَ الـ ـتَقْوَى مُثَقِّفَ ما بِها مِنْ أوَدِ
وَجَلَوْتَ عَنْ حُجُبِ السِّرارِ هِلالَها
أعْدَدْتَهُ بَدْرًا يَلُوحُ لِمُقْتَدِ

العطف بكسر العين : الجانب . وعطفا كل شيء : جانباه . وعطفا الرجل جانباه من رأسه إلى قدمه . واستهزاز العطف مثل في النشاط أو السرور أو الارتياح أو نحوه . قال تأبط شرا :

أهز به فى قدوة الحر عطفه   كما هز عطفى بالهجان الأوارك

والضبع تقدم ؛ ومد الضبع : مثل أيضا فى الإعانة والإنجاد ؛ وتثقيف العود والرمح ونحوه تسويته ؛ والآود بمد الهمزة : المعوج ، يقال أود بالكسر أودا فهو آود ؛ وجلا الشىء يجلوه : كشفه وصقله ؛ والسرار بكسر السين وفتحها آخر ليلة من الشهر : أى فهززت عطف كل بر : أى مطيع لله تعالى سالك طريقه بما يثبت من الحق ونشرت من العلم وأقمت من الدين منجدا له ومعينا بما أفدت وما علمت وما ربيت حتى أقمت باستقامة من اقتفى أثرك قامة التقوى مسويا لما فيها من معوجٍ على غيرك مما لم يوفق لمجاهدة نفسه وعلمه حاله وإثبات القامة والاعوجاج استعارة تخييلية بعد الاستعارة فى التقوى بالكناية عن الشخص وكشفت عن حجب السرار هلالها فرددته بدرا كاملا ، لأنها كانت اضمحلت وخفيت كالهلال فى آخر الشهر فجردتها وأظهرتها . ثم قال :

أَنْتَ الَّذِى جارَيْتَ أَرْبابَ النُّهى   فَسَبَقْتَهُمْ سَبْقَ الجَوادِ المُجْوِدِ
أَنْتَ الَّذِى قَرْطَسْتَ لَمَّا أَخْصَلُوا   وَفَلَجْتَ عَنْهُمْ بالمُعَلَّى الأَسْوَدِ

الجواد من الخيل : البارع ، يقال جاد الفرس جودة بالضم فهو جواد ، وجاد فى عدوه وأجود وجوّد ؛ وقرطس الرامى : أصاب القرطاس ، وهو كل ما ينصب للرمى ؛ والإخصال قيل : هو الإصابة أيضا ، وقيل أن يلزق فقط ولذلك يعد خصلان مقرطسة عند أهل النضال ، وعلى هذا جرى فى البيت ؛ وفلج الرجل يفلج : ظفر وفاز فلجا والاسم الفلج بالضم : والمعلى : السهم السابع من سهام الميسر وهو أعظمها نصيبا ؛ والأسود : السهم المبارك يتيمن به ؛ وكأنه أسودّ من كثرة ما مسته الأيدى . أى أنت الذى جاريت أهل النهى إلى الفضائل والكمالات فسبقتهم كما يسبق الجواد المعلى فى الحلبة وغيره وأنت أصبت فى الأغراض مالم يصيبوا ، وفزت من الحظ الأوفر بما لم يفوزوا . ثم قال :

وَعَبَرْتَ مِنْ لُجَجِ المَعارِفِ لُجَّةً   وَقَفَتْ بِساحِلِها فُحُولُ الوُرَّدِ
وكَرَعْتَ غَيْرَ مُزَاحِمٍ بِحِياضِها   فَوَرَدْتَ مِنْها كُلَّ عَذْبِ المَوْرِدِ
وَقَطَفْتَ مِنْها كُلَّ نَوْرٍ زَاهِرٍ   وَهَصَرْتَ مِنْها كُلَّ غُصْنٍ مُؤْتَدَ

وَحَلَلْتَ مِنْهَا كُلَّ رَبْعٍ مُرْحَبٍ
وأَسَمْتَ سَرْحَكَ كُلَّ رَوْضٍ أَغْيَدِ
وَرَكِبْتَ مِنْهَا كُلَّ وَجْنَا عِرْمِسٍ
وَحَلَبْتَ مِنْهَا كُلَّ مُشْكِرٍ صِمْرِدِ
وَحَلِيتَ مِنْهَا بالثَّمِينِ المُنْتَقَى وَلَبِسْتَ مِنْهَا كُلَّ فَضْفَاضٍ يَدِ

أى قطعت وتجاوزت من لجج المعارف لجة: وهى معظم الماء ، ووقفت بساحل هذه اللجة فحول الواردين من السالكين والمتعلمين فلم يدخلوها عجزا فضلا عن أن يعبروها وكرعت فى حياضها ؛ والكرع : هو الشرب بالفم ، وهو أنفع ؛ غير مزاحم لانفرادك بهذه المرتبة ، فوردت من حياضها كل عذب المورد ، وقطفت من المعارف أيضا كل نور بفتح النون ، وهو الزهر زاهر : أى ناضر حسن ، وهصرت منها أيضا كل غصن مؤتد : أى ناعم الثمرة ، يقال أدت الثمرة تأدوا أدوا على فعول إذا أينعت ونضجت ، وحللت أيضا من المعارف كل ربع مرحب : أى واسع ، يقال رحب المكان وأرحب إذا اتسع ؛ وأسمت سرحك : أى رعيت سارحتك فى كل روض أغيد : أى ناعم ، وركبت من المعارف أيضا كل ناقة ؛ وجنا بالقصر للوزن : وهى العظيمة الوجنتين كما مر ؛ عرمس : أى شديدة ؛ وحلبت من المعارف أيضا كل مشكر صمرد بالإضافة : أى كل ضرع مشكر : أى ملآن باللبن من ناقة صمرد بكسرتين : أى غزيرة اللبن ، يقال أشكر الضرع إذا امتلأ ؛ والصمرد : الغزيرة وتستعمل أيضا بمعنى القليلة اللبن على الضد ، وإشكار الضرع فى البيت يدل على المعنى الأول مع سياق المديح ، ولو أريد الثانى أيضا لصح على معنى أنه نال الرغائب من حيث لاتحتسب ، وذلك أغرب وأعجب ؛ وحليت أيضا من المعارف وهو بكسر اللام ، يقال حلى بكذا وتحلى به : بالثمين : أى العظيم الثمن ؛ المنتقى : أى المختار ؛ ولبست من المعارف كل ثوب فضفاض : أى واسع ؛ يد : أى واسع ، وهو توكيد ومبالغة ، يقال ثوب أدى ويدى على مثال غنى : أى واسع . ثم قال :

وَفَتَحْتَ أَصْدَافَ المَكَارِمِ لِلْوَرَى وَجَمَعْتَ أَصْنَافَ السُّلُوكِ الأَقْصَدِ
وَرَكِبْتَ أَكْتَافَ المَجَادَةِ لِلْعُلَى وَمُنِحْتَ أَعْرَافَ العُلُومِ الشُّرَّدِ

وَنجَعْتَ أكْنافَ المَعالى مُخْصِبا ومَرَيْتَ أخْلافَ الرِّغابِ المُجـد

الأصداف جمع صدف بفتحتين : وهو غشاء الدر ؛ والأقصد : الأعدل من القصد وهو العدل ؛ والأعراف جمع عرف بضم العين : وهو شعر عنق الفرس والشرد جمع شارد : وهو الهارب ؛ ونجعت بلد كذا : قصدته لطلب الغيث والكلأ ؛ والأكناف جمع كنف بفتحتين : : وهو الجهة ؛ وأخصب الرجل وقع فى الخصب ؛ ومرى الضرع يمريه مسحه ليدرّ ؛ والأخلاف جمع خلف : وهو جملة ضرع الناقة ، وقيل هو للناقة بمنزلة الضرع للشاة ؛ والرغاب جمع رغيبة : وهى الأمر المرغوب فيه ؛ والرغيبة أيضا : العطاء الكثير ؛ والمجد : جمع ماجدة ، وهو من قولك مجدت الإبل مجدا إذا وقعت فى المرعى الكثير ، فلما نسب الأخلاف إلى الرغاب جعلها ماجدة ، وبذلك تكون أغزر درًّا ، وهذه كلها مبالغات واستعارات بالكناية ؛ وبجعل المكارم درا : إذا فتحت أصدافه ؛ والمجادة شخصا إذا ركب كتفه استوى عليه ؛ والعلوم خيلا : إذا مسكت أعرافها قبضت ؛ والمعالى : جهات من الأرض ؛ من انتجع أكنافها : وجد الخصب ؛ والرغاب : نوق تستدر أخلافها ، وفى الأبيات السجع الذى ذكرته قبل ، ولو شئت أن تستخلصه لقلت فلان فتح الأصداف وجمع الأصناف وركب الأكتاف ومنح الأعراف ونجع الأكناف ومرى الأخلاف؛ ثم قال :

ما زلْتَ تمتَحِنُ اللّيالى خارِقا جِلْبابَها المَسْدُولَ فَوْقَ الهُجَّدِ
وَمُسَهِّدًا مِنْها عُيُونا طالَمَا كَرِيَتْ وَما مُنِيَتْ بِرَيْبِ مُسَهِّدِ
حتّى حَبَتْكَ سَعادَةَ الدّارَيْنِ فى عِزِّ الجَنابِ وَكِيمِياءَ السُّودَدِ

الامتحان : الاختبار ؛ والهجد جمع هاجد : وهو النائم ؛ وكرى بالكسر يكرى : نعس ؛ ومنى بكذا كعنى : ابتلى به ؛ والريب : صرف الدهر ؛ والكيمياء بكسر الكاف والمد معروف : أى ما زلت تمتحن الليالى بالذكر والفكر وأنواع العبادات حالة كونك خارقا جلباب الظلام بقيامك وهو مسدول فوق النائمين لأنه يغطيهم ، وحالة كونك مسهدا عيون الليالى التى طالما نعست وما ابتليت بمسهد يسهدها ، وهذا مجاز كقولهم : أظمأت نهارى وأسهدت ليلى : أى أظمأت نفسى وأسهدت نفسى فى النهار وفى الليل ، ونهاره

صائم وليله قائم حتى حبتك الليالى : أى أعطتك سعادة الدنيا والآخرة بالمعرفة والاستقامة وفيهما النجاة دنيا وأخرى ، وبذلك يحصل السودد عند الله تعالى قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وإسناد ذلك إلى الليالى مجاز أيضا ، وفيه توهم لطيف ، وأنه كمن يمتحن شخصا ليدفع مالا أو يخرج كنزا فنال ذلك . ثم قال :

فَلْيَهْنِكَ المَجْدُ الَّذِى ما فَوْقَهُ ... فى الدَّهْرِ من مَرْقًى يُرَامُ وَمَصْعَدِ

ولِيَهْنِكَ الكَنْزُ الَّذِى ظَفِرَتْ بِهِ ... قِدْمًا فَحُولُ العارِفِينَ الزُّهَّدِ

كَنْزٌ مَتَى ظَفِرَتْ بِهِ كَفُّ الفَتَى ... لَمْ يَفْتَقِرْ لِمَزَادَةٍ أَوْ مِزْوَدِ

يهنك مضارع هنا ، يقال هنأنى الطعام يهنؤنى ويهنأنى ، والهنىء : كل ما لاتعب معه ولا مشقة ؛ والمزادة : الراوية التى يكون فيها الماء وألفها منقلبة عن ياء من زاد يزيد ؛ والمزود : وعاء الزاد . أى لتهنأ بالمجد الذى ليس فوقه مرقى يرام ولا مصعد ، وهذا مبالغة أو تحقيق بإرادة جنس ذلك الكمال لا القدر الحاصل منه ؛ وبالكنز الذى ظفرت به قدما : أى فيما مضى فحول العارفين الزاهدين كنز متى ظفر به العبد أنفق من الكون حسا ومعنى ولم يفتقر لمزادة ولا مزود ، فيغترف العلوم من بحار المواهب ، وتأتيه الأرزاق من حيث لايحتسب . ثم قال :

قُلْ لِلْمُحاوِلِ شأْوَهُ أَقْصِرْ فقدْ ... حاوَلْتَ إمْساكَ الثُّرَيَّا بالْيَدِ

وَتَجَشَّمْتَ مَيْدانَ الرِّهانِ مُجارِيا ... بِخَرِيعِ أُتْنٍ كُلَّ نَهْدٍ أجْرَدِ

حاول الشىء : رامه حوالا ومحاولة والاسم الحويل ؛ والشأو : السبق والغاية ، وشاواه : سابقه ؛ وأقصر عن الشىء : تركه أو عجز عنه ؛ والثريا فعيلا من الثروة : وهى الكثرة ، سمى به النجم لكثرة كواكبه ؛ وجشم الشىء بالكسر وتجشمه : تكلفه بمشقة ؛ والميدان بفتح الميم وقد تكسر : مجرى الخيل وزنه فعلان لافيعال ؛ والرهان جمع رهن ، ويكون أيضا مصدر راهنه رهانا ومراهنة ؛ والمجاراة : المغالبة فى الجرى ؛ والأتن جمع أتان للأنثى من

الحمر ؛ والخريع : الضعيفة ؛ والنهد من الخيل : الحسن الجسم المشرق ؛ والأجرد: القصير الشعر؛ أى قل أيها المخاطب لمن يروم أن يسابق هذا الممدوح فى الفضائل ، أو من يروم أن يبلغ الغاية التى بلغها فى الفضل أقصر عن ذلك فإنك لاتستطيعه ، وإنما أنت فى تعاطى ذلك بمثابة من يمد يده إلى السماء ليمسك الثريا بيده ، أو يركب أتانا ضعيفة مسترخية ليسابق بها جياد الخيل ، وناهيك بذلك سخفا وحمقا .

إن سالموك فدعهمو من هذه وارقد كفى لك بالرقاد نعيما

ثم قال :

لاتغْرُرَنْكَ أناتُــهُ فَقَنَاتُهُ فى الله لَيْسَتْ تُسْتَلانُ بِمَلْهَدِ
وَتَواضُعٌ مِنْــهُ فإنَّ كَمالَهُ عَنْقاءُ وَهْىَ مَتَى تُرَمْ لَمْ تُصْطَدِ
وَلَيانُهُ فَمَنالُهُ فَوْتُ المُــنَى وَمَنِ اقْتَضَى ما ليس يُدرَكُ يُفْنَدِ
واحْسُدْهُ فَهْوَ عَلَى عَلاهُ شاهِدٌ إنَّ الكِرَامَ مَظِنَّــةٌ للْحُسَّدِ

الأناة : الحلم والوقار ، أصله أنية كقصبة فقلبت الياء ألفا ؛ والقناة : الرمح ؛ واستلان الشيء : عده لينا أو وجده كذلك ؛ والملهد مفعل من اللهد: وهو الدفع ؛والغمز ؛والعنقاء تقدم ما فيه ؛ والليان : الملاينة يقال لاينه ملاينة وليانا إذا لان ، يقول : لايغررنك ما ترى من هذا الشيخ من الحلم لجليسه فتظن به ضعفا ، فإنه شديد فى ذات الله وفى غاية من الصلابة فى دينه ، لايوجد فيه مغمز كالقناة الصلبة التى لاتلين لغامز والكلام تمثيل ، ولا يغررك أيضا ما ترى من تواضعه فتظن به نقصا فإن كماله لاتدركه ، كما أن العنقاء لايدرك باصطياد ، ولا يغررنك أيضا لينه ورفقه ، فتظن أنك تدركه وتنال درجته ، فإن ذلك يفيت تمنيك وطمعك ، ومن طلب ما لايدرك يخطأ فى رأيه ويستحمق فى عقله ، واحسده إن شئت على ذلك ، فانك لاتزيده إلا كمالا ، ولا يكون ذلك إلا شاهدا على عظيم فضل الله عليه ، وأى كريم لم يحسد كما قال الشاعر :

إن يحسدونى فإنى غــير لائمهم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا

وقال أبو الطيب :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

ثم قال :

بِسَنَاهُ عَيْنُكَ أُعْشِيَتْ وَسَنَائِهِ   وَالشَّمْسُ باهِرَةٌ لِعَيْنِ الأَرْمَدِ
وَالمَاءُ يُنْكِرُهُ السَّقِيمُ وَقَدْ حَلَا   وَيُمَرُّ فِى فِيهِ الطَّعامُ وَقَدْ قَدِى

السنا بالقصر : الضوء ، وبالمد : الرفعة ؛ والعشا والعشاوة : سوء البصر ، يقال عشى بالكسر عشى فهوأعشى ، وبهره الشيء : غلبه ، ومرّ الشيء يمرّ بالفتح مرارة ، وقد الطعام بالكسر : طاب طعمه وريحه : يقول : بأنوار هذا الممدوح وجلالة قدره غطى على بصر بصيرتك فلم تر فضله ، كما أن من أصابه الرمد يغلبه ضوء الشمس ولا يقدر أن يراها ، وكذا من به المرض لايدرك حلاوة الماء ولا حلاوة الطعام وإن كانا طيبين . ثم قال :

فَهُوَ الوَحِيدُ وَمَنْ يَكُنْ فِى دَهْرِهِ
لَمْ يَلْقَــهُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يُوجَــدِ
فَرْدٌ وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فانْتَفَى   جَمْعٌ وَتَثْنِيَةٌ لِهَذَا المُفْرَدِ

يقال رجل وحيد وواحد ووحد بالفتح واحد ومتوحد : منفرد . يقول : إن الممدوح هو واحد وقته المنفرد فيه بفضله ، فمن لم يلقه ويأخذ عنه وينتفع به من أهل زمانه فكأنه لم يوجد ، فإن من لاخير عنده ولا غناء له كالمعدوم ، ومن كلام العرب فى هذا : مررت برجل سواء والعدم : أى مستو هو والعدم لا للناس ولا لنفسه ، وهو أيضا فرد لايوجد له نظير فى فضله ، ومثل هذا لايثنى ولا يجمع ، لأن شرط ذلك وجود النظير كما علم فى العربية . واعلم أن هذا المعنى كان افتتحه جرير حين قال :

إذا غضبت عليك بنو تميم   وجدت الناس كلهم غضابا

فتجاذبه الناس بعد ذلك ، فقال أبو نواس وأبلغ :

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

وقال السلامى :

فبشرت آمالى بملك هو الورى   ودار هى الدنيا ويوم هو الدهر

وقال الآخر :

لو زرته لوجدت الناس فى رجل   والدهر فى ساعة والأرض فى دار

وقال البوصيرى رحمه الله تعالى :

فجوهر الحسن فيه غير منقسم

وقد حسنه بما فيه من الاقتباس من علم الكلام ، كما أن فى البيت أيضا محسنة بالاقتباس من علم النحو . ثم قال :

فانِ اشْرأبَّ إلى الهِــدَايَةِ غَــيْرُهُ
فالمِسْكُ الأَذْفَرُ لَيْسَ كالمِسْكِ الكَدِ
والعَذْبُ يَغْزُرُ بالحِياضِ ولَم يَرِدْ ماءٌ كَصَدَّا خِلْتَ مِنْ مُتَوَرِّدِ
والخِصْبُ يَكْثُرُ بالعِرَاضِ ولَمْ يَرُدْ
كالثَّغْــرِ والسَّعْــدَانِ مِنْ مُتَرَوِّدِ
وعُبابُ دَجْلَةَ لَيْسَ كالبَرَضِ الَّذِي
ثَمِــدٌ صَرَاهُ ولا البَوَاسِقُ كالوُدِ
وبَنَاتُ أعْوَجَ لأُتجارِيها الغُرَى وكَذَا البُرَاةُ خِلافُ عِقْدِ عِقْدِ
والنَّارُ فى الأشْجارِ لَكِنْ ما بِهَا كَعَفارِها والمَرْخِ مِنْ مُسْتَمْجِدِ
وشَبا الرُدَيْنِيَّاتِ غَيْرُ زِجاجِها وذَوَائِبُ الهَضَبَاتِ غَيْرُ الأَوْهَدِ
وذَوُو الغِناءِ لَهُمْ مَحاسِنُ جَمَّةٌ لَكِنَّما قَصَبُ السِّباقِ لِمَعْبَدِ
والشَّمْسُ فى كَبِدِ السَّماءِ سَمَا بِهَا بادى السَّنَاءِ فُوَيْقَ كُلِّ مُكَبَّدِ

يقال اشرأب إلى الأمر : إذا مدّ إليه عنقه لينظر أو ارتفع ؛ والأذفر من المسك القوىّ الرائحة ؛ والكدى : الذى لارائحة له ؛ وغزر الماء بالضم : كثر ؛ والحياض جمع حوض ؛ وصداء كخلخال ؛ ويقال صداء ككتان : عين أو ركية فى بلاد العرب ما عندهم أعذب منها ، ومنه المثل « ماء ولا كصدّاء » والعراض جمع عرض بالكسر : وهو الوادى ، والثغر بالفتح ؛ والسعدان : نبتان من أفضل ما يرعى ، ومنه المثل « مرعى ولا كالسعدان » والمرخ والعفار : شجرتان يقتدح منهما النار ، ومنه المثل « فى كل شجرة نار واستمجد المرخ والعفار » : أى فاقا فى ذلك غيرهما ؛ وشباة الرمح : طرفه الذى يطعن به ؛ والزج : الطرف الأخير ؛ والردينيات : نسبة إلى ردينة وهى امرأة سمهر وكلاهما كان يصنع الرماح ويثقفها فيقال سمهرية وردينية ؛ وتجلب من الخط : بلد بالساحل فيقال خطية ؛ والهضبة : الكدية ؛ وذوائبها أعلاها ؛ والأوهد جمع وهد : المنخفض من الأرض ؛ ومعبد : المغنى المشهور ؛ وبادى السناء :

الارتفاع الظاهر ، ويقال كبد النجم تكبيدا حل كبد السماء : أى وسطها فى مرأى العين . يقول : إن تصدى أحد من أهل وقته لأن يكون قدوة ومربيا للسالكين فليس يبلغ مبلغه ولا يقاربه ؛ ثم ضرب سبعة أمثال ، وهى أن المسك المنقطع الرائحة وإن سمى مسكا لايقوم مقام الفائح ؛ والمياه وإن غزرت وحلت لايرد وارد منها مثل ماء صداء ؛ والخصب وإن كثر لايرود رائد منه مثل السعدان والثغر ، ولا يخفى مافى صدرى البيتين من الترصيع ؛ والأشجار وإن صلحت لايقتدح منها الناس كالعفار والمرخ ؛ وليست عالية الرمح كزجه كما قال الصلتان :

وما يستوى صدر القناة وزجُّها ولا تستوى فى الكف منك الأصابع

وكذا الوهاد لاتبلغ مبلغ القنن ؛ والمغنون لايبلغون مبلغ معبد ؛ والنجوم ولو توسطت السماء لاتبلغ مبلغ الشمس . ثم قال :

وَرِثَ الإمامَ الشَّاذِلىَّ طَرِيقَهُ وَاللَّيْثُ يَسْرِى سِرُّهُ للْفُرْهُدِ
سَنَنٌ تَهادَتْهُ مَشايِخُ قادَةٌ لِطَوَالِعِ الزُّهْرِ الدَّرَارِى الْوُقَّدِ
أَعْظِمْ بأعْلَامِ الهُدَى الطُّلَّاعِ فى سُبُلِ المَفازِ المُرْشِدِينَ الرُّشَّدِ
التَّائِبِينَ العابِدِينَ لِرَبِّهِمْ وَالْقانِتِينَ الرَّاكِعِينَ السُّجَّدِ
والسَّائِحِينَ الحافِظِينَ حُدُودَهُ والآمِرِينَ بِهَا النُّهَاةِ العُبَّدِ
كُلٌّ لَهُ ضَرْبٌ بِقِدْحٍ فالِجٍ فِيها وحَمْلٌ بالحَدِيثِ المُسْنَدِ
شَرَفٌ يُطَرِّزُ بالنُّجومِ ويَسْتَمِى فَوْقَ السِّماكِ عَلَى مُرُورِ المُسْنَدِ
يَهْدِى بِهَا هادٍ رَشِيدٌ بَعْدَمَا هادٍ وَيَحْمِلُ سَيِّدٌ عَنْ سَيِّدِ
حَتَّى تَنَاهَى لابْنِ ناصِرِ الرِّضا بَيْتِ القَصِيدِ وَوَاسِطِ المُتَقَلَّدِ

الإمام الشاذلى : هو الشيخ أبو الحسن على بن عبد الجبار الشريف الزرويلى ، ونسب إلى شاذلة لأنه كان يتعبد فيها ، وليس منها كما توهم صاحب القاموس ؛ والفرهد : ولد الأسد ؛ والسنن : الطريق ؛ ومعنى تهادته : يهديه بعضهم إلى بعض من الهدية ، ومنها « تهادوا تحابوا » أو يهدى بعضهم إليه من الهدى ، يقال هديته الطريق ؛ والقادة جمع قائد : وهو القدوة ؛ والزهر جمع أزهر : وهو المشرف المنير ؛ والدرارى جمع درى : النجوم ؛ والوقد جمع واقد : وهو

الشديد الإضاءة كأنما يشعل ؛ والمفاز جمع مفازة : وهى الفلاة المهلكة ، سميت بذلك على التفاؤل كما سمى اللديغ سليما ، ويجوز أن يكون بمعنى الفوز فيكون موجها لمعنيين ؛ والنهاة جمع ناه ، وجمع فى البيتين الأوصاف المذكورة فى قوله تعالى ـ التائبون العابدون ـ الخ ؛ والقدح بالكسر : السهم ؛ والفالج : الظافر ؛ والمسند فى الأصل المذكور سنده : وهو عدد رواته إلى أصله ؛ والطراز : علم الثوب ، وطرزه تطريزا : أعلمه به ؛ والاسما والسمو : العلو والسماك : نجمان وهما الأعزل والرامح ؛ والمسند : الدهر ، وبينه وبين الأول جناس تام ؛ وبيت القصيد : وهو البيت المختار من القصيد ، يستعار للرجل يكون كذلك ؛ والواسط : المتوسط من الجوهر فى القلادة وهو خياره ، ويقال للجوهرة منه واسطة القلادة ، ثم يستعار للمختار من الناس . يقول : إن هذا الشيخ قد ورث الإمام الشاذلى طريقه المحمود وانتصب طريقه على المفعول الثانى إن عدى ورث إلى مفعولين ، وإلا فبدل اشتمال من الإمام أو على إسقاط الخافض فى الإمام : أى ورث عنه طريقه وسرى إليه سره كما يسرى سر الليث من الشهامة والجراءة إلى ولده ؛ ثم بين طريقه وقال : هو سنن أى طريق تهادته المشايخ أهل الطريقة بعده كلهم يهدى ويقتدى كما يهتدى بالنجوم الزاهرة ، وفيه الإشارة إلى تكافئهم فى الفضل كما قيل :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم　　　مثل النجوم التى يسرى بها السارى

ثم استأنف أيضا فقال : أعظم بأعلام الهدى : أى ما أعظمهم علما ودينا وشبههم بالأعلام : أى الجبال العالية الطالعة فى أفق المفاوز البعيدة الصعبة التى لايسلكها إلا الخريت الماهر وهو العارف الطريق جدا ، وما ذلك إلا أن طريق الحق والتحقيق صعبة أو الطالعة فى طرق الفوز والفلاح ، وجعلهم مرشدين راشدين ، وقدم الرشد لأن الحديث فى كونهم مشايخ ، فالواجب وصفهم بالإرشاد ، ثم ليس كل مرشد رشيدا فوصفهم بالراشدين ، ولو كان الحديث فى الراشدين لقدم ؛ وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم فى جرير « واجعله هاديا مهديا » فقدم الهادى لأن الحديث فيه فافهم ، ثم وصفهم بالأوصاف المذكورة ، لأنهم القائمون بتلك المقامات على وجهها ، ثم قال : إن كلا منهم يضرب بقدح فالج : أى فى الطريق المذكورة : أى كل له حظ

وافر منها ذوقا وتحقيقا ، والحمل بالحديث المسند إما أن يكون صريحا نظرا إلى ما يسمع بعضهم من بعض من وظائفها وآدابها وغير ذلك من العلوم ، أو تمثيلا نظرا إلى ما يسرى من بعضهم إلى بعض من الأسرار والأنوار ، ثم قال : كل له : أى ما اختلطوا به واتصلوا وقاموا به شرف يطرز بالنجوم ويعلو فوقها على مرور الزمان وفى الدنيا والآخرة ، ولم يزل أولئك المشايخ يهدون الخلق هاديا بعد هاد ، ويحمل منهم سيد يلجأ إليه فى الطريقة عن سيد مثله ، منشدا بلسان حاله :

أهيم بسعدى ما حييت وإن أمت　　أوكلّ بسعدى من يهيم بها بعدى

وقال الأعرابى :

وإذا فلان مات عن أكرومة　　وقعوا معاوز فقــده بفلان

إلى أن انتهى ذلك للإمام ابن ناصر الرضا : أى المرضى وجعله بيت القصيد وواسطة القلادة اعتبارا بنظر المادح وقياما بما يقتضيه المدح من المبالغة ولأنه المقصود بالذكر ، وقد أشار فى الأبيات إلى سند الطريقة فلنذكره باختصار فان فى اتباعه طولا فنقول : أخذ الشيخ بن ناصر ، عن الشيخ عبد الله بن حسين الرومى ، عن الشيخ أحمد بن على الحاجى عن شيخ المشايخ أبى القاسم الغازى ، عن الشيخ على بن عبد الله السجاسى ، عن الشيخ أحمد ابن يوسف الراشدى المليانى دارا ، عن الشيخ أحمد زروق البرنسى ، عن الشيخ أحمد بن عقبة اليمانى الحضرمى ، عن الشيخ الشريف القادرى ، عن الشيخ على بن وفا ، عن الشيخ محمد وفا والده ، عن الشيخ داود الباخلى ، عن الشيخ أحمد بن عطاء الله ، عن الشيخ أبى العباس المرسى ، عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، عن الشيخ عبد السلام بن مشيش ، عن الشيخ عبد الرحمن المزنى ، عن الشيخ أبى مدين ، عن الشيخ على بن حرزهم ، عن الشيخ أبى يعزى يلنور ، عن الإمام أبى بكر بن العربى المعافرى ، عن الإمام أبى حامد الغزالى ، عن الإمام أبى محمد الجوينى ، عن الشيخ أبى طالب المكى ، عن الشيخ الجوبرى ، عن الشيخ أبى القاسم الجنيد ، عن الشيخ السرى السقطى ، عن الشيخ معروف بن فيروز الكرخى ، عن الشيخ داود الطائى ، عن الشيخ حبيب العجمى ، عن الإمام الحسن بن أبى الحسن البصرى ،

عن أمير المؤمنين باب مدينة العلم أبى الحسن على بن أبى طالب كرم الله وجهه فهذه سلسلة مشهورة وهى سلسلة العلماء ، ولهم سلسلة أخرى تعرف بسلسلة الأقطاب معروفة فى كتبنا لاحاجة إلى التطويل بها هنا . وفى الأبيات أيضا الإشارة إلى صفة القدوة من كونه راشدا مرشدا محرزا لتلك المقامات وشرح ذلك يطول . ثم قال :

فأضَاءَ مِنْ مِصْبَاحِهِمْ مِصْبَاحُهُ والفَرْعُ يزْكُو عِنْدَ طيبِ المَحْتِدِ
وكأنَّما ذاكَ العُبابُ قَدِ انْتَهى لِأجَلِّ تَنْهِيَةٍ وأطْيَبِ مِقْلَدِ
فكَسَا الحقِيقَةَ بالشَّرِيعَةِ فاجْتَلَى
حَسْناءَ تَرْفُلُ فى شُفُوفِ الأبْرُدِ

المحتد : الأصل ، ويقال حتد بالمكان : أقام به ؛ والعباب : معظم السيل ؛ والتنهية : حيث ينتهى السيل من الحوض مثلا ؛ والمقلد : مجمع الماء ؛ الشريعة : ما يرجع من التكليف والأمر والنهى والإباحة ؛ والحقيقة : ما يرجع إلى الاعتقاد وما ثبت فى نفس الأمر ، وهذا كلام إجماله وتفصيله يطول . وإختصاره أن تعلم أن الله تعالى هو الذى له الاقتدار كله والاختيار كله والملك كله ، والعبد لافعل له ولا اختيار ولا حق ، غير أن الله تعالى من لطيف حكمته جعل له اكتسابا فى أفعاله بأن يخلق له قدرة تقارن فعله لاتأثير لها فيه ولكن يحصل التيسير عندها ، وجعل له مشيئة فى الفعل تابعة لمشيئته تعالى ، قال تعالى ـ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ـ فيحس العبد بسبب ذلك التيسر وتلك المشئية المخلوقين ظاهرا من نفسه كأنه يفعل ويترك باختياره ، وهو فى التحقيق لافعل له ولا اختيار ، بل ذلك كله للواحد القهار ، ومتى لم تخلق له تلك القدرة فلم يقع التيسير شاهد العجز كحال من سقط من علو ، ويسمى فعله فى الحالة الأولى اختيازيا نظرا إلى ظاهر حاله وعليها نصب التكليف وتوجه الأمر والنهى ، وهو الشرع المقتضى من العباد ؛ ويسمى فعله فى الحالة الثانية اضطراريا وجبريا ولا تكليف عليه فضلا من الله تغالى ، وهذا كله نظر إلى ظاهر حاله ؛ ومتى نظر إلى الباطن علم أنه فى كل حال مجبور مضطر معزول عن الفعل ، ثم العبد مطلوب بملاحظة الجانبين : الاختيار ، والاضطرار ؛ فمتى ورد عليه حكم من الله تعالى بأن يفعل ويترك

ووجد اختيارا للقيام به فهومطلوب بالقيام به وذلك هو الشريعة ، ومطلوب بنسبة التأثير فيه إلى الله تعالى وحده لاشريك له وذلك هو الحقيقة ؛ فان أهمل الأمر واعتلّ بأنه لاقدرة له فقد ضيع الشريعة ؛ وإن ادعى لنفسه حولا فى ذلك أوقوة فقد ضيع الحقيقة ؛ وإن قام بامتثال وتبرأ من الحول والقوة فقد كمل ، وهذا الذى كسا الحقيقة بالشريعة وهذا فرض مثال . ويجرى هذا المعنى فيما ذكرنا من التكليف أيضا فى الثواب والعقاب ، فان الله تفضل بالثواب مثلا على الأعمال ؛ فمن لم يعتبر ذلك وأسقطه رأسا فقد ضيع الشريعة لأنها جاءت به ؛ ومن أوجبه على الله تعالى علوا كبيرا فقد ضيع الحقيقة . وما قررنا من أن العبد لاملك له ولا حق غير ما جعل له مولاه فضلا واختيارا يجرى أيضا فى الأسباب مثلا ؛ فمن لم يجعل لها اعتبارا أصلا وأبطلها رأسا فقد ضيع الشريعة ، لأن الشرع أذن فيها ؛ ومن نسب إليها أثرا فيما يقع من المنافع عندها فقد ضيع الحقيقة ، لأن التأثير كله لله تعالى ، والأسباب العادية يوجد الشيء عندها لابها فافهم ، فقد كشفنا لك عن الأمر فصار نهارا . وبذلك تعلم أنه لم يكمل فى حاله إلا أهل السنة والجماعة من كل من يقول إن العبد مجبور فى قالب مختار . أما أهل القدر فقد ضيعوا الحقيقة ؛ وأما أهل الجبر المحض فيلزمهم تضييع الشريعة والله هو الموفق ، والناس يطلقون الجمع بين الشريعة والحقيقة على الجمع بين الظاهر والباطن وهو صحيح إجمالا ، وتفصيله فى كل جزئية هو ما قررنا . والأبرد جمع برد ؛ والشفوف: من الثياب الرقاق الجيدة . يقول : إن هذا الشيخ لما التمس من المشايخ قبله واقتبس من أنوارهم وأسرارهم أضاء مصباحه : أى قلبه وهو المصباح على التجريد أوالكلام تمثيل والحاصل واحد ، وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى أجرى عادته بالاقتداء وانتفاع البعض من البعض كما يشعل مصباح عن مصباح ، فكما لايشعل المصباح من ذات نفسه اللهم إلا أن يخرق الله عادته أحيانا كذلك لاينتفع الإنسان بلا قدوة ، ولهذا قال أئمة الطريق : من لم يأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد نفسه ومن اتبعه . وفيه أيضا أن الشخص الواحد يمكن أن ينتفع منه كثير لطفا من الله تعالى ، كما أن المصباح تشعل منه المصابيح الكثيرة ولا ينتقص ، وقال : إن الفرع فى الشجرة مثلا يزكو : أى يعظم ويعلو عند طيب أصله ،

وكذلك المريد يصلح ويفلح بصلاح وفلاح قدوته . وقال : إن ذلك العباب وهو السر والمدد الجارى من قلب إلى قلب قد انتهى إلى أفضل موضع وأطيب مجمع وهو الشيخ أو قلبه ، وقال : إنه كسا الحقيقة بالشريعة : أى جمع بينهما قائما بالجانبين . وإنما جعل الشريعة هى اللباس لأنها هى الظاهرة فاجتلى : أى أظهر حسناء ، وهى الطريقة رافلة فى أحسن البرود . وذلك أتم فى جمالها وبهائها ، والكلام تمثيل ، وأراد بالحسناء : الحقيقة . والبرود عليها الشريعة على الاستعارة . ثم قال :

وَتَبَجَّسَتْ لِلدِّينِ مِنْ نَفَحَاتِهِ قُلُبٌ يَقُولُ فِراتُهُ هَلْ مِنْ صَدِ
ماءٌ يَزِيلُ الخُلَّتَيْنِ فَيَغْتَنِي
بِوُجودِهِ الغَرِثُ الضَّرِيمُ وَمَنْ صَدِ
مُتَصَدِّيًا لِلْهَدْىِ مِنْهُ بِصَارِمٍ مِلْهِنْدِ مَشْحُوذِ الغِرارِ وَمَا صَدِ
وَبِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ بَحْرِ حَقِيقَةٍ عَمِقٍ وَبَحْرِ الشَّرِيعَةِ مُزْبَدِ
كَمُهَنَّدٍ عَضْبٍ عَتَادٍ لِلْفَتَى يَوْمَ المَصَاعِ مُجَرَّدًا أَوْ مُغْمَدِ
يَكْسُو مِنَ الشَّفِّ الأَنِيقِ طِرازُهُ وَمِنَ الصَّفِيقِ بِمُشْمَلٍ وَبِمُجْسَدِ
وَيَقُوتُ مِنْ خَيْرِ الجَنِيبِ وَفَائِقِ الصْ
صِرْفَانِ وَالآرِى المَشُوبِ بِزِغْبَدِ

تبجس الماء وانبجس : تفجر ؛ والقلب جمع قليب : وهى البئر ، وقيل العادية القديمة منها ؛ والفرات : من الماء العذب جدا ، فرت الماء بالضم : غذب ؛ والصدى : العطشان ؛ والخلة بالضم : الحاجة ؛ والغرث : الجائع ، يقال غرث بالكسر فهو غرث وغرثان ؛ والضريم : المحترق الأحشاء بذلك ؛ وصدى يصدى صدى : عطش ؛ وتصدى للشىء : انتصب له ؛ والصارم من السيوف : القاطع ؛ وقوله ملهند : أى من الهند وأسقط نون من ، وذلك جائز كثيرا إذا لقيت الألف واللام كقوله :

وما أنس ملاشياء لاأنس قولها وقد قربت نضوى أمصر تريد

أى من الأشياء ؛ والمشحوذ : المسنون ؛ والغرار : حد السيف ؛ وصدأ السيف ونحوه بالهمز : طلع عليه الوسخ ؛ وأزبد البحر : طلع عليه الزبد ؛

والسيف المهند معروف ؛ والعضب : القاطع ؛ والعتاد : العدة ؛ والمصاع والمصاصعة : المضاربة بالسيوف ؛ والشفّ : الثوب الرقيق جمعه شفوف كما مر ؛ والصفيق : القوى النسج ؛ والمشمل : ثوب يشتمل به ؛ والمجسد كمنبر ثوب يلى الجسد ؛ والجنيب : تمر جيد مختار ، وفى الحديث « أكل تمر خيبر هكذا » أى الجنيب ؛ والصرفان : تمر رزين صلب يصلح لذوى الحاجة وأهل الكد ؛ والآرى : العسل ؛ والزغبد : الزبد . يقول : إن هذا الشيخ تفجرت من نفحاته الصادرة عنه أو من النفحات التى ترد عليه ، وفى الخبر « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحاته » قلت : وإنما لم يجعلها أنهارا أو عيونا إيذانا بأنها مصونة عن أن يخوض فيها المجيز وكل من ليس من أهلها ، وأنها إنما تنال بالخدمة والمجاهدة مع العناية السابقة ، ووصف هذه القلُب بأن ماءها الفرات ينادى بلسان حاله لكثرته وجودته : هل من عطشان فيروى ؟ وإن ماءها يزيل الضرورتين : أى العطش والجوع ، فيغتنى به الجائع والعطشان إشارة إلى ما فيه من الظاهر والباطن ، وأنه لاحاجة مع حصوله حالة كون هذا الشيخ منتهضا للهداية بصارم منه : أى عقل كالصارم مشحوذ أو دين كذلك أو حزم أو نحو ذلك ، أو بنفسه وهو الصارم على التجريد ، ومجمع : أى قلب جامع لهما وهو نفسه على التجريد ، وفى ذكر مجمع البحرين التلويح إلى العوائد والفوائد كما فى قصة موسى والخضر عليهما السلام ، ووصف بحر الحقيقة بالعمق لخفائه ، وبحر الشريعة بالإزباد لظهوره ، وجعله فى ذلك كالسيف مغمدا ومجردا وهو فى الحالين عتاد ، وقال : إنه يكسوالناس : أى المريدين من الشف ومن الصفيق ، ويقوتهم من الصرفان إشارة إلى أنه يربى الناس كلا بما يليق به من ظاهر وباطن ، وكلا بما يبلغه حاله من مبتدئ ومتوسط وقدم فى الإسلام وقدم فى الإيمان وقدم فى الإحسان ؛ واستعار المشتمل للظاهر والمجسد للباطن والآرى للحقيقة والزغبد للشريعة ، وهذا مشهور فى الاستعمال كأنه لمزيد الحلاوة فى العسل وقلته بالنسبة إلى الزبد والزبد لكثرته وكونه غذاء لجمهور الناس ناسب الشريعة ، فان الشريعة بها تقوم العامة والخاصة ، وهذا بملاحظة ما اشتهر من إطلاق الحقيقة على الباطن الذى لاشرب

فيه للعامة ، وإلا فالتحقيق أنهما متلازمان ، لاينفك أحدهما عن الآخر ، إلا أن الغفلة تعمى عن الحقيقة حتى كأنها لم تكن فافهم . ثم قال :

قُلْ للمُقِلِّ منَ الدِّرَايَةِ والتُّقى ... أَلْمِمْ بِدَرْعَةَ لا أبَالَكَ تُرْفَدِ
فالغَيْثُ يَنْجَعُهُ المُسِيمُ وَلَوْ نأى ... والفَضْلُ أَخْلَقُ باجْتِداءِ المُجتدى
والدَّاءُ يُسْتَشْفَى لَهُ وأَضَرُّهُ ... أَدْوَاءُ قَلْبٍ عَنْ هُدَاهُ مُعَبَّدِ

ألمّ بالمكان : زاره أومر به ؛ ورفده يرفده : أعطاه وأعانه ؛ ونجع الغيث وانتجعه : ذهب إليه ؛ والمسيم : من يرعى ماشيته ؛ والجدى : العطية ؛ واجتدى : طلب ذلك ؛ وعبد البعير تعبيدا : ذهب شاردا . يقول : قل لمن قلّ علمه وتقواه : أدخل درعك يغنك هذا الشيخ ، أو يغنك الله على يده بالعلم والدين ولا يبعدنّ عنك ، فان من جاعت ماشيته يطلب الغيث وإن بعد ، والفضل أحق وأولى أن يطلبه الطالب وإن بعد مكانه وكل من به داء ، فليس من الحزم أن يقعد عن الطبيب ويعرض عن أسباب الشفاء ؛ وأعظم الأدواء وأقبحها داء قلب شارد عن هداه نفور عن مولاه ، فهو أحق أن يستشفى له بملاقاة أهل الله . ثم قال :

فاذا خلَصْتَ إلى ابْنِ ناصِرِ انْثَنى ... حَدُّ النَّوائِبِ عَنْكَ غيرَ مُحَدَّدِ
وَنَظَرْنَ بالطَّرْفِ الحَسِيرِ خَوَاسِئا ... وَرَمَيْنَ بالسَّهْمِ الكَسِيرِ المُصْرَدِ
وَغَضَضْنَ غَضَّةَ مُوجَلٍ أوْ مُخْجَلٍ
وَعَضَضْنَ عَضَّةَ مازِحٍ أوْ أَدْرَدِ
وَمَدَدْنَ كَفَّ مُسالِمٍ وَلَطالَمَا ... أنْشَبْنَ مِخْلَبَ ثائِرٍ مُتَحَقِّدِ

خلص إليه بالفتح خلوصا : وصل ؛ والحسير : الكسير الكليل ؛ والكسير : المكسور ؛ والمصرد : المخطئ ؛ وغض بصره يغضه بالضم ؛ والموجل من الوجل : وهوالخوف ؛ والمخجل من الخجل وهو الحياء ؛ وعض على يده أو أصبعه يعض بالفتح كمس يمس ؛ والمازح الذى لايريد الإيلام فهو لاينشب أسنانه فى المعضوض ؛ والأدرد : الذى سقطت أسنانه وهو لايؤثر شيئا بالعض ولا يؤلم ؛ والثائر : القائم بطلب الدم ؛ والمتحقد : ذو الحقد . يقول : إنك إذا وصلت إلى هذا الشيخ نعمت وأمنت ريب

الزمان وصولة الحدثان ، وذلك فيما يرجع إلى غمرة الجهل وزيغ القلب وطغيان النفس والشيطان والشهوات والرعونات ، وهذا هو الخوف المرهوب المتشكى منه عند المؤمن ، وحينئذ ينثنى عنك حد النوائب كليلا لايقطع فيك ، نظرت إليك النوائب بالطرف الحسير الخاسئ لعلمها أنك وصلت إلى معقل ، ورمتك بالسهم الكسير المخطئ فلم تصبك ، وغضت عنك أبصارها غض الخائف منك أو المستحى فلم ترعد ، وعضت عليك عض من لاينال منك إذاية لكونه لايريدها ، أو لكونه لاأسنان له ، فلم تضرك بشىء ، ومدت إليك كف مسالم إذ لايبقى لها طماعية فيك ، وطالما أنشبت فيك قبل أن تصل إلى هذا المحل مخالبها ، وهذه تمثيلات حاصلها استراحتك من كيد الشيطان والنفس بمشاهدة أنوار هذا الولى والاقتداء بأقواله وأفعاله . ثم قال :

إنْ قَدْ عَثَرْتَ على لُبَاناتِ المُنَى   وظَفِرْتَ بالكَنْزِ الَّذى لمْ يَنْفَدِ
وحَظِيتَ بالذُّخْرِ النَّفِيسِ المُنْتَقَى   ورَتَعْتَ فى أثَرِ السَّوارِ الجُوَّدِ
وعَلِقْتَ بالعِقْدِ الَّذِى لمْ يَنْفَصِمْ   وأخَذْتَ بالطِّوَلِ المَتِينِ المُحْصَدِ
وأوَيْتَ للكَهْفِ المَنِيعِ المُؤْتَوَى   وسَنَدْتَ فى الجَبَلِ العَزِيزِ المُسْنَدِ
ووَكَلْتَ سَرْحَ النَّفْسِ مِنْكَ لِسائِسٍ   كافٍ إزَاءٍ لِلسُّرُوحِ حَفَنْدَدِ
وشَكَوْتَ لِلْحَكَمِ الَّذِى يَشْكِيكَ مِنْ   إمْضَاضِ خَصْمٍ مِنْ هَوَاكَ يَلَنْدَدِ

حظىَ بكذا : ظفر به ؛ والنفيس : الرفيع ؛ والمنتقى : المختار ؛ والسوارى جمع سارية : وهى السحابة تمطر بالليل ؛ والجود جمع جائد وجائدة ، يقال جادهم الغيث إذا مطرهم ؛ وعلق بالشىء : تعلق به ؛ والانفصام : الانقطاع ؛ والطول كعنب : الحبل يطال به للدابة فى المرعى ؛ والمتين : القوىّ ؛ والمحصد المحكم الفتل ؛ وأوى إليه وائتوى فهو مؤتوى ؛ وسند فى الجبل وأسند : صعد ؛ ووكل الأمر إليه : أسنده ؛ والسرح : الماشية السارحة ؛ والسائس : القائم بها وهو الكافى وهو الحفندد . ويقال هو إزاء مال : أى قائم به ؛ وشكوت فلانا إلى الولى فأشكانى منه : أى أزال شكايتى وأنصفنى ؛ والممض :

المؤلم ؛ والخصم اليلندد : الذى لايرجع إلى الحق . يقول : إنك متى بلغت إلى هذا الشيخ ظفرت بالذخائر النفيسة من العلم والعمل والحال ، ورتعت الخصب من كثرة ما تنال ، وتعلقت بالعقدة الربانية التى لاتنحل ، وأخذت بالسبب والعهد الصحيح حتى إنك بفضل الله لو أنجز بك الهوى إلى ما هو مذموم فسترجع إلى الله وتنيب ببركته ، وأويت إلى كهف العلم والدين الممتنع كل من يأوى إليه ، وصعدت فى جبل من جبال العلم عزيز كل من صعد إليه ، وجعلت نفسك فى يد من يؤدبها ويربيها ويرعاها كما يرعى الحفندد دوابه ، وشكوت أمراض النفس وغاية الهوى إلى حكم فى النفوس باذن الله تعالى ينصفك ويعينك بتوفيق الله ومنته ، وهذه أيضا تمثيلات ثم قال :

وَعَدَتْ رِكابُكَ ذَاتَ عِرْقٍ مُصْحِرًا فَلْيَعْلُ نَعْمانَ الهَوَى وَلْيَرْعُدِ
وَنَزَلْتَ فِى آلِ المُهَلَّبِ شاتيا وَوَرِدْتَ وِرْدَ الجُودِ غَيْرَ مُذَوَّدِ
وَوَرَدْتَ مِنْ ماءِ الفُراتِ زُلالَهُ إِذْ كانَ غَيْرُكَ وَارِدًا أَجْنَ المَدِ
وَأَتَيْتَ بَيْتَ العِلْمِ والعَمَلِ الرِّضَى مِنْ بابِهِ مُسْتَصْحِبًا لِلْمِقْلَدِ
وَوَفَتْ لكَ الأَيّامُ بَعْدَ مِطالِها بِلِقاءِ مِصْباحِ الزَّمانِ الأَوْحَدِ

عدا الشىء يعدوه : جاوزه ؛ وذات عرق : موضع معروف ؛ والمصحر : الداخل فى الصحراء : ورعد وبرق : تهدّد ؛ والمهلب : هو ابن أبى صفرة الأزدى ؛ والشاتى : الداخل فى الشتاء ؛ وذاده وذوّده : طرده ؛ والماء الآجن : المتغير الطعم والريح ؛ والمدى كغنى : ما سال من الحوض من الماء فخبث ؛ والمقلد : المفتاح ؛ والمطال والمماطلة ظاهر . يقول : إنك متى لقيت هذا الشيخ خرجت عن المخاوف كلها وصرت إلى المأمن ، ولمح إلى قول الشاعر :

إذا جاوزت من ذات عرق ثنية فقل لأبى قابوس ما شئت فارعد

أى إنه كان يتخوف شر أبى قابوس وهو النعمان بن المنذر . فأخبر أنه إذا جاوز ذات عرق وأوغل فى بلاد العرب أمن من شره ، فليرعد وليبرق

ما شاء فلا يد له ؛ وكذا المريد متى لقى هذا الشيخ فقد أمن من نعمان الهوى، ونزلت أيضا بمن لاتخاف فى جواره ضياعا ولا فقرا ، لأن الزمان قد استنار أو اشتد : ولمح أيضا إلى قول الآخر :

نزلت على آل المهلب شاتيا   غريبا عن الأوطان فى زمن المحل
فما زال بى إكرامهم وافتقادهم   وبرهم حتى حسبتهم أهلى

ووردت أيضا ورد الجود والإحسان غير مطرود عنه ، وأتيت أيضا باب العلم والعمل المرضى شرعا من بابه الذى ينال منه والمفتاح فى يدك فلا مانع منه والكلام تمثيل ، ووفت لك الأيام أيضا بلقاء الأوحد فى بابه ، ونسبة الوفاء أيضا إلى الأيام مجاز مشهور مستعمل عند العرب ، فاقتفى أثرهم المولدون توسعا وتفصحا من غير أن يعتقد أن لشىء حكما ولا أثرا دون الله تعالى الفاعل المختار. ووجه التجوز الملابسة . ثم قال :

وإذَا اللَّيالِى أرْهَقَتْكَ مُعاذَةً   بذَوِى السِّيادَةِ فَلْتَعُذْ بالأسْوَدِ
وإذَا تُرِيدُ وَلاءَ قَوْمٍ فانْتَسِبْ   مِنْهُمْ لأشْمَخِ ذُرْوَةٍ وَصَمَخْدَدِ

أرهقت فلانا أمرا ؛ ألزمته إياه؛ والمعاذاة: التحصن، يقال عاذه عوذا وعياذا ومعاذا ومعاذة ، وساد يسود سوددا وسيادة وهو أسود منه أشرف ؛ والولاء يكون بالعتق ويكون بالحلف وغير ذلك من المعانى ؛ وذروة المجد معروفة ؛ والذروة من كل شىء أعلاه ؛ والشامخ : العالى ؛ والصمخدد فى القوم : الصميم منهم . يقول : إذا احتجت إلى الالتجاء إلى السادات فالحزم أن تلتجئ إلى الأسود فيهم : أى الأعلى سوددا ، وإذا احتجت إلى قوم فعليك بصميمهم وأرفعهم ؛ والمراد من البيتين أنك تختار الاتصال بهذا الشيخ عن كل شيخ ظهر فى وقته لأنه أكمل وأدخل فى القوم . ثم قال :

فانْعِمْ بِعَيْشٍ لايُطارُ غُرابُهُ   وانْقَعْ بِهِ غُلَلَ الفُؤَادِ وأمْغِدِ
بِمَعارِفٍ مِنْهُ غِزَارٍ لَوْ غَدَتْ   ماءً لَكانَ النِّيلُ مِنْها كالمَدِى
أو انْتَشَ مِنْها رَذَاذٌ صَيِّفٌ   فى الشأْزِ أبْرَضَ يومَ ذاكَ بلاكَدِ

جمع غلة : وهى العطش أو شدته ؛ وأمغد : أكثر من الشراب ، ويقال مغد الفصيل أمه : إذا رضعها وأمغدته ؛ والنيل بالكسر : نيل مصر المعروف ؛ والمذى : جدول صغير يسيل به الماء المهراق من البئر ، أو حوض لم تنصب حوله الحجارة ؛ والرذاذ : ضعيف المطر ؛ والصيف : النازل فى الصيف ؛ والشأز : المكان الخشن ؛ وأبرضت الأرض : اخضرت بالنبات ؛ وكدت الأرض كدا وكدودا : أبطأ نباتها ، وقد وقع الفعل فى البيت مكسورا ولم يحضرنى الآن نصه فى اللغة ، فان كان كذلك وإلا فليقرأ بلا كدى مصدرا : أى بلا بطء ، ويجوز أن يكون من قولك كدى الرجل إذا بخل ذكره ابن القطاع . يقول : إن اتصلت بهذا الشيخ فأنعم بعيش عجيب واسع ، واشف غلة فؤادك وأكثر من الشرب أو أرو نفسك كما تروى المرضعة ولدها وذلك بمعارف وعلوم غزار : أى كثيرة ، من كثرتها أنه لو صارت ماء لكان بحر النيل إذا نسب إليها كالجدول الصغير ، ومن وفرة الانتفاع بها أنها لو كانت مطرا فنزلت منها مطرة ضعيفة زمان الصيف فى المكان الصلب الذى ليس من شأنه أن ينبت لأنبت من يومه ولم يتراخ ، وهذا فى باب الحقيقة وفى المجاز ، وهو اعتبار القلوب يفهم مثل ذلك أيضا . ثم قال :

وَبِهِمَّةٍ تَذَرُ الحَضِيضَ وَرَاءَهَا شَمَماً وَتَسْمُو لِلأَشَمِّ الأَقْوَدِ
جَرَّتْ عَلَى الفَلَكِ الذُّيُولَ وَخَيَّمَتْ فَوْقَ النُّجُومِ الزُّهْرِ أَعْلَى مَقْعَدِ

الهمة بالكسر فعلة من الهم بالشىء : وهى قوة إرادة وتوجه بالقلب إلى مطلوب ما ، فان كانت عليا فهى همة عالية وإلا فسافلة . قال الشاعر :

إذا أعطشتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى وهامة همتـه فى الثريا
فان إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيا

وتذر : تترك ؛ والحضيض : أصله السافل فى الأرض ، ثم يطلق على كل سافل ؛ والشمم : الارتفاع ؛ والسمو : العلو ؛ والأقود : الجبل الطويل ؛ وخيم بالمكان : أقام فيه . يقول : إنك تنتفع منه أيضا بهمة علية ، تركت كل سفساف من الأمور وساقط وراءها وتعلت إلى المعالى . وفى الحديث « إن الله

يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها» ووصف هذه الهمة بأنها جرت ذيلها على الفلك فهو تحتها ، ونزلت فوق النجوم أعلى منزلة ، فهذا كله تمثيل ، والمراد ارتفاع الهمة عن الدنيا والآخرة . ويقال : الزهاد : صيد الحق من الدنيا ، والعارفون : صيد الحق من الآخرة . ثم قال :

وَخَلائِقٍ سُجُحٍ أَرَقَّ مِنَ النَّدَى ... وَأَلَذَّ مِنْ جِدَةِ المُعِيلِ المُرْمِدِ
وَسِعَتْ دِمَاثَتُهَا الأنامَ وَأَلْبَسَتْ ... ثَوْبَ التَّفَضُّلِ كلَّ جافٍ حِقْلِدِ
وَسَقَتْ قُلُوبَ الخَلْقِ كاساتِ الرِّضَى ... بِتَجَاوُزٍ وَتَعَطُّفٍ وَتَغَمُّدِ
حَتَّى أعادَتْ كلَّ خِبٍّ كاشِحٍ ... حِبًّا وَبَرًّا كُلَّ أَلْوَى أَلْوَدِ

الخلائق : السجايا جمع خليقة ، والسجح بضمتين جمع سجيح ؛ والسجح : السهل اللين ، والأولى أن يكون ما فى البيت جمع سجيح ؛ والندى معروف ؛ والجدة والوجد بالضم : الغنى ؛ والمعيل : ذوالعيال ؛ والمرمد : المفتقر ؛ والدماثة : السهولة ؛ والحقلد : السيء الخلق كزبرج ؛ والخب بالفتح والكسر الخداع ؛ والكاشح : المضمر العداوة ؛ والحب : المحب ؛ والبر المحسن : المطيع ؛ والألوى : الشديد الخصومة ؛ والألود : الصعب لايقبل الحق ولا ينقاد لأمر . يقول : إنك تنتفع منه أيضا بخلق حسن سهل أرقّ من الندى بلا جفاء ولا غلظ ، وألذ فى القلوب من إصابة المحتاج ذى العيال الكفاية ، وسعت هذه الأخلاق الناس تجملا وتفضلا حتى غطت على الجافى السيء الخلق فكيف بغيره ، وأرضت الناس بتجاوز عن إساءتهم وجفائهم وتعطف عليهم وتغمد لهم حتى أعادت باذن الله تعالى البغيض حبيبا والفاجر مطيعا ، وفى التنزيل ـ ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم ـ وهذه أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم على الصفاء والكمال ، ويأخذ منها الوارث من أمته كهذا الشيخ ما قسم لهم . ثم قال :

أَخْلاقِ هَشٍّ لِلوُفُودِ حُلاحِلٍ ... مُتَواطِئِ الأكنافِ لَيْسَ بِمُسْمَدِ
لَوْ رِئْتَهُ ناجَتْكَ عَنْهُ لَوائِحٌ ... صادَفْتَ ما تَهْوَى فَلا تَتَأَلَّدِ
عَيْنُ الجَوَادِ فَرَاهُ فَتًى رأى ... عَيْنَيْهِ مُعْرِبُهُ يَهِلُّ وَيَسْجُدِ

أَوْرُعْتَهُ فَبَشِيرُ بِشْرٍ قَائِلٌ لابأسَ فَابْسُطْ مِنْ رَجائِكَ وامدُدِ
أَوْ جِئْتَهُ وَافَتْكَ ضَمَّةُ وَالِدٍ حانٍ رَفِيقٍ بالوَلِيدِ مُمَهِّدِ
وَيَظَلُّ يَرْعُدُ مِنْهُ هَيْبَةَ مَنْظَرٍ وَجَلالَةٍ قَلْبُ المَلِيكِ الأَصْيَدِ

الأخلاق جمع خلق : وهو الخليقة المذكورة ؛ والهشاشة : الارتياح والنشاط ، وهش فهو هش ؛ والحلاحل يقال للسيد الشجاع والقوى المروءة؛ والمتواطئ : المتسهل ؛ والمسمد : المتكبر ، يقال سمد سمودا : إذا رفع رأسه كبرا ، ويقال رآه وراءه مقلوبا ، والفعل مع التاء من الأول رأيته ، ومن الثانى رئته كبعته وهو الواقع فى البيت ؛ واللوائح : ما يظهر من الدين والخير وحسن الخلق ؛ وتألد : تحير ؛ والفرار بالضم : فتح فم الفرس ليعلم ما سنه ، يقال فر فرا وفرارا ، وهو أيضا البحث عن الأمر ؛ والمعرب : العارف بالخيل العراب ؛ وأهلّ : صاح ؛ وراعه الشىء : أفزعه ؛ ورعت منهم بضم الراء وكسرها : أى راعنى ، ويجوز حذف الجار فتقول رعته ؛ والصيد : ميل فى العنق كبرا ونحوه ، وصيد بالكسر فهو أصيد ، ويقال للملوك الصيد لأن شأنهم ذلك . يقول : هذه الأخلاق التى وصفنا فى هذا الشيخ هى أخلاق رجل هشّ : أى مرتاح إلى الوفود ، وكل من يأتيه عظيم المروءة سهل الجانب متواضع متى رأيته عرفته ، وكأن لوائح وجهه وسمته وهديه الصالح تناجيك وتقول لك : صادفت ما تريد فأقبل ولا تتحير ولا تشك ، وهذا كما أن الجواد من الخيل عينه فراره ، وهذا مثل سائر : أى أنك متى رأيته عرفت عتقه ولم تحتج إلى تقليبه إن كنت عارفا بالخيل ، ولذا قال : متى رآه المعرب يهل ويسجد : أى يصيح من الفرح والتعجب ، ويسجد شكرا وتعظيما ، ومتى رأيته أيضا فداخلك روع من الهيبة التى ألقى الله عليه ، فان بشره يؤنسك ويبشرك حتى كأنه يناديك لابأس عليك ، فابسط رجاءك وامدده : أى انو ما شئت ففضل الله أوسع ، ومتى جئته لقيتك منه ضمة الوالد الحانى على ولده الرفيق به الممهد له حجره ، وهذا مع عظم ما عليه من الهيبة والوقار حتى إنه لو لقيه الملك الأصيد لظل يرعد منه من أجل هيبة منظره وجلالته ، وذلك

سنة الله فى أوليائه إذا أظهرهم يكسوهم ملابس من جماله فيحبهم العباد ويألفونهم وملابس من جلاله فيهابونهم ويحترمونهم والله عليم حكيم . ثم قال :

وَعِظاتِ ذِكْرٍ لَوْ غدَتْ ماءً غدَتْ ماءً بِعارِضِهِنَّ صُمُّ الجَلْمَدِ

سُحُبٌ تُرَوَّى مِنْ بحارِ مَعارِفٍ فَتَجُودُ أقطارَ القُلُوبِ الجُهَّدِ

مِنْهَا عَلى الجَفَلَى عَمامٌ مُسْبِلٌ رَدِمٌ وَلِلنَّقَرَى حِظاءُ مُعَوَّدِ

صَهْباءُ ما مُزِجَتْ بِماءِ غَمامَةٍ لَكِنْ بِمَاءِ مَحاجِرٍ لَمْ تَجْمُدِ

إيهٍ وَما طُبِخَتْ بِنارٍ غَيْرِ ما نارِ الأسَى وَحَرارَةٍ لَمْ تَبْرُدِ

العظات : الموعظة ، يقال وعظه وعظا وعظة وموعظة ؛ والجلمد والجلمود الأصم ؛ وجاده المطر يجوده كما مر ؛ والجهد جمع جاهد وهو من الجهد : وهو المشقة ، ويقال جهد عيشه : إذا ضاق ؛ والجفلى : الدعوة العامة ؛ والنقرى : الخاصة . قال طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لاترى الآدب منا ينتقر

والردم : السائل ؛ والحظاء جمع حظوة : وهى المنزلة والمكانة من الرزق ؛ والتعويد : أكل العوادة بضم العين وهى طعام يعاد على الرجل من طعام يخص به بعد ما يفرغ القوم ؛ والأسى : الحزن . يقول : إنك أيضا تنتفع من هذا الشيخ بمواعظ تخشع بها النفوس وتلين القلوب ، حتى إنها لوصارت ماء ونزل على الصخور الصم لصارت ماء به ، وضرب مثلا لهذه المواعظ أو لما يحصل منها من الذكرى بأنها سحائب تمتلئ من بحار المعارف التى فى قلبه ، وهذا كما يزعم العرب أن الغمائم ترتوى من البحر فتجود أقطار القلوب المجدبة العطشى من هذه المعارف وهذه السحائب على عامة المتوجهين النفع العام اللائق بهم وعلى الخواص زوائد وأسرار يخصون بها تكون عليهم بذلك حظوة ومكانة لاتكون لغيرهم ، وهذا شأن التربية ، ثم وصف هذه المعارف أوما يحصل من المراد عن الموعظة بأنها صهباء : أى خمر تنبسط لها أرواح أرباب القلوب ما مزجت بماء الغمام ، وهذا ما تستحسن العرب مزجها به حتى قال الأعشى وقد قيل له : ما ألذ الأشياء ؟ فقال : صهباء صافية تمزجها ساقية من ماء

غادية ، ولكن مزاجها ماء البكاء ودموع محاجر لم تجمد بل هى سخية بالدموع ، ويستعمل جمود العين فى بخلها بالدموع عند ما تراد ، وقد يستعمل فى عدم البكاء مطلقا كقول الأعرابى :

تبكى المخاض الجرب إن مات هيثم   وكل البواكى غيرهن جمود

وهذه الصهباء أيضا ما طبخت بنار إلا نار الحزن والخوف من الله تعالى ، وحرارة من ذلك فى القلب لاتبرد ، وقوله إيه بكسر الهمزة والهاء وتنون كما فى البيت : كلمة استزادة الحديث . ثم قال :

كَرَمُ الخلائِقِ عِيصُها والعِلْمُ لا   كَرَمُ الحَدائِقِ وانْتِباذُ العُنْجُدِ
وَدِنانُها الفِكْرُ الصَّفِيُّ هَوَاؤُها   لَمْ يُكْسَ مِنْ صِرِّ الهَوَى أوْ يُصْخَدِ
والكأْسُ قَوْلٌ فَيْصَلٌ فى رَاحَةِ   مِنْ مِقْوَلٍ صَوْبَ الصَّوابِ مُعَوَّدِ
قَدْ صانَها صَوْنَ النُّفُوسِ وبَثَّها   بَثَّ النَّفِيسِ لأهْلِهِ لا السُّمَّدِ
فاذا أدارَ كُؤُوسَها طَرِبَتْ لَها   أهلُ النُّهَى طَرَبَ القضيبِ الأمْلَدِ
وأصَاخَتِ الأسْماعُ نُصْتَةَ مُمْحِلٍ   للرَّعْدِ والقِرْدِ العُكا لِمُقَرِّدِ
وتَمَنَّتِ الآذانُ لَوْ كانَتْ مَعا   قَلْبا فتَسْعَدُ مِثْلَهُ بالمُسْعِدِ
وتمَنَّتِ الأعْضَاءُ لَوْ كانَتْ مَعا   أُذُنا وَلَوْلا فَوْزُها لَمْ تَحْسُدِ

الكرم بفتح الراء : الشرف ؛ والعيص : الأصل ؛ والكرم بسكون الراء : شجر العنب ؛ والحدائق جمع حديقة : وهى المحوطة ؛ والعنجد : العنقود ؛ والدنان جمع دن بالفتح : وهو الوعاء يجعل فيه ؛ والصرّ : البرد ؛ والصخد : الحرارة ؛ والمقول : اللسان ؛ وصوب الصواب : جهته ؛ والمعود بفتح الواو المشددة : المؤلف ، تقول عودته الشيء فاعتاده ؛ والسمد جمع سامد : وهو المتكبر كما مر ؛ وأصاخ إليه : استمع وأنصت : سكت ، ويقال أيضا نصت والاسم النصتة بالضم ؛ والممحل : المجدب ؛ والقرد بالكسر : البعير يلصق به القراد ؛ والعكا جمع عكوة : وهى هنا أصل الذنب ؛ وقرد البعير تقريدا : أزال ما عليه من القراد . يقول : إن هذه الخمرة الموصوفة إنما تعتصر من الأخلاق الكريمة والعلم فذلك عيصها : أى أصلها من الكروم وانتباذ العناقيد والدنان التى تجتمع فيها : هى الأفكار الصافية التى لم يفسد هواؤها بصر البلادة

والجمود ولا بحرارة العيش والخمود ، والكأس التى تدار فيها هذه الخمرة على الشاربين هى القول الفيصل : أى المفصول الذى تبينه منه من يخاطب به . أو الفاصل بين الحقائق وبين الحق والباطل الصادر من لسان عوّده صاحبه الصواب ، قد صان هذه الخمرة صاحبها فلم يبتذلها لمن ليس من أهلها كما يصون نفسه التى هى أعز الأشياء عليه ، وبثّها بث الشىء النفيس : أى الرفيع لأهله : أى المستحقين له وهم الصادقون فى توجههم المذعنون للحق المتأدبون بين يدى أهله لاالسمد : أى المتكبرون ، قال تعالى ـ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ـ فاذا أدار كؤوسها على السامعين وقت التعليم والوعظ والتذكير طرب لها أهل النهى : أى العقول ، واهتزوا اهتزاز القضيب الأملد أى الناعم وقت هبوب الريح ، وأصاخت لها أسماعهم إصاخة المستبشر العطشان ، أو كالذى أجدبت مراعيه إذا سمع صوت الرعد فلا شىء ألذ منه عنده ، وفى هذا تلميح إلى قول الشاعر :

وحديثها كالرعـد يسمعه راعى سنين تتابعت جدبا

فأصاخ يرجو أن يكون حيا ويقول من فرح أيا ربا

وتكون أيضا فى سكونها وهدوها كالبعير الذى تمتلئ عكاه بالقراد لمن يزيل عنه ذلك ، وفيه يقول العرب فى وصف القوم بالهدوّ والسكون « كأن على رووسهم الطير » وذلك أن الغراب ينزل على البعير فيلتقط ما عليه من القراد فيسكن لذلك ولا يتحرك منه عضو أصلا ، وحينئذ أديرت تلك الصهباء تتمى الآذان لو كانت قلوبا لتكون أوعية لها فتسعد بها ، وذلك أن الآذان إنما هى واسطة والقلب هو الشارب ، ولكن للأذن مع ذلك فضيلة التوسط لاسيما على مذهبنا من أن الحواس مدركة ، فتمنى باقى الأعضاء أن لوكانت أذنا فتفوز بهذه الفضيلة ، ولولا فوز الأذن ما غبطها الأعضاء . وقد استوفى ما للشيخ من معرفة وهمة وخلق وحسن تلقين وتعليم وتذكير ، وما له من المروءة والنور والفتح . ثم قال :

واسْمَعْ أُخَىَّ هُدِيتَ قَوْلَةَ ناصِحٍ

إنَّ العُـلا لاتَنْبَنِى لِمُسْتَخَـدِ

وَهَيُوبَةٍ لَصِبٍ هِـدَاءٍ مائِقٍ تَعْيَا مَذَاهِبُهُ عَلَيْهِ مُخْضَدِ
وَجَلَنْدَدٍ زَمِرِ المُرُوءَةِ لامِـحٍ عِطْفَيْهِ أَلْوَذَ خائِلٍ مُتَفَيِّدِ

أخىّ؛ مصغر أخ للتقريب والتحبب وهو منادى : أى يا أخى ؛ والمسخد : الثقيل الروح والمورم من كثرة الأكل ؛ والهيوبة : الجبان ؛ واللصب كفرح : البخيل العسر الأخلاق ؛ والهداء بالكسر : الضعيف البليد ؛ والمائق الأحمق ؛ وأعيت على فلان مذاهبه : أى طرقه فلم يهتد بحيلة ولا سبب ؛ والمخضد : الأكول ؛ والجلندد : الفاجر ؛ وزمر المروءة : أى غافلها؛واللامح عطفيه : المعجب بنفسه ينظر فى عطفيه : أى جانبيه ؛ والألوذ تقدم ؛ والخائل : المختال عجبا وتيها ؛ والمتفيد : المتحير . يقول : ألمم بدرعة ولازم الشيخ إن كانت لك همة فى المعالى ، واسمع يا أخى هداك الله إلى الحق قولة ناصح لك ، وبين ذلك بقوله : إن العلا لاتنبغى لمن اتصف بشىء من هذه الأوصاف وهى دائرة بين كون الإنسان ساقط الهمة منهمكا فى شهوة بطنه كالمخضد والمسخد وكونه عسر النفس سيئ الخلق كاللصب والزمر المروءة والجلندد ، وكونه قليل العقل ضعيف الميز كالهداء والمائق ومن تعيا عليه مذاهبه وكونه معجبا بنفسه ، وذلك أيضا من ضعف الميز كالخائل والمتفيد واللامح عطفيه ، وكونه ضعيف النفس هيوبا ، وهى كلها علل فى الإنسان تعوقه عن الخيرات غير أنها قابلة للعلاج بالرياضات والنفحات الربانية ، أما ضعف الميز الخلقى فصعب الزوال وقلة التجريب تداوى ؛ فليس المراد من الأبيات أن كل من أنس من نفسه هذه الأوصاف أو شيئا منها ييأس من الخير فلا يطلبه ، بل المراد أنه ما دام متصفا بها فلا ينال ، فان كانت له همة أو خلقت له إرادة فى الخير فليجاهد نفسه حتى يتخلى عنها ـ وما ذلك على الله بعزيز ـ وإنما على العبد تعاطى الأسباب وعلى الرب فضلا منه فتح الباب . ثم قال :

قَمِنٌ بِها ابْنُ سُرًى أَرِيبٌ حُوَّلٌ خَمِصُ الحَشا حَرَّانُ مِطْلَعُ أَنْجُدِ
نَهِضٌ عَلَى العِلاَّتِ بِالبَزْلاءِ فى سُودِ الخُطُوبِ وَفارِجُ المُتَعَجْلِدِ
لايَسْتَرِيحُ إلى الدَّعَاةِ ولا يَرَى نَحْبَ الفَتَى اليَوْمِىَّ يَقْضِيهِ الغَدِ

القمن بالشىء : الخليق به ؛ وابن السرى : الذى لايرده سرى الليل

ى مأربه فيألفه حتى كأنه ابنه كما قيل ابن السبيل ؛ والأريب : العاقل ؛ والحول بضم الحاء وتشديد الواو : الفطن القادر على التحول فى الأمور من وجه إلى وجه ؛ والخمص : الحشا الجائع ؛ والحرانّ من الحرارة ؛ وهى العطش ويستعمل حقيقة ومجازا كما هنا ؛ والمطلع : الكثير الطلوع ؛ والأنجد جمع نجد : وهو ما ارتفع من الأرض ، يقال فلان طلع أنجد وطلاع ثنايا : إذا كان يتعاطى الأمور العظام ويدركها ؛ والنهض : الكثير النهوض ؛ والعلات بالكسر : الحاجات والضرورات . قال زهير :

إن البخيل ملوم حيث كان ولـ كنّ الجـواد على علاته هرم

أى يجود على حال الشدة والضعف ، ولا يمنعه ذلك من الجود ؛ والبزلاء : الداهية العظيمة ، ويقال أيضا الرأى الجيد ، ويقال فلان نهاض ببزلاء : أى قائم بالأمور العظام ؛ وسود الخطوب : الشدائد التى لايهتدى فيها لحيلة ؛ وتعجلد الأمر : عظم واشتد ؛ والدعة : الخفض واتساع العيش ؛ والنحب : الحاجة والنذر أيضا ؛ والغد فى البيت أصله الغدى بياء النسب ، يقال فى النسب إلى الغد غدوى وغدى كما فى البيت . يقول : إن العلى من اتصف بهذه الأوصاف هو الخليق بها مع العناية السابقة، فقوله فمن خبر مقدم ، وابن سرى وما بعده المبتدأ ، وهى أيضا دائرة بين ارتفاع الهمة والقوة والفطنة وترك الراحات والشهوات ، وذلك من ارتفاع الهمة مع الحزم ، فقوله لايرى نحب الفتى اليومى ، وفى نسخة : الأمسى يقتضيه الغد : أى لايسوّف أموره فيرى أن الحاجة تطلب اليوم ستقضى فى الغد ، بل يبادر بها اليوم فان آفة العمل التسويف ، وهذا مما أجمع عليه الناس كافة أهل الدنيا وأهل الحقائق ، ومن ثم يقولون : الفقير ابن وقته : أى كل وقت حضره يجتهد فى أن يقيم فيه ما وجب فيه ولا يلتفت إلى وقت ثان ، وهذا فى كل وقت مع وقت يليه ، والتعبير بالأيام فى البيت توسع ، والنسختان بمعنى ، لأن الأمر إذا اعتبر فى الوقت الحاضر فاليوم الذى بعده غد ، وإذا اعتبر فى الغد فاليوم الذى قبله أمس له . ثم قال :

وَالمَجْدُ لَيْسَ بِقَرْقَرٍ بَلْ فى ذُرَى
نِيقٍ يَفُوتُ مَدَى الصُّقُورِ الصُّيَّـــدِ

والمُلْكَ خلْتَ وَرَاءَ غِشْيانِ الظُّبا وقَنَى بأيمانِ الكُماةِ مُقَصَّد
وَصَوَاهِلٍ وَهَوَاجِلٍ وَجَحافِلٍ وَمَحافِلٍ وتَهَدُّدٍ وتَوَعُّد

المجد : الشرف والعلو ؛ والقرقر : المطمئن من الأرض ؛ والنيق : أرفع موضع فى الجبل ؛ والصقور جمع صقر : من الطير معروف ؛ والظبا جمع ظبية : وهى حد السيف ؛ والمقصد : المكسر من القنا ؛ والصواهل : الخيل ؛ والهواجل : الإبل ؛ والجحافل : الجيوش ؛ والمحافل : جموع الناس . يقول : المجد ليس مطروحا فى قرقر من أراد أخذه أخذه ، كلا وإنما هو فوق أعالى الجبال التى لاتبلغ إليها الصقور إذا خفقت مع أنها تبعد فى الجو كثيرا ، والملك أيضا فى العادة تراه أيها العاقل إنما يحصل بعد غشيان السيوف والرماح وإعجال الخيل والإبل والاجتياح إلى العساكر والمجامع ، ووقوع التهدد على الأعداء وعلى كل من عصى ، والتوعد بالعقوبة أو غشيان خيل الأعداء وركابهم وجحافلهم ومقاساة تهددهم وتوعدهم ، فكذلك الملك الذى أنت فى طلبه أيها المريد لابد لك فيه من مقاساة مثل ذلك أو أكثر فان ملكك أعز وأقوى وأبقى ، والله الموفق للصواب . ثم قال :

والحَزْمُ سَيْفٌ لَيْسَ يَنْبُو مَضْرِبا وَمَطِيَّةٌ أبَدًا بِرِجْلِكَ تَخْتَد
والفِعْلُ مِصْداقُ اللّسانِ وإنّما قَوْلٌ بلا عَمَلٍ هُذَاءٌ مُزَنَّد
وَلَرُبَّ خالقِ جَنْبَةٍ لَمْ يَفْرِها وَمُهَدَّدٍ فى عُنَّةٍ لَمْ يَنْهَد

الحزم : ضبط الأمر والأخذ فيه بالقوة ؛ ونبا السيف عن ضريبة : لم يقطع وخدت الناقة تخدى : أسرعت فى مشيها ؛ ومصداق الشىء : ما يصدقه ؛ والهذاء بالضم والذال المعجمة : الكلام لاحاصل له يصدر من مريض أومجنون يقال هذى يهذى هذيا وهذيانا ويهذو : إذا تكلم به ؛ وزند تزنيدا : كذب . والجنبة : جلد البعير إذا أريد قطعه قدّر قبل القطع على أى وجه يقطع ، فذلك التقدير هو الخلق ، ثم يفريه : أى يقطعه ، فان قدره ثم لم يقطعه قيل خلق ولم يفر وضرب مثلا فيمن يهم بالأمر ولا يمضيه . قال زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض الـ قـوم يخلق ثم لايفـرى

والعنة : الحظيرة من خشب ، وقد يكون فيها الجمل فيهدر ولا يجد مخرجا فضرب أيضا مثلا لمن يهدر ولا يبطش فيقال : كالمهدر فى العنة . قال الوليد ابن عقبة :

قطعت الدهر بالجمل المعنى   تهدر فى دمشق فلا يريح

ونهد إلى الشىء : نهض إليه . يقول : إن الحزم سيف لاينبو ومطية لاتكبو والفعل مصداق القول ، فمن يقول ولا يفعل إنما هو كالمجنون أو الكذاب ينطق بما لاحاصل له ، وربما همّ الإنسان بالأمر ولم يأته والشأن فى الفعل ، ويكفى فى هذا قوله تعالى ـ لم تقولون ما لاتفعلون ؟ ـ ثم قال :

وأَضَرُّ شَىْءٍ لِلْفَتَى جِدَةُ الغِنَى   وَفَرَاغُ أَيْدٍ فى الشَّبَابِ السَّخْوَدِ
وَنَسِيئَةُ السَّعْيِ السَّدِيدِ إلى مَدًى   أَوْ لِلفَرَاغِ أَوِ البَنَانِ الْكَوْهَدِ
مَنْ يَعِيهِ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَيَهْتَدِى   جَلْداً فَقَدْ عَزَّا عَلَيْهِ إِذَا هَدِ

الجدة : الغنى كما مر والإضافة للبيان ، والشباب السخود : الناعم ، والنسيئة التأخير ، والبنان : الأصابع ، والكوهد : المرتعش من الكبر ، وهدئ بالكسر والهمز ويخفف حنى من الكبر . يقول : أضر شى للإنسان فى دينه ـ بل وفى دنياه أيضا اجتماع الغنى والشباب والفراغ وهو قول الراجز :

علمت يا مساعد بن مسعده   أن الشباب والفراغ والجده
مفسدة للمرء أىّ مفسده

ومن الضرر تسويف العمل الصالح والسعي النافع إما إلى زمان مستقبل ، وإما إلى التفرغ وإما إلى الكبر ، فان عجز عن السعى الصالح وهو جلد : أى قوى ، فكيف يقدر عليه حين يضعف وينحنى ، كما قيل :

إذا المرء أعيته السيادة ناشئا   فإدراكها كهلا عليه عسير

ولذا قيل : سيروا إلى الله عرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة . والإنسان فى بلاء حين يقوى تقوى عليه النفس ، وحين يضعف تضعف والأمر كله بيد الله من كان له راج يعود . ثم قال :

وَشَبَا الهَوَى مَسْنُونَةٌ مَسْمُومَةٌ   مَنْ تَعْتَلِقْهُ يَضْنَ إنْ لَمْ يُقْصَدِ
داءٌ دَوِىٌّ ما أَبَلَّ سَقِيمَهُ   إنْ لَمْ يُسَاعَدْ بالطَّبِيبِ المُسْعِدِ

يا وَيْحَ ذِى بالٍ وَبِيلٍ مُعْرِضٍ　　لِسِهامِهِ مِنْ كُلِّ سَهْمٍ مُقْصِدِ
تُدْوِى الفُؤَادَ فَلا تُداوِى ما جَنَتْ　　فِيهِ وَتُصْمِى ذَا الفُؤَادِ فَلا تَدِ

الشبا جمع شباة كما مر ؛ والمسنونة : المحدودة ؛ والمسمومة : المسقية بالسم واعلقته : أصابته ؛ وضنى بالكسر ضنا : مرض مرضا ملازما كلما ظن البرء انتكس ؛ ورماه فأقصده : قتله مكانه ؛ والداء الدوىّ مبالغة ؛ كما يقال ليلة ليلى ، ويوم أيوم ؛ وأبلّ المريض إبلالا : أفاق من مرضه الوبيل الوخيم ؛ والمعرض : الممكن ، يقال أعرض الصيد : إذا أمكن الرمى ، ومن ثم يحبون السانح الذى يأتى من جهة اليسار فيتمكن منه الرامى ؛ وأقصد السهم : أصابه فقتل مكانه ؛ ودوى بالكسر دوى : مرض ؛ وأدواه أمرضه وداواه : عالجه وأصماه : رماه فقتله مكانه ، ووداه يديه : أعطى ديته . يقول : إن شهوات الهوى المسددة إلى قلوب العباد مسنونة لاتنبو ، ومسمومة مع ذلك ، لايكاد يسلم من إصابتها إلا أن يعافيه الله تعالى ، ولذا قال من تعتلقه ، فان لم تقتله مكانه بوقوع الزيغ إما من الإسلام إلى الكفر ، أو من الطاعة إلى المعصية ، أو من الحضور إلى الغفلة عياذاً بالله تعالى ، فلا بد أن تمرضه حتى يبقى مذبذبا كلما قام سقط ، وكلما أقبل أدبر ، وذلك داء دوىّ ما ينقذ المريض به إن لم يساعد بالطبيب المسعد وهو الشيخ الكامل ، والطبيب بالحقيقة هو الفاعل المختار ، فاذا أراد أن يشفى عبده شفاه إما كفاحا وهو نادر ، وإما على يد ولى من أوليائه ، والله على كل شىء قدير ، يا ويح ذى بال : أى خاطر وبيل : أى وخيم من الهوى والشهوة ، معرض : أى منتصب لسهامه المقصدة القتالة تدوى : أى تمرض هذه السهام فؤاد من ابتلى بها فلا تداوى ما جنت فيه من المرض وتعمى صاحبه بالزيغ والضلال فلا تعطى فيه دية . ثم قال :

والعَقْلُ تَكْنُفُهُ الجَهالَةُ والعَمَى　　أبَدًا لَقِيطٌ ظَلَّ غَيْرَ مُسَرْهَدِ
وَحَوَالِكُ الأوْهامِ لَيْسَ بِقائِدٍ　　فِيها سِوَى قَبَسِ النُّهى المُتَوَقِّدِ
والمَرْءُ يَجْهَلُ ثُمَّ يَجْهَلُ أنَّهُ　　ذوالجَهْلِ فى أسْرِ الضَّلالِ وما فُدِى
وإذا تَظَنَّى فى الوِهادِ بأنَّهُ　　فَوْقَ المَصادِ فَذاكَ جِدُّ مُرَهَّدِ

ذَاكَ الدَّوَا عزَّ الدَّوَاءُ لَهُ وما كُلُّ المُدَاوِينِ الدَّوَى بالعُضُدِ

اللقيط : صبى يوجد بمضيعة ؛ وسرهد : الصبى أحسن غذاءه ؛ وظن الشيء وتظننه ثم تقلب النون الأخيرة ياء فيقال تظناه كما يقال رباه ودساه وأصله ربيه ودسسه ؛ والوهاد جمع وهـدة كما مر ؛ والمصاد بالفتح : أعلى الجبل ؛ ورهد ترهيدا : أتى بالحماقة العظيمة ، ويقال هو كريم جدّ كريم بالكسر ، وعالم جد عالم : أى بالغ النهاية فى وصفه . قال قطَرىٌّ :

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر جدّ لئيم

والدوى بالقصر : الأحمق كما مر ؛ والدواء : ما يعالج به ؛ وعضد المرض وغيره قطعه . يقول : إن العقل إذا حاطت به الجهالة والعمى أبدا ولم يكن من يربيه بالعلم والتجاريب يكون بمثابة الطفل اللقيط لايجد من يغذوه ويحسن غذاءه ، وإنما قال ذلك ، لأن غذاء العقل إنما هو العلم ، كما أن غذاء الجسم الطعام ، وكما يضيع هذا أو يفسد بعدم الغذاء أو فساده كذلك الآخر ؛ والأوهام الحوالك : أى السود الشديدة السواد ، لايقود الإنسان فيها إلا قبس العقل المتوقد من قوة الذكاء والفطنة ، وإذا ظن الإنسان وهو فى الحضيض من الجهل والتقليد والقصور أنه فوق الجبال العالية فهما وعلما وكمالا ، فذلك الأحمق البالغ النهاية فى الحمق ، وإذا جهل وجهل أنه جاهل فهو فى ضلال لامخلص له منه ، لأن صاحب الجهل البسيط قابل للتعليم طالب له لإحساسه بالحاجة ، وهذا لم يطلبه إذ لايحس به فلا مخرج له منه إلا أن يأتيه وهب من الله تعالى ، والذى يظن بنفسه ما لم تبلغه هو الدو الأحمق لادواء لحمقه كما قلت وما كل المداوين الدواء : أى المرض بالعضد : أى الحاسمين له من البدن ، فما كل داء يعالجه الطبيب . ثم قال :

والطَّبْعُ أَمْلَكُ والصَّنَائِعُ فى الفَتَى خُلُقٌ وَنُورٌ عَنْهُ إنْ لَمْ تَتْلُدِ
والحَقْلُ مَأْوَى البَقْلِ والحَبَّ الَّذِى
يُمْتَارُ لَيْسَ بِفَدْفَدٍ مُعْلَنْدِدِ
والأَرْىُ لَيْسَ مُجَاجَ كُلِّ أَذِيَّةٍ
والزُّبْدُ لَيْسَ خِلَاصَ كُلِّ مُزَبَّدِ

الصنائع جمع صنيعة: وهى الإحسان وما يفعله الإنسان من الخير ؛ والخلق: ما جبل عليه الإنسان ؛ والنور جمع نوار : يقال امرأة نوار : أى نفور عن الريبة ؛ وتلد المال يتلد تلودا إذا كان أصيلا بولادة أو إرث ؛ والحقلة : الأرض الطيبة للنبات ، وفى أمثال العرب : لاينبت البقلة إلا الحقلة . يضرب لكون الشىء لايوجد إلا فى محله كما قيل :

لايوجد الخير إلا فى معادنه والشر حيث طلبت الشر موجود

وقال زهير :

وهل ينبت الخطىّ إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل

والفدفد : المكان الصلب الغليظ ؛ والمعلندد : الذى لاماء فيه ولا كلأ ؛ والمجاج بالضم : الريق ترميه من فيك والعسل ويقال مجاج النحل ؛ والأذبة جمع ذباب وجمعه فى الكثرة ذبان كما قيل :

عصافير وذبان ودود وأجراس مجلجلة الذئاب

والزبد معروف ؛ والخلاص من الشىء بالكسر : مايستصفى منه ؛ وزبد السقاء : مخضه ليخرج زبده ويضعف كما قيل فى البيت . يقول : إن طبع الإنسان أملك له وأغلب عليه وهو أجرى إليه بأدنى سبب ، وما يحمل عليه نفسه من الأوصاف التى لم يطبع عليها شاق عليه وبأدنى شىء يزول عنه ويرجع إلى طبعه كما قيل: ويغلبه على النفس خيمها ، وصنائع الإحسان فى الإنسان إنما يعترّبها وتثبت له إذا كانت خلقا : أى مطبوعا عليه تالدة ، وإلا فهى عنه نور : أى نوافر ، وهذا كما أن البقل إنما ينبت فى الحقل ولا ينبت فى الجرز والحب الذى يمتار : أى يجلب للقوت لاينبت فى الفدفد ، وإنما ينبت فى مزارعه والعسل ليس مجاج كل ذباب وإنما هو مجاج النحل خاصة ، والزبد ليس خارجا من كل سقاء إلا سقاء اللبن فقط ، فهذه أمثال حاصلها أن الناس معادن كما فى الحديث ، وأشجار لكل شجر ثمر لايكون للآخر . قال الشاعر :

أرى كل عود نابت فى أرومة أبى منبت العيدان أن يتغيرا

وهذا هو الصفو الغنى عن الكلفة ، وأما استحداث طبع فلا بد فيه من معاناة شاقة ، ومع ذلك لابد من ذلك فى الأغلب ، لأن الإنسان يجبل على

أخلاق حسنة ضعيفة ، فتفتقر إلى تربية وتنمية حتى تقوى ، ولذا كان فى الحديث « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم » ، وعلى أخلاق سيئة فتفتقر إلى رياضة تكسر بها فورتها ، فالتربية والرياضة لها أثر فى تغيير الخلق تقوية وتضعيفا ، لا إنشاء أو إعداما رأسا إلا أن يشاء الله . ثم قال :

فالمَشْرَفِىُّ الهُنْدُوَانِىُّ إنْ صَدِى ... يُجلَى ويُشْحَذُ مَتْنُهُ بمُحَدَّدِ
ولَرُبَّمَا سُنَّ الكَهَامُ بِمَوْطِنٍ ... إنْ لمْ يَكُنْ عنْ مَتْنِهِ منْ عُنْدُدِ
يُلْجِى إلى مُخِّ العَرَاقِيبِ الطَّوَى ... ويَجِىءُ فَقْدُ العِدِّ للْمُسْتَثْمَدِ

المشرفى : السيف ، ينسب إلى مشارف اليمن ؛ والهندوانى : نسبة إلى الهند ؛ وصدى السيف تقدم ؛ وجلاه يجلوه : صقله وشحذه ؛ والكهام : السيف غير الصارم ؛ ويقال مالى عنه عندد : أى بد ؛ وألجأه إلى كذا وأجاءه إليه : اضطره ؛ والطوى : الجوع ؛ والماء العد بالكسر : الثابت الذى له مادة ؛ والثمد : القليل ؛ واستثمده : اتخذه . يقول : إن السيف الهندوانى وهو الجيد هو الذى يتخذ ، وإن عرض لمتنه صدى صقل أوكلول شحذ ، ولا مشقة فى ذلك لأن الجودة فيه أصلية ، والعارض سهل الزوال ، وكذلك الرجل الكريم الطبع تأديبه سهل ، وربما سن السيف الكهام إن لم يكن عنه بد فيقضى حاجة وإن لم يبلغ مبلغ الصارم ، وهذا كما يضطر الإنسان أحيانا إلى انتقاء العراقيب طلبا لمخها وإن كان قليل الجدوى ، والعرب يقولون فى هذا : شر أجاءه إلى مخة عرقوب . أى ما أجاءه إلى مخ العرقوب إلا الشر وهو الضرورة ، وكذا يضطر إلى ورود الثماد مع قلة غنائه لفقد العد ، فكذا الإنسان إذا لم يكرم طبعه فليتكلف الخلق المحمود ، ومن لم يجد كريما فليغتنّ بمتكرم . ثم قال :

فابْغِ العُلا بِتَعَمُّلٍ وتَخَلُّقٍ ... إنْ لَمْ تَفُزْ مِنْ نَيْلِها بِمُتَلَّدِ
وإذا تَبَيَّنُ لكَ المَعالِمُ فاخْتَدِمْ ... وإذَا تَحارُ فإثْرَ عالِمِها اخْتَدِ

التعمل : تكلف العمل ؛ والتخلق : تعاطى الخلق كما مر ؛ والمتلد : القديم الموصل كما مر ؛ ومعالم الشىء : آثاره وما يعلم به ؛ وخدم واختدم بمعنى ؛ وحار يحار حيرة : لم يهتد ؛ وخدا يخدى واختدى : أسرع . يقول : ابغ العلا أى اطلبها بتكلف ومجاهدة نفس متعاصية أمارة بالسوء وخلق كريه حسيس

إن لم ترزق نفسا مطمئنة وخلقا محمودا ، ولا تترك نفسك ضائعا إن لم تكن إبل فمعزى ـ فإن لم يصبها وابل فطل ـ وإذا ظهرت لك معالم الحق فاختدم : أى اجتهد فى اكتسابه عملا وعلما وحالا ، أو اخدم من يدلك عليه ويقودك إليه ، وإذا حرت ولم تكن لك بصيرة فقلد أهل الحق واتبعهم مسرعا . ثم قال:

وَذَوُو البَصَائِرِ فِى الحَيَاةِ وإنْ فَنَوْا والغُمْرُ مَفْقُودٌ وإنْ لَمْ يُفْقَدِ

البصيرة : ناظر العقل ، كما أن البصر ناظر العين ؛ وذوالبصائر فى الدين : هم العلماء العارفون ، وفى الدنيا : هم الفطناء أهل التجاريب ؛ والغمر : هو من لاتجربة له . يقول : إن أهل العلم باقون وإن ماتوا ببقاء ذكرهم وكلامهم وأتباعهم ومآثرهم ، وأهل الجهل وإن لم يزالوا فى قيد الحياة فى حكم الموتى ، إذ لاغناء لهم ولا ذكر ولا مأثرة . ومثل هذا قول القائل :

أخو العلم حى خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذوالجهل ميت وهوماش على الثرى يعد من الأحياء وهو عديم

وهذا المعنى كثير . والقصد به مدح العلم والإكباب إليه . ثم قال :

والعِلْمُ بَدْءًا لَيْسَ أَرْيًا سَيِّغًا لٰكِنْ جُنَاةُ الحَنْظَلِ المُتَهَبِّدِ
لٰكِنْ نَفِيسٌ لايُعَارُ وَنَاثِرٌ مُتَأَبِّدٌ عَنْ كُلِّ فَدْمٍ أَوْغَدِ
لَمْ يُضْمِهِ سَهْمٌ وَلَمْ يَبْتَزَّهُ بازٌ وَلَمْ يُصْرَعْ بِرَمْيَةِ مُقْلَدِ
لٰكِنْ بِأَشْرَاكِ الحُلُومِ وَهِمَّةٍ نَفَّاذَةِ الأَغْرَاضِ فَلْيَتَصَيَّدِ
وَجَوَادِ فِكْرٍ تَمْتَطِيهِ مُؤَوِّبٍ أَبَدًا بِأَقْطَارِ المَدَارِكِ مُسْئِدِ
قَيْدِ الأَوَابِدِ لايَزَالُ عَلَى الوَنَى فى كُلِّ مُعْوِصَةٍ يَرُوحُ وَيَغْتَدِى
منْ بعدِ نَزْعِ الرُّوحِ فى اسْتِعْطَائه وَمَذَاقِ صَبْرٍ لِلْحَوَايَا مُصْخِدِ
وَتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَصَبُّرٍ وَتَضَرُّرٍ وَتَقَشُّفٍ وَتَمَعْدُدِ
وَتَوَسُّلٍ وَتَوَصُّلٍ وَتَحَوُّلٍ وَتَغَرُّبٍ وَتَفَرُّدٍ وَتَهَجُّدِ
فَوَرَاءَ وَخْزِ النَّحْلِ شَوْرُ شِهادِهِ وَوَرَاءَ شَوْكِ النَّخْلِ نَيلُ العُرْجُدِ
وأَمامَ أَصْدَافِ اللآلِى غَوْصَةٌ فى اللُّجِّ وَالتِّرْيَاقُ سُمُّ الأَسْوَدِ
وَالصَّقْرُ يَنْتَظِمُ الطَّرِيدَةَ لا الأَلَى وَاللَّيْثُ يَغْشَى السَّرْحَ دُونَ الصَّفْرَدِ

الأرى : العسل كما مر ؛ والسيّغ : السائغ فى الحلق ؛ والجناة والجنى : ما يجنى من الثمرة ؛ والحنظل معروف : هو الهبد ، وقيل الهبد حبته ، وهبده : كسره وطبخه فهو متهبد ؛ والعلق بالكسر : النفيس من كل شىء ، فوصفه بالنفيس توكيدا وكشفا . قال الحماسى :

أبيت اللعن إن سكاب علق   نفيس لايعار ولا يبـاع

ونارت الظبية تنور : نفرت ؛ وتأبد الوحش : نفر ؛ والقدم : البعيد الفهم ؛ والوغد : الأحمق الضعيف ، يقال وغد بالضم وغادة فهو وغد ، وفلان أوغد من فلان ، وكثيرا ما يراد بأفعل معنى فاعل كما عرف ؛ وبزه وابتزه : سلبه ؛ والبازى جمعه بزاة ، وقد يقال باز غير منقوص وجمعه أبواز ، فيجوز كسر الزاى وضمها ؛ وصرعه صرعا : ألقاه على الأرض ؛ والمقلد : عصا فى رأسها اعوجاج . والغرض : القرطاس ينصب ليرمى ؛ ونفذه السهم : خرج منه ؛ والتأويب : سير النهار كله ؛ والإسئاد : قيل هو الإسراع فى السير ، وقيل سير الليل جميعا ، وقيل الجمع بينهما ؛ وفرس قيد الأوابد وهى الوحش : أى درّاك للوحش ، فكأنما قيد له ؛ والونى بالقصر : التعب ، يقال ونى ينى ونيا ونا ؛ والمعوص : الأمر الشديد والمشكل لايدرك ؛ والاستعطاء : الطلب والمذاق : الذوق ؛ والصبر : تخفيف للصبر ككبد وهو المرّ المعروف ؛ والحوايا : الأمعاء ؛ والمصخد : المحرق ، يقال صخدته الشمس : إذا أحرقته ، والتمعدد : التشبه بمعدّ وهى العرب فى طعامها ولباسها الخشن ؛ والتهجد : ترك الهجود وهو النوم ؛ ووخز النحلة : الطعن بإبرتها ؛ وشار العسل شورا واشتاره : استخرجه ؛ والشهاد جمع شهد ؛ والعرجد : العرجون ؛ والصدف : ما يستكن فيه الجواهر فى البحر ؛ والترياق بالكسر : دواء معروف مركب يدخل فيه لحوم الأفاعى ؛ والأسود : الحية العظيمة ؛ والطريدة : الوحشية يطردها الصيادون أو الجوارح ؛ وانتظمها الصقر : أنشب فيها مخالبه كالانتظام بالرمح ؛ والألى كالفتى : الثور الوحشى أو البقرة ؛ والليث : الأسد ؛ وغشى السرح : هجم عليه ؛ والسرح : الماشية ؛ والصفرد : طائر جبان ينغى بأدنى صوت يقال له أبو المليح . يقول : إن العلم بدءا : أى عند ابتداء طلبه ليس أمرا هينا حلوا كالعسل تأكله ، وإنما هو بمنزلة الحنظل تطبخه وتأكله

لصعوبته على الفم ، ومرارة العكوف عليه على النفس ؛ ثم وصف العلم بأنه علق نفيس لايباع : أى لايسخى به أصلا ولا يباع بشىء : أى لايوجد ما يقاومه وما يماثله ، وهو نفور متوحش من الحمق ومن لافهم له ، وهو صيد لأهل العقول ، ولكن لايطعن فيه بأن يرمى بسهم فيقتله ، أو يرسل عليه باز فيأخذه وينتف ريشه ، أو تلقى إليه عصا فتصرعه ، وإنما يقتنص بأشراك العقول والهمم الرفيعة ولذلك يصطاد ؛ وعبر فى البيت بالأمر عن المطاوع للتأكد كقوله تعالى ـ فليمدد له الرحمن مدا ـ وبالجياد : جياد الأفكار يمتطيها طالبه ، وتكون تلك الأفكار جوالة دائما فى المعقولات ليلا ونهارا ، لاتمل ولا تضعف لاشتغال القرائح ، وتكون من ذكائها قيدا للمسائل العويصة محيطة بالأقطار الرقيقة رائحة فيها غادية ولو أصابها التعب من طول الممارسة والمباحثة ، ثم لايحصل مع ذلك إلا بعد نزع الروح فى طلبه إلى مقاساة الشدائد التى هى فى الشدة كالموت ، أو مفارقة الملاذ من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومركوب ورياسة وحظوة ورفاهية التى مفارقتها كالموت ، وبعد ذوق الصبر المحرق للأمعاء جوعا وعريا ومهانة :

لاتحسب المجد تمرا أنت آكله ⁂ لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وبعد طول تفكر فى المدارك ، وتدبر للأدلة والآيات ، وتصبر على كل مامر وتضرر به وتقشف فى المعاش ، وتمعدد فيه : أى تشبه بمعد وتوسل إليه بكل ما يمكن من خدمة أهله بالنفس والمال ، وتوصل : أى تكلف الوصل إليه بذلك ، وتحول من مكان إلى مكان طلبا ، وتغرب عن الأوطان ، وتفرد عن الإلف والخلان ، وتهجد فى الليالى على النظر والدرس ، وبين ذلك بالتمثيل أن العسل لايكاد يستخلصه مستشاره إلا بعد أن يتصبر للدغ النحل كما قيل :

تريدين إدراك المعالى رخيصة ⁂ ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وكذلك لايحصل الرطب غالبا إلا مع مقاساة شوك النخل ، ثم المدرك للمطالب إنما هو القوىّ النفس الجرىء لاالهيوب الضعيف ، فالليث هو الذى يدخل الحظائر ويفترس الماشية ، لاأبو المليح النفار من أدنى صوت . ثم قال :

وَالعِلْمُ زَرْعٌ لَيْسَ يَزْكُو فى امْرِئٍ ⁂ يَجْنِى فَيَتَجَنَّى مَنْ جَدَاهُ وَيَجْتَدِى

حتّى يُصَادِفَ تُرْبَةً مِنْ لُبِّـهِ   لَيَنْبُتَ بِمَلْحٍ أَوْ كَنُودٍ عِرْبِدِ
وَجَدًى مِنَ التَّوْفِيقِ هَتَّانًا وَمِنْ   طَبْعٍ هَوَاءً صَافِيًا لَمْ يَفْسُدِ

يقال أجنت النخل فهى مجنية : إذا حان أن تجنى ، وجناها ربها : أخذ ما عليها من رطب ؛ والجدى : المطر العام ؛ والعطاء والمجتدى : طالب الجدى أو السائل ؛ والكنود : الأرض لاتنبت شيئا ؛ والعربد : الخشنة . يقول : العلم هو فى التمثيل زرع لأنه يحصل أصل منه كالبذر فتجعل منه الفوائد والفروع وذلك زكاؤه : أى نموه وكثرته ، ثم هو لايزكو فى الإنسان فيجنى صاحبه والناس ويطلب فوائده إلا مما ذكر ، وهو أن يصادف تربة جيدة فيبذر فيها وهى عقل الإنسان ، فمن كان عقله ناقصا : أى فاسدا بالعوارض الدنيوية فلا يصلح للعلم ويصادف مطرا نافعا ينبت به ، وهو توفيق الله تعالى وتعليمه ، ولذلك أسباب قال تعالى ـ واتقوا الله ويعلمكم الله ـ ويصادف هواء صالحا لم يفسد بحرارة مفرطة ولا برد مفرط ، وذلك طبعه وفساده الأوصاف الذميمة أوالعوارض المستحكمة ، فهذه الأمور الثلاثة أسباب حصول العلم وأسباب الانتفاع به عاجلا وآجلا ، فمن لم يستجمعها فإما لايحصل له أولاينتفع به . ثم قال :

فَهُنَاكَ يَنْمُو غَيْرَ أَنَّ ثِمَارَهُ   شَتَّى إِذَا أَحْصَيْتَهَا لَمْ تُعْدَدِ
وَأَجَلُّ مَغْبُوطٍ بِهِ وَمُنَافَسٍ
ذُو الأَطْيَبِ الأَبْقَى الأَجَلِّ الأَعْوَدِ
عِرْفَانُ رَبِّ العَرْشِ ثُمَّ صِفَاتِهِ   وَفِعَالِهِ فَإِلَى خَفَايَاهُ اهْتَدِ
وَمَدَارُ هَذَا العَبْدِ فِى أَطْوَارِهِ   مِنْ يَوْمِهِ وَغَدٍ وَمِنْ أَيْنَ ابْتَدِى
تِلْكَ المَعَارِفُ لاشَقَاشِقُ نَافِثٍ   يَهْذِى وَلا يَهْذِى خَصِيمٍ مِلْدَدِ

الشتى : جمع شتيت كمريض ومرضى ؛ والشقشقة : ما يخرجه الفحل من الإبل من فيه إذا هدر ؛ ثم تستعار للكلام ، والهذيان بالمعجمة تقدم ؛ والملدد : مفعل من اللدد فى الخصومة يقال هناك : أى حيث تجتمع تلك الشرائط ينموالعلم ويكثر ، غير أن العلم بحسب الجنس شىء واحد حاصله حصول التصورات والتصديقات ؛ ولكن يختلف بحسب التصور ، وبذلك تعدد الفنون ، وبحسب الغرض المطلوب ، وبذلك تتفاوت العلوم فى الشرف ،

والغبطة فإن الأشجار إنما تشرف وتعلو بأثمارها وهى الغرض المطلوب منها ؛ وكما أن ما ثمره أطيب فى الطعم وأبقى من الفساد وأعظم فى الغناء وأعود: أى أفيد عند الناس هو أعظم الأشجار وأحقها أن يغتبط بتملكه ويتنافس فيه ، كذلك فنون العلم أجلّها وأحقها بالغبطة أعظمها ثمرة ، وذلك هو العلم الذى تحصل به معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ومعرفة ما يدورعليه أمر العبد فى أطواره الثلاثة : أى أمر يومه وهو حال الدنيا ؛ وأمر الغد وهو حال المعاد وما سيقع فيه من البعث والحشر والفصل والمصير إلى أىّ دار وغير ذلك ؛ وأمر الأمس وهو حال ابتدائه من النظر فى تخصيصه وإيجاده ثم إمداده وأنه من طين لازب وما يلتحق بذلك . والعلوم النافعة الشرعية داخلة كلها فى هذه الثلاثة ، ولو احتجنا إلى تفصيل ذلك احتجنا إلى مجلدات ؛ والإشارة فى هذا المختصر تكفى . ثم أخبر أن تلك أى هذه المذكورات هى المعارف التى تستحق أن تسمى معارف والإشارة للتعظيم وليست المعارف هى علوم أهل الجدال والخوض فيما لايعنى وهم الذين يهذون : أى يتكلمون بما لاحاصل له ، ويحسبون أنهم يهدون الناس ؛ وإنما هو الخصام واللدد ؛ والقصد بهذا مدح العلوم النافعة وهى الشريعة بالذات مما يتعلق بالظاهر والباطن وما تثمره بفضل الله من المعارف الوهبية ؛ وفى الحديث « من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم » ويلتحق بها فى الفضل وإن لم يساوها كل ما يستعان به فيها ، أو يستعان به على تزود المعاد من سائر العلوم ؛ وما سوى ذلك إن عارض الشرع فهو خبيث محرم ، وإلا فمن المباحات الدنيوية ، ولا فضيلة له إلا مجرد ما فيه من كمال الاطلاع على المجهول . ثم قال :

فإذَا تَحلَّتْ بالتَّنَسُّكِ والتُّقَى ... وإنابَةٍ لِلْمالكِ المُتَوَحِّدِ
أزْرَتْ بِتاجٍ فى جَبِينِ مُمَلَّكٍ ... مِنْ عَسْجَدٍ فى لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ
وَزَرَتْ عَلَى الحُلَلِ النَّفائِسِ والحُلَى ... فَوْقَ العَطابِيلِ العَذارَى النُّهَّدِ

تحلى بالشىء وحلى به : تزين به ، وأصله الحلية ؛ والتنسك : التعبد ؛ والتقى : اجتناب المنهيات ، ومتى عمم كل منهما شمل الآخر ؛ والإنابة :

الرجوع إلى الله تعالى ؛ وزرا على كذا وأزرى : عابه ، والثلاثى أكثر ، وأزرى به : أدخل عليه عيبا ، فلما كان المعيب ينقص بذلك العيب على العائب صار العائب أشرف وأفضل ، فلهذا شاع استعماله فى التفضيل ؛ والتاج : المجعول على الرأس معروف ؛ والعسجد : الذهب ؛ والزبرجد : جوهر معروف ؛ والحلل جمع حلة من اللباس ؛ والنفائس جمع نفيسة : أى جيدة ؛ والحلى جمع حلية بالكسر : وهى ما يتزين به من مصوغ ؛ والعيطبول : الحسناء الطويلة فى تمام الخلقة ؛ والناهد : التى ارتفع ثديها . يقول : إن هذه المعارف إذا حصلت للإنسان واتصف مع ذلك بالعبادة وحسن الإنابة إلى الله تعالى كانت تلك المعارف أو حالة هذا الشخص من العبادة أحسن من تاج على ملك مصنوع من ذهب مرصع باللؤلؤ والزبرجد ، ومعنى فى الاستعلاء : أى على جبين ، ويجوز أن تبقى على بابها ، وفى قوله فى لؤلؤ بمعنى مع ؛ ووجه التشبيه أن الملك حسن عظيم فى نفسه فكيف إذا لبس التاج ، وكذا العارف إذا تنسك . وهذا المعنى يحكى عن الجنيد أن العبادة على العارفين أحسن من التيجان على الملك ، وصارت أيضا أحسن من الحلل والحلىّ على الحسان النواهد ؛ ووجه التشبيه أن الحسناء المكتسية المتحلية ظاهرها حسن والباطن أحسن ، وكذا العابد المتعبد ظاهره حسن وباطنه أحسن . ثم قال :

قُنَنٌ تَسَنَّمَها الجُنَيْدُ وَحِزْبُهُ ... نَزَلُوا بِها شَرَفًا فُوَيْقَ الفَرْقَدِ
تِلْكَ المَكارِمُ والمَحامِدُ والعُلَى ... لا حارِزٌ تَسْقِيهِ فى قَعْبِ أَدِ
تِلْكَ الرِّياضَةُ لارِياضَةَ راضَةَ الرْ ... رُهْبانِ بَيْنَ تَنَصُّرٍ وتَهَوُّدِ
أَيُعَدُّ نَسْرًا كُلُّ ما مُسْتَنْسِرٍ ... ويُعَدُّ لَيْثًا كُلُّ ما مُسْتَأْسِدِ
سَلَكُوا بِها فى مَنْهَجٍ أَعْلامُهُ ... مَسْمُوكَةٌ لِلسّالِكِينَ مُعَبَّدِ
قَدْ ضَلَّ عَنْهُ كُلُّ جافٍ كاشِحٍ ... أَوْ غالِطٍ مُتَحَرِّفٍ مُتَشَدِّدِ
وَعَمٍ جَهُولٍ لَيْسَ مُبْصِرَ حُجَّةً ... يَوْمًا ولا أَهْلَ الهُدَى بِمُقَلِّدِ

القنن جمع قنة : وهى أعلى الجبل ؛ وتسنمها : صعدها ، وأصله فى سنام البعير ؛ والفرقد : النجم المعروف ، فتارة يوحد كما فى البيت وتارة يثنى ، فيقال

هما الفرقدان ؛ والحارز من اللبن : الحامض ؛ والقعب : القدح ، فقيل الضخم ، وقيل الصغير ، وقيل قدر ما يروى الرجل ؛ والأدى من الآنية والأسقية : الصغير والمتوسط ؛ والراضة جمع رائض ؛ وتنصر : صار نصرانيا ؛ وتهوّد : صار يهوديا ؛ واستنسر الطائر تشبه بالنسر ، ومنه المثل : استنسر البغاث . واستأسد : تشبه بالأسد ؛ والمسموك : المرفوع ؛ والمعبد من الطرق المركل بالأقدام . يقول : إن هذه الأحوال المذكورة من اجتماع المعرفة والعبادة هى قنن : أى درجات عالية لايصل إليها إلا الموفق قد ترقاها الإمام أبو القاسم الجنيدى بن محمد القواريرى شيخ الصوفية فى وقته ، أخذ الطريقة عن السرى السقطى ، وكان مع ذلك فقيها يفتى على مذهب أبى ثور ، وحزبه هم أتباعه فى وقته وهلم جرا ، وأشار بذلك إلى أن مذهبه مذهب أهل الحق من أن الولى شأنه لايزال دائما فى عبادة الله تعالى ، ولو بلغ ما عسى أن يبلغ ولا يصل إلى أن يسقط عنه التكليف كما يذهب إليه الغلاة المتزندقة أبعدهم الله تعالى أو تصير العبادة إلى قلبه وتستريح الجوارح عنها كما يتوهمه أهل الجهل والعمى ، وقول من قال شيئا من ذلك من الصوفية متأول ، وأخبر أنهم : أى الجنيد وحزبه نزلوا بهذه الطريقة والتمسك بها فوق النجوم شرفا وفضلا على غيرهم من الفرق وتلك هى المكارم والمحامد لا لبن تسقيه فى قدح أشار إلى قول أمية :

تلك المكارم لاقعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وأن تلك الرياضة هى الرياضة المستقيمة لانبنائها على أصول الشرع المستقيم لارياضة الرهبان فى الصوامع بالتجرد والجوع ، فإن هذه باطلة لانبنائها على الهوى ، فصاحبها قد خسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العافية . وضرب مثلا وهو أنه ليس كل مستنسر يعد نسرا ، ولا كل مستأسد يعد أسدا ، وكذا ليس كل من جلس فى خلوة ، وكل من سهر وجاع يعد وليا أو عارفا أو صاحب طريقة . وأخبر أن الجنيد وحزبه سلكوا بطريقتهم هذه فى منهج : أى طريق واضح أعلامه ، التى تتبع فيه مرتفعة لاتخفى على سالك ، وهو سهل لاحرج فيها ولا عوج ؛ قال تعالى ـ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ـ وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت بالحنيفية السمحة » وهو منهج السنة وما عليه السلف الصالح . ومن كلام الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة على

الخلق إلا من اقتفى آثاره صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أنه قد ضل عن هذا المذهب كل جاف الطبع قاسى القلب لم يخشع للحق ولا تهذب بالإيمان ، وكل كاشح : أى مبغض للدين من الكفرة كلهم ، أو مبغض للطريقة وأهلها من جفاة العوام وأهل الظاهر ، وكل غالط فى سلوكه منحرف عن القصد والحق متشدّد بما لم تأت به السنة جهلا وابتداعا ، وكل أعمى لايستبصر بنفسه فى الحق ولا ينقاد لتقليد من كان على بصيرة ، وكل من حاد عن الطريقة المذكورة فهو من هذا القبيل كافرا كان أو مسلما بدعيا أو سنيا ، والله الموفق . ثم قال :

فإذَا سَمَتْ بِكَ هِمَّةٌ سَبَّاقَةٌ لِسُلوكِ مَنْهَجِهِمْ فَبَادِرْ تُرْشَدِ
مَتِّنْ عِناجَ الصِّدْقِ واشْدُدْ فَوْقَهُ
كَرَبَ المَحَبَّـــةِ واحْـتَزِمْ وتَجَرَّدِ
وَلْتُدْلِ غَرْبا مِنْ حِجاكَ بِمُنَّةٍ فإذا فَعَلْتَ فَغيرَ مُصْطَرِدٍ رِدِ
وارْحَلْ عَلَى نُجُبٍ كِرَامٍ ضُمَّرٍ مِنْ حَزْمِكَ المَمْسودِ ليسَ بِعُنَّدِ
واضْبُطْ مَزَادَ الصَّبْرِ مُحْكَمَةَ العُرَى
وَبِعَوْنِ رَبِّكَ والتُّقَى فَــتَزَوَّدِ
وتَسَلَّـيَنْ عَنْ أُمِّ دَفْرٍ وابْنِها واسْتَوْدِ عَنْها دارَ نِكْسٍ قُعْدُدِ
واصْرِمْ حِبالَ الوَصْلِ مِنْها لايَقُلْ
لَكَ وُدُّها مِنْ بَعْدِ نَضْجٍ رَمَّــدِ

سما إلى الشيء : استمى إليه ؛ والهمة قد مر تفسيرها ؛ السباقة العلية : التى لاتلوى على حظٍّ ولا رسم ؛ والرشد والرشاد : الهدى ؛ والعناج ككتاب : حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة ، ثم يشد إلى العراقى ؛ والكرب بفتحتين : حبل يشد فى أسفل العراقى ليلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير ؛ وحزم واحتزم : اتخذ الحزام ؛ وتجرد من ثيابه : أزالها عنه لشغل مثلا ؛ والغرب : الدلو العظيمة ؛ وإدلاؤها إلى البئر إرسالها ؛ والمنة بالضم : القوة ؛ والتصريد فى السقى : التقليل ؛ والمصطرد أيضا : الحنق المغتاظ ؛ ورد أمر من الورود ؛ والنجيبة : من الإبل الكريمة ؛ والمسد : الفتل ؛ والممسود : المفتول ، وعند البعير حاد عن الطريق فهو عاند والجمع عند ، وضبط الشيء : حفظه وإصلاحه ،

والمزادة : الراوية ، والجمع مزاد ؛ والإحكام: الإتقان ؛ والعروة معروفة ؛ وأم دفر بفتح الدال المهملة الدنيا من الدفر وهو النتن والنكس بالكسر : الجبان لاينتهض لمكرمة ؛ والقعدد : الجبان ؛ والبخيل : القاعد عن المكارم ؛ والصرم : القطع ؛ والترميد : جعل الشيء فى الرماد ، يقال فى المثل : شوى حتى إذا أنضج رمد : أى بعد أن نضج اللحم خلطه بالرماد ، وذلك فيمن أصلح الشيء ثم أفسده . يقول : إن رزقت همة ورغبة فى سلوك منهج القوم فبادر إلى ذلك ولا تتأخر ولا تسرف ، فذلك هو الرشد فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، ثم بين شيئا من أحوال السالك وشيئا مما ينبغي أن يأتمر به ، وأتى بذلك على طريق التمثيل ، بأن صور السالك مسافرا إلى جهة من الجهات ، فاحتاج إلى شيء يكون بمنزلة الدلو التى يستقى الماء بها فى كل منزل ، وهى محتاجة إلى أن يشد لها عناج وكرب وبذلك يستقيم أمرها ، وذلك هو الصدق والمحبة ، ويقع الصدق هنا على غرضين : أحدهما صدق التوجه ويرجع حاصله إلى أن يكون ما يقوله بلسانه من التوبة والإنابة إلى الله تعالى يقوله بقوله تصميما ، ويعمل به بجوارحه ، فتتفق هذه الثلاثة ولا يكذب بعضها بعضا . الثانى التصديق بالهداة الدالين على الله تعالى واعتقاد الخير فيهم ، فإن المكذب لايفلح ولا يمكنه الاتباع . والمحبة أيضا على غرضين : أحدهما محبة الله تعالى فإنها الجاذبة المحركة . الثانى محبة أهل الله الدالين عليه ، وكذا كل من ينتمى إليه ويحتاج إلى الاحترام والمجاهدة ، فإن الأمر لايدرك بالهوينا ، وإلى التجرد عن العلائق والعوائق ، وأن يدلى دلوه مع الدلاء ؛ والدلو : العقل الذى يتبين به المصالح فيأتيها والمفاسد فيتقيها ويعتبر به ويتفكر ، فيستفيد العلوم والمعارف ، فإذا كان غربا : أى عقلا وافرا وأدلاه بقوة : أى بقريحة وقادة وتوجه تام ، فعند ذلك يشرب من العلوم والمعارف بلا تصريد : أى بلا قلة ولا تقدير ، ويشرب سالما ناعما بلا غيظ ولا غم ، واحتاج أن يوصل من منزلة إلى منزلة على نجائب ذبل منقادة ضامرة من العمل وذلك الحزم وتقدم تفسيره ، فإنه السيف القاطع والحصن المانع . ومن الحزم أن لايتساهل بالرجوع إلى شيء مما خرج عنه من حظ ، فإن النفس متى ألفت الانقلاب انحل عقدها واختل نظام الأمر ، ولا بمقاربة من ألف معه ذلك ، أو لمكان ألف فيه أو سبب يجربه

وأن يرعى أوائل الأمور ، وأن يتعهد ما تكون به حياة قلبه ورقته ، وأن يضبط أوقاته ولا يتركها سدى إلى غير ذلك ، وما جعل فى هذا الباب واحتاج إلى ضبط المزادة بحفظها من الوهن ، وخياطتها إن وهنت ، وإتقان عراها التى تعلق بها لئلا تنقطع فتسقط وتفسد وذلك هو الصبر فهو قوام الأمر . ويكون على وجهين : صبر على الطاعة ، وصبر على المخالفة ؛ ويدخل فى القسمين الصبر على البلاء ، لأنه يرجع إلى ملازمة الرضا وهو طاعة ، ومجانبة التسخط وهو معصية .

واعلم أن الصبر فى باب البلاء ثلاث درجات : الأولى : حبس النفس عن التسخط وقول المكروه مع وجود التألم ، وهو واجب داخل فى مقام الإسلام . الثانية : وجدان البرودة وانتفاء الألم ، ويكون ذلك بالتمرن على المصائب أو بحصول الزهد فيما فات بها أو الفناء عن النفس وطبعها ، وهو كمال داخل فى مقام الرضا . الثالثة : وجدان الاستلذاذ والسرور ، ويكون لغلبة حضور الأجر على النفس أولموافقة رضا المحبوب أو لأنه فعله أو نحو ذلك وهو أكمل ، واحتاج إلى استصحاب الزاد فى سفره وليس إلا التقوى والاستعانة بالله تعالى فلا وصول إلى الله إلا بالله تعالى ، ثم التقوى لاتنتظم إلا من علم وعمل ، فلا بد من العلم فى التزود كما سيجىء ، واحتاج إلى التخلى عن الدنيا وأهلها فإنها أم العوائق التى أمر بالتجرد عنها ، وأن يستودعها فى ديار الراغبين فيها وهم الأنكاس اللئام . وأما التخلى عنها فالمراد به تركها جميعا حسيها كالنساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة إلى آخرها ، ومعنويها كالجاه والرياسة وصحبة الإخوان والأخدان ونحو ذلك ، وهذا على رأى من لايرى للمريد التزوج حتى يكمل حاله ، وإلا فالمراد ترك فضول الدنيا زهدا فيها ، فإن ترك حرامها تقوى وترك شبهاتها ورع ، وترك فضولها زهد ، والمطلوب من المريد ترك كل ما يشغله عن حاله ؛ وقد قال السرى السقطى للذى وصاه : إن أردت الجنة فعليك بالصيام والقيام ، وإن أردت الله فعليك بترك كل شىء دونه ، وهذا هو الفيصل من الكلام ، والزهد على التحقيق هو فى القلب وبرودتها فيه ، وبه يبذلها عند الوجد ولا يحزن عليها عند الفقد ، ولكن لاتعمل فيه للمريد بل هو منحة لله تعالى ، وطلب منه التخلى عنها ظاهرا رجاء أن يكون ذلك بفضل الله

سببا لخروجها عن القلب ، وكل من يمسكها فى الظاهر مغتبطا بها ثم ينتظر أن تخرج عن قلبه ليكون من الذين تكون فى أيديهم وهم زاهدون فيها ، فهو يضرب فى حديد بارد ، بل الشأن بذلها ولو تكلفا ، فمتى ذاق مرارة فقدها وصابر نفسه على ذلك لله تعالى رجى له أن يثيبه الله بنزعها من قلبه حتى لايبالى بها أو بحلاوة فقدها ، وما ذلك على الله بعزيز . وأما استيداعها فى ديار اللئام فهو على ظاهره والديار قلوبهم . ومن فوائد ذكر هذا المعنى أن لايمد المريد عينه إلى أهلها وما عندهم من زهرتها لأنه هو الذى تركها هناك ، وأن يشعر قلبه أن الدنيا وفتنتها وسائر المصائب والمعائب لابد لها من ظهور فى الوجود ولا تخلو عن محل ، فإن لم تكن أنت محلها فغيرك ، فإذا زواها الله عنك أيها المريد وأنزلها بغيرك ، فاعترف له بالمنة العظيمة إذ لم يكن عليك أنزلها ، واشكره شكرا كثيرا ، واعترف أن الذى نزلت عليه قد تحمل عنك مؤنتها بحكم التصريف ، فارحمه وادع له باللطف ولا تحتقره ، ولا تتوهم لنفسك خصوصية الخير ، ولا لغيرك خصوصية الشر ، بل بفضل الله عليك وعدله فى غيرك ، فارحم أهل البلاء واسأل الله العافية . وفى ذكر النكس والقعدد إشارة إلى أن الراغب فى الدنيا كله كذلك ، إذ لايتأتى له النهوض إلى الكمال ما دام يحب الدنيا ، ولذا قيل : حب الدنيا رأس كل خطيئة . وإلى أن الأخلاق السيئة هى بذر الشر ، نسأل الله العافية ، وربما يفهم من الإيداع أن المريد سيرجع إلى وديعته فيأخذها وذلك عند الكمال حيث يقال له خذها ولا تخف ، وليس بعام ولا جائز أن ينويه المريد عند تركها ولا أن يرجوه ، واحتاج أن يقطع جميع العلائق والأسباب من الدنيا لئلا يسقط وينقلب كالذى يرمد بعد أن يشوى ، وما زال الشيوخ يحذرون من هذا المعنى ويقولون : إن الرجوع إلى الشهوات هو الذى قطع ظهور المريدين ، فشبعوا بعد ما جاعوا ، وناموا بعد ما سهروا ، واستلانوا الفراش بعد الكد ، وربما غلطوا فعدوا ذلك كمالا ووصولا ، نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق ، ونعوذ بالله من الزيغ عن التحقيق . ثم قال :

« إذَا نَزَلْتَ عَلَى كَرِيمٍ مُوسِعٍ

فَكُنِ الهَنِىَّ وأنْتَ بَيْنَ ضُيُوفِهِ   لاتَسْعَ فى زَادٍ ولا تَتَفَقَّـدِ
فإنِ ارْتَجَيْتَ أوِ اعْتَفَيْتَ لِغَيْرِهِ   يَوْمًا تَبُوءُ مِنْهُ بِعارٍ مُسْبِـدِ

الموسع : الغنى ، يقال أوسع : صار ذا سعة : أى غنى ، وأوسع الله عليه : أغناه ، فالله تعالى غنىّ مغن ؛ ورحب الذرى : واسع الكنف يكون حسا ومعنى بالجود ؛ والجمّ : الكثير ؛ وتفقده : طلبه وسأل عنه ؛ والعافى : والمعتفى : طالب المعروف ؛ وسبده وأسبده : حلقه . يقول : إذا نزلت أيها المسافر فى دار من هو كريم غنى واسع الكنف لمن يغشاه ، كثير الضيافة متفقد للناس لايغفل عنهم ، فكن هنيئا ما دمت فى مثواه من أمر كفايتك ، فلا يكن منك سعى فى استحصال ما تحتاج من المئونة لأنه حاصل ولا سؤال ولا طلب لذلك الكريم لأنه لايغفل ، فان رجوت غيره أو طلبت غيره فانك تحصل منه على عار عظيم ، حالق للحيتك عنده وعند كل عاقل منصف ، والقصد من هذا التمثيل وهو أن المريد عبد الله تعالى وهو فى كفالته وضيافته ، فلا ينبغى له أن يهتم بالرزق ولا أن يرجو ويركن إلى أحد سوى ربه ، وليجتهد فيما كلف به يكفه الله ما ضمن له ، وهذا معنى ما روى عن الشيخ أبى مدين رضى الله عنه ، أنه كُلِّم على القعود عن السبب فقال ما معناه : أنا فى ضيافة الله تعالى . وقد قال صلى الله عليه وسلم « الضيافة ثلاث » وقال تعالى ـ إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ـ فنحن نقضى من هذا العدد ما عشنا ، وما بقى منه نرجو أن يوفيناه فى الآخرة . وقد يقتضى حال المريد أن يتسبب فيفعل ذلك ويتوكل على الله تعالى فى سببه لاعلى سببه ، ومثل هذا متجرد فى المعنى ثم قال :

والْزَمْ مُناخَكَ أوْ يُحَوِّلَهُ ولا   تَخْتَرْ عَلَيْهِ ورَأْيَهُ فَلْتَحْمَدِ

المناخ بضم الميم : مبرك البعير ؛ وحمده : أثنى عليه ؛ وحمده وأحمده : وجده محمودا . يقول : إذا كنت ضيفا فالزم مثواك الذى ينزلك فيه صاحب الدار ، وارض به ولا تتحول عنه إلا إن كان حولك فتحول ، واحمد رأيه فى إنزاله ، ولا تختر أنت لنفسك غير ما اختار لك ، وهذا أيضا تمثيل : والمراد به أن المريد ينبغى له أن يدع التدبير والاختيار ، ويرضى بما أقيم به ،

سبب أو تجرد أو إقامة أو سفر أو عمل لايذمه الشرع ولا يختار غيره ؛ حتى يكون الانتقال من الله تعالى إما بلسان الشرع أو بإذن يعرفه من حاله أو من قلبه . ثم قال :

وإذَا دَعاكَ وَدُونَهُ الحُجُبُ الَّتِى عَزَّتْ أدَانِيها مَحَالَ الهُدْهُدِ
فارْكُضْ إلَيْهِ جَوَادَ حَزْمٍ مغْشَمٍ مُسْتَفْتِحَ الأبْوَابِ غَيْرَ مُعَرِّدِ
وإذَا رأيْتَ مِنَ المَمالِكِ رَائِقا فَلْتَلْهَ عَنْهُ وَنَحْوَ مالِكِهِ اصْمُدِ

عزه : غلبه ؛ والمحال والاحتيال : الحذق وجودة النظر فى الأمور ؛ المغشم : الذى يركب نفسه ولا يثنيه شيء عن مراده ؛ وعرّد عن القتال تعريدا هرب ؛ والرائق : المعجب ؛ وصمد إليه صمدا : قصده . يقول : إذا دعاك رب المنزل وهو الموصوف بما مر ، والحال أن دونه حجبا عظيمة تغلب الهدهد أدانيها أن يجاوزها مع حسن تأنيه واحتياله ، فكيف بأقاصيها ؟ وكيف بك أنت؟ فأجبه وتقدم إليه مسرعا راكبا على جواد عتيق من عزمك لايكلّ ولا يهاب ، مستفتح الأبواب بابا بابا حتى تصل إليه غير هارب عنه ولا مكرب ، ومتى رأيت فى طريقك شيئا يروق عينك كجارية أو غلام أو فرس أو بناء أو غير ذلك ، فاعرض عنه واقصد إلى مطلوبك ، ولا تلتفت إلى شيء دونه فيفوتك ؛ وهذا أيضا تمثيل ، والمراد منه أن العبد قد دعاه مولاه إلى حضرته ، وبينه وبين الوصول حجب من نفسه عظيمة يخرقها ، وعقبات شاقة يقطعها ، فلا ينبغى له أن يقعد عن السعى فى الوصول إلى الله تعالى مستعينا به كما مر ، ولا يلتفت إلى شيء دون الله من دنيا أو مقام أو حال أو كرامة أو فتح ، فان كل ما سوى الله تعالى حجاب عنه ، كما قال ابن العريف رحمه الله . ثم قال :

وإذَا جلَسْتَ عَلى رَفِيعِ بِساطِهِ فَسقَاكَ صَرْفَ الخَمْرِ غَيرَ مُصَرَّدِ
فَلْتَرْعَيَنْ أدَبَ الجَلِيسِ ولا يَغُلْ تَمِلْ حِجاكَ فَيَسْتَخِفَّكَ ذُو اليَدِ
وَكُنِ ابْنَ وَقْتِكَ حازِما لِلأَجْوَفَيْنِ وَلِلْهَوَاجِسِ خازِنا لِلْمِزْوَدِ

الصرف بالكسر : الخالص ، ومن الخمر ما لم يمزج ؛ وغاله غولا : أهلكه ؛ والثمل : السكران . يقول : كن أيها المريد السالك ابن وقتك واحزم بطنك وفرجك وخواطر قلبك واخزن لسانك ، فأمرك بأربعة أشياء كل منها مهمّ : الأول : أن تكون ابن وقتك ، ومعناه أن تقوم فى كل وقت حضرك بما اقتضاه الحق منك غير ملتفت إلى وقت مضى ولا وقت يأتى ، اللهم إلا أن يقتضى الشرع منك شيئا فى وقتك كقضاء فائتة وتزوّد لحج أو جهاد ، وهو معنى قولهم الفقير ابن وقته ، وإنما يتم له ذلك بقوة الحزم وقصر الأمل وجعل الموت نصب العينين . الثانى : أن تحفظ بطنك وما يدخل فيه من قوت ، وتحفظ فرجك أن يزيغ بك إلى الحرام أو إلى فضول الحلال ، وذلك معنى جعل الحزام عليها ، لأن البعير متى حزم كان طوع اليد . الثالث أن تحفظ خواطرك ، وفى هذا معنيان : أحدهما أن تراقب قلبك فلا يهجس فيه إلا الحق ، وهذا كما قال بعض السلف : لى كذا وكذا وأنا بواب على قلبى ، فمتى تحرك إلى ما لا ينبغى صرفته وهى حالة عزيزة . الثانى أن تضبط الخواطر فتميز فيها بين الربانى والملكى والإنسانى والشيطانى ، وتتحقق كل واحد بعلاماته ، وتعرف ما تتبع من ذلك وما تخالف . الرابع : أن تحفظ لسانك وهو معنى خزنه ، وذلك على معنيين : الأول أن تؤثر الصمت إلا حيث لابد منه ، وهو أحد أركان الولاية التى صار بها الأبدال أبدالا ، وهى إخماص البطون وإسهار العيون والصمت والعزلة . الثانى أن تتحفظ فى منطقك فلا تتكلم إلا بما يعنى . ثم قال :

وإذَا تُصَاحِبُ أوْتُعاشِرُ فالْتَمِسْ غَيْرَ الجَلَنْدَدِ والدَّدانِ القَهْمَدِ

قد يراد بالصحبة ما يراد بالمعاشرة ، وقد تكون أخص بمعنى الخدمة والاقتداء كصحبة التلميذ لشيخه أو العكس ؛ والالتماس : الطلب ؛ والجلندد : الفاجر ؛ والددان الضعيف لاغناء له ؛ والقهمد : اللئيم الأصل الدنىء . يقول : إذا أردت صحبة أحد أو معاشرته فراع فيه التقوى والكفاية ، فالأول للدين ، والثانى للدين والدنيا ؛ ولا تصاحب من لادين له ولا منفعة له ، وهذا إشارة إلى شروط الصحبة ، فإنها من جملة ما يحتاج إليه فى الطريق أحيانا . ثم قال :

وإذَا اعْـتَزَلْتَ فبالمُحِلاَّتِ اعْـتَزِلْ
مِنْ عِلْمِ حالِكَ والقِوَامِ الأوْكَدِ

المحلات : الأشياء التى يحتاج إليها الإنسان إذا نزل وحده وهى القدر والرحى والدلو والقربة والجفنة والسكين والفأس والزند مثلا ؛ والقوام بالفتح : ما يعاش به ؛ والعدل وبالكسر : نظام الأمر وعماده ويصحان فى البيت . يقول : إذا أردت أن تعتزل عن الناس فلا بد لك من الأمور التى بها يتم حالك : كما أن من اعتزل عن الحى فلا بد له من المحلات وإلا لم يستطع العزلة : فكذلك أنت أيها المريد لابد لك من محلات ؛ وذلك شيئان : أحدهما يرجع إلى دينك وهو علم حالك : أى أن يكون عندك من علم الظاهر وعلم الباطن ما تحتاج إليه ، وإلا فسد دينك واختل حالك وأنت لاتشعر . ثانيهما يرجع إلى كفاية طبيعتك مما لابد منه من الغذاء ، ويكون ذلك إما بالقوت وإما بالقوة فإن المراد كفاء الطبيعة وإلا اختلّ البدن فاختل الدين . ثم قال :

والنَّفْسُ أعْدَى كُلِّ عادٍ يُختَشَى   وأضَرُّ سُمٍّ لِلْفَـتَى مُتَقَـلِّدِ
قَتْلٌ تُرِيدُ حَياتَهُ وَتَوَدُّهُ   وَيُرِيدُ قَتْلَكَ كالهِزَبْرِ المُلْبِدِ
أرْكِبْتَ مِنْها ظَهْرَ صَعْبٍ جامِحٍ
مُتَجَشِّمٍ لِهَوَى الهُوِى مُسْتَعْنِدِ
بَلْ ظَهْرَ مَوْجٍ رَاجِفٍ بِكَ سائِسا
أبَدًا لِضَارٍ لَمْ يُعَـلَّمْ مُوسِـدِ
فاقْتُلْ عَدُوَّكَ تَسْـتَرِحْ مِنْ كَيْدِهِ
فالقَتْلُ مِقْدَعُ أنْفِ كُلِّ جَلَنْدَدِ
والقَتْلُ إحْياءٌ لَهَـا وإراحَةٌ   فَلْيَصْفُ فِيهِ عَيْشُها ولْـيَرْغَدِ
فالخَمْرُ أعْذَبُها وأغْذَاها الّتى   قُتِلَتْ بِمَاذِيٍّ وَعَذْبٍ أبْرَدِ

السم المتقلد : المتعتق الذى يهلك سريعا ؛ والقتل بالكسر : العدو والجمع أقتال وبالفتح مصدر ؛ والهزبر : الأسد ؛ والملبد من اللبود إلى الأرض ،

وهو وصف الأسد إذا هم بالوثب ؛ والهوى بضم الهاء جمع هوة وهى الحفرة ، وبالفتح معروف ؛ واستعند البعير : غلب على الزمام ، وكذا الفرس إذا جمح وغلب على الرسن ؛ ورجف البحر والموج : اضطرب ؛ والسياسة : الحفظ ؛ والضارى : المولع ؛ والموسد : المغرى ، تقول أوسد الكلب وآسده : إذا أغراه ؛ والقدع فى الأصل : أن تضرب أنف الفحل ليرجع عن الناقة ؛ والجلندد : الفاجر ؛ والرغد من العيش : الواسع ؛ وغذا البلد يغذو بذال معجمة : طاب هواؤه وبعد عن الوخم ، وهذا أغذى من هذا : أطيب منه وأوفق للطبع ؛ وقتل الخمر : مزجها لتذهب سورتها ؛ والماذى بذال معجمة وياء مشددة العسل الأبيض : أى الصافى . يقول : إن نفسك التى بين جنبيك أيها المريد هى أعدى كل عاد تخشى أن يسطو عليك وأضر كل شىء يهلكك هى التى تحول بينك وبين كل خير ، وهى العائقة لك عن حضرة ربك ولذا قيل للذى طلب من الله تعالى الوصول والسبيل : اترك نفسك وتعال . ثم وصفها بأنها قتل : أى عدو تريد حياته وتوده : أى تحبه ، ولا أحب للإنسان من نفسه ولا يحب الحياة ولا كل خير إلا لها وهو يريد قتلك بمعصية مولاك وأن ينبذك فى النار فصار كما قال القائل :

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

واعلم أن كون النفس تريد هلاك صاحبها إنما هو بحسب الصورة والنظر إلى فعلها وسعيها : أى سعيها سعى من يريد الهلاك ، وإلا فهى لاتريد إلا الخير أبدا ، وإنما سعت فى المضرة لأنها أعطيت الشهوة الداعية ، ولم تعط من النظر فى العواقب والاستشراف إلى الغيب ما أعطى العقل ، فتوهمت أن كمالها وفوزها فيما حضرها من الملاذ ، ولم تدر ما وراء ذلك ، ولذا متى انكشف شيئا من العواقب السوء عن اللذة اعترفت به ووافقت العقل حينئذ ، فافهم وأخبر أنك أركبت من نفسك الأمارة بالسوء ظهر مركب صعب جامح لاينقاد لك معط بنفسه إلى المهاوى التى يهلك من وقع فيها مستعند عن الزمام ، ولامهواة له أعظم من الهوى ، وهو الميل إلى ما تشتهيه النفس وهو غالب على النفس ، لأن ذلك طبعها بل أركبت منها ظهر موج فى البحر مضطرب بك ولا شىء

فوق ذلك الهول وذلك الخطر ، وأنت فيها بمثابة من عنده كلب ضار على الصيد مغرى به وهو لم يعلم بعد بحيث ينزجر بالزجر فكيف يكون الحال معه . إذا علمت ما فى نفسك من العداوة والكيد فشأنك أن تقتلها بالرياضات من جوع وعرى وذلة وعزلة لتحسن صفاتها وتستريح من شرها ، فإن الفاجر لايقرع أنفه عنك إلا القتل ؛ ثم إن قتل النفس بما ذكر من الرياضة هو على التحقيق إحياء لها وإراحة ، وسبب لطيب عيشها واتساعه ، وذلك من جهات : منها فى الدنيا الراحة عن التعب والمكر والعنت وتجشم مداخل السوء والسلامة من التلوث بالعار والفضائح والنجاة من المهالك والمعاطب ، وتيسر الخير والانتهاض للمكارم والذكر والشرف الذى هو الحياة والخلود والقناعة ، والرضا الذى هو جنة الدنيا ونعيمها إلى غير ذلك ، وفى الآخرة الفوز بالرضوان والخلود فى الجنان ، وضرب مثلا بالخمر ، فان ألذها وأوفقها للطبع ما قتل : أى مزج بالعسل والماء العذب البارد ، وبذلك السلامة من سورتها ، وإنما قال أعذب وأغذى فى الخمر لأنها شراب . ثم قال :

وَتَسَلَّحَنْ مِنْ عِلْمِ ذَاكَ بِصَارِمٍ
خَزِمِ الغِرَارِ وَسَمْهَرِىٍّ سَمْهَدِ

واعْلَمْ بأنَّكَ قَدْ رَقِيتَ مُخاطِرًا
فى مَصْعَدٍ مُتَصَعِّبٍ مُتَصَعِّدِ

والْغُمْرُ مَنْ يَقْوَى وَلَيْسَ بِسالِحٍ
أوْ ذُو سِقاء فى المَلاةِ مُؤَمَّدِ

تسلح : لبس السلاح ؛ والسيف الصارم : القاطع ؛ والخزم : القطع ؛ وسيف خزم كفرح قاطع ؛ وغرار السيف : حده ؛ والسمهرى : الرمح ينسب إلى سمهر ، وهو زوج ردينة ، وإليهما تنسب الرماح فيقال سمهرية وردينية ؛ والسمهد : اليابس الصلب ؛ وأقوى : تباعد فى سفره ؛ والسالح : ذو السلاح ؛ والملاة : الفلاة ذات السراب ؛ والمؤمد من الأسقية : ما ليس فيها ماء . يقول : إذا اجتهدت فى رياضة نفسك طلبا للتخلية والتحلية ، فلا بد لك من علم ما تحتاج إليه فى ذلك بأن تبين الصفات المذمومة المهلكة والصفات المحمودة المنجية ، وما تنتفى به الأولى وما تحصل به الثانية باذن الله تعالى ، فان

ذلك بمثابة السلاح الذى تقاتل به عدوك . ولا شك أن مجاهدة النفس ومقاساة الرياضة من أصعب الأشياء . فأنت إذا اشتغلت بذلك بمنزلة من رقى مخاطرا بنفسه فى صعود متصعب على الراقى ؛ متصعد : أى عال بعيد ؛ والغمر من الناس : هو الذى يسافر الأسفار البعيدة . والحال أنه غير سالح بل أعزل أو ذو سقاء لاماء فيه . ثم قال :

واسْتَنْجِدَنْ مُتَبَرِّيًا مِنْ حَوْلِ حَوْ ... لِ اللهِ فى الطَّلِبات تَنْجُ وتُنْجَدِ

فالله أَنْجَحُ ما طَلَبْتَ بِهِ المُنَى ... وأحقُّ مَدْعُوٍّ وَخَيْرُ مُؤَيِّدِ

ما لَمْ يُسَهِّلْهُ فَلَيْسَ بِساهِلٍ ... أبَدًا وَلَسْتَ لِنَيْلِهِ بِمُؤَيَّدِ

والأمْرُ إنْ لَمْ يُؤْتِهِ ما لِلْفَتَى ... لِمَنالِهِ فى الدَّهْرِ مِنْ مَعْلَنْدَدِ

المُلْكُ والمَلَكُوتُ قَبْضَتُهُ وَما ... تَنْفُذْ مَشِيئَتُهُ بِهِ لَمْ يُرْدَدِ

فالنَّاسُ بَيْنَ مُيَسَّرٍ ومُعَسَّرٍ ... أبَدًا عَلَيْهِ وَمُجْتَبًى وَمُبْعَدِ

ومُرَفَّلٍ بِقَضَائِهِ وَمُرَفَّتٍ ... أبَدًا وَمُشْقًى فى المَعادِ وَمُسْعَدِ

وَمُرَفَّهٍ فى هذهِ وَمُشَظَّفٍ ... فيها وَمَحْرُومٍ هَوَاهُ وَمُشْكَدِ

رَبُّ الوَرَى مِنْ مُوفِضٍ وَمُهَوِّدِ ... مُفْضٍ جَمِيعُهُمُ إلى مَا خَطَّهُ

الاستنجاد : الاستنصار ؛ والإنجاد : النصر ؛ والطلبة بكسر اللام : ما يطلب والتأييد : التقوية ؛ والساهل : السهل ؛ فإذا قيل سهل الشىء فهو سهل فليس بسهل ؛ فان أريد التجرد فى المستقبل قيل ليس هذا بساهل : أى لايسهل ؛ وهكذا فى كل وصف من هذا الباب ؛ ومالى إلى هذا الأمر معلندد : سبيل ؛ والمجتبى : المختار ؛ والترفيل : التعظيم ؛ والترفيت ضده وأصله الكسر : يقال رفت الشىء : كسره ؛ والرفاهية : الاتساع فى العيش ؛ والشظف : الشدة فيه والضيق ؛ والشكد : العطاء ؛ يقال شكده وأشكده ؛ والحرمان ضده ؛ والإيفاض الإسراع فى السير ؛ والتهويد : المشى الرويد والإبطاء فى السير يقول : إذا أردت السلوك والمجاهدة مع ما مر كله ؛ فاستعن بالله واستنجد حوله وقوته بعد أن تتبرأ من حولك وقوتك ينجك من شر نفسك ومن كل

ما تخاف وينصرك على هواك ويقويك على ما تروم من طاعته ؛ فالله تعالى أنجح ما طلبت به كما قال امرؤ القيس :

فالله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

وهذا البيت مشير إلى مجموع الحقيقة والشريعة ، وقد بينا ذلك فى كتاب المحاضرات ، وهو تعالى أحق من تدعو لحاجتك إذ لايملكها غيره وخير مؤيد لك ، وأى أمر لم يعطه الله تعالى عبده فليس له إلى لقائه أبدا سبيل ، فإن جميع الملك وهو ما تشهده الأبصار كأجرام السماء والأرض وأعراضها الحسية والملكوت وهو ما تشهده البصائر ككون العالم مفتقرا إلى صانع يوجده ويدبره كله فى قبضة الله ليس للعبد منه إلا ما أعطاه وما شاء الله من ذلك كان ومالم يشأ فليس بكائن ؛ فالناس على ما يرى بالبصر والبصيرة ويعرف بالتجربة أصناف منحصرة بين هذه الأحوال المذكورة وما أشبهها ، فهذا ميسر له فى الرزق الحسى والمعنوى كليهما ، وهذا معسر عليه فى ذلك ، وهذا مقرب بالنبوة أو الإيمان والطاعة ، وهذا مبعد بالكفر أو المعصية ؛ وهذا معظم فى الدنيا أو فى الدين أو فيهما ، وهذا مهان فى ذلك أو فى بعضه ، وهذا مشقى فى المعاد فيخلد فى النار ، وهذا مسعد فيدخل الجنة أوّلا أو بعد حين ، وهذا منعم فى الدنيا وهذا مقضىّ له بالبؤس ، ولا يلزم من الإيسار الرفاهية ، فرب ذى وفر لم ينعم به وبالعكس ، وهذا معطى ما يتمنى من دنيا أو دين أو علم مثلا ، وهذا محروم ، وجميعهم صائر إلى ما خطه الله : أى فى كتابه فى اللوح علما قديما ، سواء منهم من أسرع الأوبة إلى الآخرة ومن بقى ، أو من حرص فى نيل أغراضه ومن توانى ، فهذا كله باب الحقيقة لابد أن يحكمه المريد اعتقادا أو تحقيقا ، ثم يتعاطى الأسباب الشرعية إقامة للشرع كما يأتى . ثم قال :

فالحَقّ فاعْرِفْهُ لأهْلِ الحَقّ لا تُسْنِدْ لِغَيْرِ الله شَيْئا تَهْتَدِ
واعْمَلْ عَلى حَسَبِ الخِطابِ إقامةً للرَّسْمِ تَعْدِلْ فى الأُمُورِ وتَقْصِدِ
والتَدْبِيرِ بِرَبِّكَ فى المَطالِبِ كُلِّها واستَمْدِدْ مِنْهُ الإعانَةَ تُمْدَدِ

يقول : اعرف الحق لأهله وهو الله تعالى ، فان له غيب السموات والأرض

وإليه يرجع الأمر كله ، ولا تسند فعلا ولا حكما ولا فضلا لغير الله ، واعزل نفسك عن الحول والقوة ، فلا فعل لك ولا حركة ولا سكون ولا تدبير ولا مشيئة ، بل ذلك كله للواحد القهار ، ومع ذلك فلا بد لك من أن تعمل بحسب ما جعل لك من الكسب ما خوطبت به من التكاليف إقامة لرسم الشريعة ، معتقدا أن الفعل بالحقيقة لله تعالى وفى الصورة هو لك ، فإذا كنت كذلك فقد عدلت ، بأن جمعت بين الحقيقة والشريعة ولم تزغ إلى الجبر المحض ولا إلى القدر المحض ، وهذا هو القصد : أى التوسط فى الأمر ، وخير الأمور أوسطها . وإذا علمت أنه لافعل لك ولا إرادة لم يبق لك إلا الالتذاذ بالله والتعلق به وطلب المدد منه فى كل حركة وسكون ، فأنت كما احتجت أولا إلى الإيجاد وقد وقع ، فأنت محتاج إلى الإمداد وهو مستمر لايزايلك ، ولو انقطع لحظة لم تكن شيئا مذكورا . ثم قال :

وَلْتَرْفُ ما أَوْهَتْ يَدَاكَ وإِنْ وَهَى ... أيضًا فَبابُ العَفْوِ لَيْسَ بِمُوصَدِ

والغَيْثُ يُصْلِحُ ما استَحالَ بِبَرْدِهِ ... وَدَوَاءُ شَقٍّ أَنْ يُخاصَ بِمِسْرَدِ

وَارْكَبْ جَوَادَ العَزْمِ مُرْتاضًا فما ... نالَ المَدَى فى المَجْدِ غَيْرُ المِجْوَدِ

وارْكُضْهُ فى مَيْدَانِ ذَاكَ فما استَوَى ... نَيْلُ المُجِدِّ بِهِ وَنَيْلُ المُرْوِدِ

الرفو : الإصلاح ؛ والوهى : الشق فى الشىء ؛ وأوصد الباب : أغلقه ؛ واستحال الشىء : فسد ؛ والحوص : الخياطة ؛ والمسرد : آلته ؛ وأجود الفرس واستجاده : طلبه جيدا ، وأجود الرجل سار ذا جواد من الخيل ؛ وأرود فى مشيه : أمهل . يقول : إذا أفسدت شيئا فأصلحه فيما بينك وبين الله تعالى بالتوبة والإقلاع والندم على ما فات مع تدارك ما يمكن تداركه ، وما بينك وبين العباد بالتوبة أيضا مع التنصل من المظالم ، إما بغرم أو استحلال فيما يمكن أو تصدق على صاحب الحق إن لم يوجد ، وحكم المسألة مفصل

فى محله ، وإن وقعت فى زلة أيضا بعد التوبة فلا يبطل ما يتقدم من التوبة على الصحيح ، ولكن عد إلى التوبة فإن بابها مفتوح ، فمتى تعودت نفسك المخالفة فعوّدها التوبة ، وقد قال تعالى ـ إن الحسنات يذهبن السيئات ـ ومثل لذلك بذكر مثلين سائرين : أحدهما قول العرب : الغيث يصلح ما أفسده برده . بمعنى أن الصر ييبس الأرض والنبات ، فإذا جاء الغيث صلحت الأرض وبرئت آفاتها ، وكذا التوبة تصلح ما فسد . الثانى قولهم : إن دواء الشق أن تحوصه : أى إذا خرقت شيئا فحقك أن تخيطه فذلك دواؤه ، وكذلك إذا عصيت أو ظلمت أحدا ، فحقك أن تتوب وتستخرج منه ، ثم استصحب العزم التام فى سيرك فانه مركوبك ، فمتى كان جوادا بلغت الغرض وإلا فلا وعليك مع ذلك بالجد والمجاهدة ؛ وإياك والتراخى والتوانى وارتعاء روض الأمانى * فما نيل مجد بالهوينا أبدا * ثم قال :

وَلَدَى الصَّباحِ يَكُونُ إحْمادُ السُّرَى
وَلَدَى الرِّباحِ رِضَا التُّجارِ الكُدَّدِ

والوَجْهُ ذُوشَحَطٍ عَلى مَنْ رَامَهُ ... يُعْيِا عَلى العَوْدِ النَّباطِيِّ الأَجْلَدِ
وَمَجاهِلٌ مَا لِلْقَطَا بِفِجاجِها ... سُبُلٌ ولا فِيها دُعَيْمِيصٌ صَدِى
وَمَداحِضٌ مَنْ زَلَّ فِيها يَعْتَلِقْ ... أَشْطانَ شَيْطانٍ غَوِىٍّ مُفْسِدِ
وَمَخاوِفٌ مَنْ شَذَّ عَنْ رُفْقَائِهِ ... فِيها تَرَوَّى مِنْ لُعابِ العِرْبِدِ

الوجه : الجهة التى يريدها المسافر ؛ والمراد هنا جهة السلوك إلى حضرة ملك الملوك ؛ والشحط : البعد ؛ والعود : المسنّ من الإبل ؛ والنباطى : نسبة إلى النبط ، فان إبلهم قوية ، ولذا قال امرؤ القيس :

على لاحب لايهتدى بمناره ... إذا ساقه العود النباطى جرجرا

والأجلد : الأقوى ؛ والمجهل : ما ليس له أعلام يهتدى بها ولذا وصفه بأن القطا لاتهتدى فيه وهى أهدى الطير ؛ ودعيميص : عبد خرّيت ماهر يقال له دعيميص الرمل، وما كان يدخل أرض وبار غيره وهى أرض بين اليمن وزمال بيرين سميت بوبار بن إرم ، فلما أهلك الله أهلها عادا سكنها الجن ،

فما يقدر أحد أن ينزلها ، فقام دعيميص هذا فى الموسم وجعل يقول :

فمن يعطنى تسعا وتسعين بكرة   هجانا وأدما أهـدها لوبار

فقام رجل وأعطاه وتحمل معه بإبله ، فلما توسطوا تلك الرمال طمست الجن عين دعيميص فحار وهلك فيها ، ويقال هو دعيميص هذا : أى عالم به ؛ وصدئ الإنسان بالكسر والهمز انتصب فنظر ؛ والمدحض : المزلق ؛ والزلل : السقوط ؛ والشطن : الحبل جمعه أشطان ؛ والمخاوف جمع مخافة ؛ وشذ عن الناس : انفرد عنهم ؛ والعربد كزبرج : الحية . يقول : إن هذا الوجه الذى أنت قاصده أيها المريد السالك ذو بعد على من أراده لو سلكه العود النباطى القوى لغلبه ، وفيها مجاهل تحار فيها القطا ولا تجد سبيلا ، وما قام فيها قط دعيميص ينظر أين الطريق بل هى فوق ذلك كله ، وذلك المنازل والمقامات والأحوال وما يعتدى من الخواطر ويقع من التصرفات ويعترض من الجزئيات التى تحتاج إلى شيخ ناصح أو أخ صالح ، فيها مزالق من شذ فيها عن القوم وخرج عن المنهج لم يعدم حية تسقيه لعابها وترويه من سمها فتقتله أو تضنيه أو تكربه ، والمراد أن يقع فى كفر أو بدعة أو حيرة أو خفة عياذا بالله ولاسيما فى مجاهدة الفتح وطريقة الأنوار ، فإنها إما الملك وإما الهلك ، نسأل الله من فضله ونعوذ به من الزيغ . ثم قال :

فَلِذاكَ كانَ عَلى مُرِيدٍ سالِكٍ   فِيها مُصَاحَبَةُ الدَّلِيلِ المُرْشِدِ
شَيْخٍ بَصِيرٍ رَائِدٍ بِكَ وَارِدٍ   شَرَابَ أَنْقَعِ كُلِّ خَرْقٍ صَيْهَدِ
يَهْدِيكَ مَتْنَ النَّهْجِ فى ظُلَمِ الدُّجَى   بِسَنًى وإنْ تَشْكُ النَّفاضَ يُزَوِّدِ
وَيَقِيكَ كَيْدَ حُظَيَّةٍ مَسْمُومَةٍ   تُرْمَى بِها أَوْ نَفْثَ أَسْوَدَ مُمْغِدِ
وَيُزَاوِلِ الأَدْوَاءَ عَنْكَ فإِنَّهُ   مَنْ يَدْوَ يُسْعَطْ بالدَّوَاءِ وَيُلْدَدِ

الرائد : الطالب الماء والكلأ ؛ والوارد : الشارب ؛ والنقع : ما يجتمع فيه ماء المطر ، ويقال فى المثل : هو شراب أنقع إذا كان خبيرا بالبلد يعرف أنقعها فيقصدها ؛ والخرق : القفر الواسع ؛ والصيهد : الفلاة لاينال ماؤها ؛

والسنى بالقصر : الضوء كما مر ؛ والنفاض : فناء الزاد ومنه المثل : النفاض يقطر الجلب . وانفض القوم انفضاضا ؛ وزوده : أعطاه زادا ؛ والحظية تصغير الحظوة بفتح الحاء وقد تضم ، وهى سهم صغير يرمى بها الصبيان ، ومنه المثل : إحدى حظيات لقمان : أى لقمان بن عاد وهى سهامه ؛ والأسود : الحية كما مر ؛ والممغد : المصاص مفعل من المغد وهو المص ؛ وزاوله : عالجه ودافعه . والأدواء جمع داء ؛ ودوى : مرض ؛ والسعوط من الدواء : ما يفرغ فى الأنف ويسعط به ؛ واللدود ما يجعل من جانب الفم وقد لده ، وفى الحديث « لايبقى أحد فى البيت إلا لُدَّ » . يقول : فلأجل ما قلنا من صعوبة الطريق وبعدها واشتمالها على المجاهل والمداحض كان من أوكد الأمور على السالك صحبة شيخ يرشده بقوله وفعله ويؤيده بهمته ؛ ثم وصفه بأنه ينزل بك المنازل الصالحة من التحقيق ويكون خبيرا بالطريق يهديك إلى المحجة الواضحة بعلمه ومدده ، وإن احتجت إلى علم أو وقفت همتك أمدك بما تحتاج من العلم والهمة ، وقد يكون فى الزاد الحسى إما من عنده أو بهمته ، ويقيك سهام النفس والشيطان وسموم الشهوات حفظا بهمته وعلاجا إن سبق القضاء بوقوع شيء من ذلك ، ويعالج عنك كل داء كان فيك أو عرض لك ، فإن الداء يحتاج إلى العلاج بالسعوط واللدود وغيرهما . ثم قال :

فالنَّفْسُ مُفْعَمَةٌ دَنايا مَنْ يَرُمْ ... مَعَهَا دُنُوًّا لِلْمَكارِمِ يَبْعُدِ
وَمَنِ ابْتَغَى مَعَهَا ارْتِقاءً لِلعُلَى ... يُحْطَطْ وَمَنْ يَلِجِ السُّرادِقَ يُطْرَدِ
فَتَمَخَّ مِنْ أَدْوائِهَا وَتَوَخَّ مَا ... يُرْضِي الإِلَهَ مِنَ المَساعِي القُصَّدِ

المفعم : المملوء ، يقال أفعم القربة : إذا ملأها ؛ والدنايا جمع دنية ، وهى كل خسيس مذموم ؛ وولج ولوجا : دخل ؛ والسرادق : ستر ينصب على صحن الدار ويستعار فى الشرف والرفعة كقوله : سرادق المجد عليك ممدود ؛ وتمخيت من الأمر : تبرأت منه ؛ ووخيت الشيء وخيا : قصدته ؛ وتوخيت الأمر : تحريته . يقول : إنما أكدت فى صحبة الشيخ لنفس صعبة القياد كثيرة العناد كما مر ، فهى مشحونة بالرعونات والصفات المذمومات كل من يروم معها : أى مع تلك الدنايا ، أم مع النفس المشحونة بها أن يدنو

من المكارم وهو التحلى بالكمال والتخلق بالأخلاق المحمودة فإنه يبعد ولا يحظى بها ، إذ هى ضد ما هو عليه من صفات نفسه ، والضدان لايجتمعان ، وكذا من طلب الارتقاء إلى شرف والبلوغ إلى منزلة من ولاية أو صدّيقية ، فإنه يحط بها إلى أسفل سافلين ، وهو معنى قوله تعالى ـ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ـ ومن أراد الدخول إلى سرادق الملك : أى الحضرة الربانية ، فإنه يطرد عنها إذ هو متلوّث ، ويصح أن يكون إشارة إلى خيل الحلبة ، فإن الآخر منها كاللطيم ، والفسكل : لايدخل السرادق ، فكان حقا عليك أيها المريد أن تتبرأ من أمراض نفسك : أى أن تسعى فى ذلك ، وتتحرى من المساعى ما فيه رضا ربك فتقصده ، وإنما يمكنك ذلك بعد الخلاص من النفس ، وقصد الخلاص منها أوّل ما تتحرّى . ثم قال :

وَلَقَدْ سَقَطْتَ عَلَى الخَبِيرِ بِدَائِهَا
مِنْ نَجْلِ نَاصِرِ الإِمَامِ الأَرْشَدِ

فإذَا غَشِيْتَ ذَرَاهُ فَالزَمْ غَرْزَهُ ... واعْضُضْ عليه بِالنَّوَاجِذِ واشدُدِ

واحْطُطْ رِحالكَ فى ذَرَاهُ مُلْقِيا ... أبَدًا عَلَيْهِ شَرَاشِرَ المُسْتَنْجِدِ

وَاخْلَعْ إلَيْهِ بِكُلِّ أمْرِكَ وَلتَكُنْ
فِى حَجْرِهِ مِثْلَ الصَّبِىِّ المُمْغَدِ

الغرز : ما يدخل فيه الراكب رجله فيقول الزم غرز فلان : أى سر معه أينما سار ؛ والنواجذ بالمعجمة : أقصى الأضراس ، وقيل الأنياب أو التى تليها ، وقيل الأضراس كلها ، والعضّ بها كناية عن الاستحكام من الشىء ولزومه ؛ وحطّ الرحال : عبارة عن الوصول إلى ما لايطلب وراءه ؛ والشراشر : النفس والأثقال ؛ والإمغاد : الإرضاع كما مرّ . يقول : إنك أيها المريد إذا هالتك عيوب نفسك ، وأردت التخلى منها ، فقد وقعت على من هو خبير بها ، وهو الإمام ابن ناصر ؛ و « من » إن كانت للبيان فظاهر ، وإن كانت للابتداء فهى تجريد كما تقول : لى من فلان صديق حميم : أى بلغ من الصداقة حدّا يمكن أن يستخلص منه آخر فيها معه ، فإذا بلغت حماه فالزمه ولا تفارقه ، وشدّ عليه

يد الضنين فلا تسخ به ؛ واحطط عنده رحالك مستنجدا به : أى مستنصرا ، واخلع إرادتك واجعلها فى يده ، فما أمرك به فائتمر ، ولا يكن لك معه تقديم ولا تأخير ولا تأويل ، وكن كالصبيّ فى حجره . ثم قال :

لاتَعْجزَنْ عنهُ فتُصبحَ كالّذِى يشكو الصَّدَى حولَ الزُّلالِ المِرْوَدِ
أوْ يشتكى ظُلْما وبَدْرٌ طالِعٌ وَسْطَ السَّماءِ بجُنْحِ ليْلٍ مُنْبَرِدِ
أوْ كالّذِى قَرِحَتْ بُطُونُ جُفُونِهِ
مَرَهاً وأثْمَدُها لدَيْهِ بمِقْلَدِ

المرود : النهر ؛ وجنح الليل بالكسر ويضمّ أيضا : طائفة منه ؛ وبرد الليل فهو مبرد كمنبر ، وأبرد : دخل فى البرد ؛ وأبرد الماء : جاء به باردا ؛ والمره : فساد العين من عدم الكحل ؛ والمقلد : الوعاء والخلاة . يقول : إياك أن تعجز أيها المريد عن الوصول إليه أو عن صحبته فتصير عطشانا والماء الزلال قريب منك ، أو تكون كالذى يرى أنه فى ظلمة الليل والبدر طالع ، ولم ينتفع به مع كونه فى وسط السماء وهى ضاحية ، أو كالذى فسدت عينه من عدم الكحل وهو موجود معه فى وعائه لو حرّك يده لأخذه بلا كلفة . ثم قال :

فهوَ الّذى يَغْذُوكَ مِنْ نَفَحاتِهِ بجَدًى مِنَ الأنْوارِ غيرَ مُصَرَّدِ
ويُسيغُكَ الأفْضالَ رَحْبا مُمْرِعا أكْنافُهُ إنْ ضاقَ كُلُّ مُزَنَّدِ
بحرٌ متَى تُقْبِلْ إليْهِ لا تجِدْ كُلَفَ السُّؤالِ ولاهَريرَ الأعْقدِ
ومَتَى يُنِخْ رَكْبٌ علَيْهِ فانْثَنَوْا
صارُوا مُناخا للْوُفُودِ القُصَّدِ

أمرع الوادى ومرع مراعة : أعشب ؛ والمزند بالفتح : البخل ؛ والهرير : صوت الكلب دون النباح ؛ والأعقد : الكلب . يقول : إن هذا الشيخ هو الذى يغذوك أيها المريد من نفحاته : أى النفحات الربانية الآتية على يده بجدًى وهو المطر كما مرّ ، غير أنه هنا من الأنوار الربانية ، وهو غير مصرد : أى غير مقلل ، وهو أيضا يسوغك من أفضاله إفضالا رحبا : أى واسعا خصيب الأكناف إن ضاق كلّ بخيل أن تجده عنده مثل هذا الفضل ، وهو بحر : أى

واسع الخير متى أقبلت إليه لم يتعجّب من إقبالك ، ولم تسأل لكثرة الواردين مثلك ، ولم تهرّك الكلاب لإلفها الناس ، وهذا من قول حسان :

يغشون حتى ما تهرّ كلابهم لايسألون عن السواد المُقبل

وقد قيل : إنه أمدح بيت قالته العرب ، وقال :

وكلبك أرأف بالزّائريـ ن من الأم بالابنة الزائره

ومتى أناخ أحد بهذا الشيخ طلبا للنوال منه ، فإنه يغنيه حتى يصير هو مناخا للناس . ثم قال :

شَرَفًا لِدَرْعَةَ إذْ تَسَمَّى بِاسْمِها نَسَبًا وإذْ وَافَتْهُ أوَّلَ مَوْلِدِ
وَلِغَرْبِنا إذْ كانَ مِنْهُ أرْضُهَا وَلِسائِرِ الدُّنْيا بِهَـذا المَقْصَدِ
بَلْ لِلسَّمَوَاتِ العُلَى إذْ كانَ مِنْـها رُوحُهُ فَلْتَعْلُ مِنْهُ وَتَمْجُدِ

يقول : شرفت درعة بدال مهملة ، وهى بلد الممدوح شرفا حيث تسمى باسمها نسبا فقيل درعى ، وحيث وافته : أى لقيته أول مولد : أى أول الولادة ، فكانت مسقط رأسه ، فالمولد هنا مصدر كما رأيت ، وهى فى قوله أول القصيد عن والدين ومولد مكان ، فلم يتكرر اللفظ فى القافية لاختلاف المعنى ، وشرف غربنا كله شرفا إذ كانت منه درعة ، ثم شرفت الدنيا كلها إذ كان منها الغرب أو درعة ، بل للسموات شرف إذ كان منها روحه إبداعا وتنزلا كسائر الأرواح ، فحقها أن تعلو بذلك وتمجد : أى تزداد علوا ومجدا لأنها قد علت قبل بأرواح الأنبياء والصديقين ، والعلو مما يقبل الزيادة ولو بأضعف ما كان أولا . ثم قال :

شَمْسُ الزَّمانِ وَسَعْدُهُ وَمَلاذُهُ وَجَدَى المَحِيلِ وَغُنْيَةُ المُسْتَرْفِدِ
فالدَّهْرُ نُورٌ لَيْلُهُ وَنَهارُهُ مِنْ نُورِهِ مُعْطٍ يَدَ المُتَعَبِّدِ
حَتَّى تَوَهَّمَ سَبْعَ أُمَّاتٍ لَهُ زُوِّجْنَ مِنْ رُومٍ بِسَبْعَةِ أعْبُدِ

الملاذ : الملجأ ؛ والمحيل : الأرض الجدبة ، يقال أرض محلة ومحل ومحول ومحلت الأرض فهى ماحل وماحلة ومحيل للمبالغة ؛ والرفد : الإعطاء ؛ والمسترفد طالبه ؛ والمتعبد المتذلل ؛ والأمات جمع أمة . يقول : إن هذا

الشيخ هو شمس الزمان لإشراقه به فى قلوب المؤمنين علما ومعرفة وصلاحا وهداية ، وهو سعده لظهور هذه الخيرات به ، وهو ملاذه : أى ملجأ أهله فى دينهم ودنياهم ، وهو جدى : أى غيث الأرض المحل بما يظهر مع وجوده بما مر من البركات فى الأرزاق والأعمال وغير ذلك مما لايحصى من المنافع التى يسديها المولى تعالى ببركة وليه ، وهو غنية : أى كفاية المسترفد فى العلم والنورو الهداية والكفاية ، وقد يكون فى الدنيا أيضا ، إما من يده وإما بدعائه وهمته ، فالدهر بوجوده كله منور ليله ونهاره ، وأولياء الله هم نور الدنيا والدهرمع ذلك معط يد الطاعة له ، حتى إنه لو نظر فيه المتفكر لتوهم أن الأيام والليالى عبيد له وإماء ، فكأن سبعا من إماء الزنج زوجت بسبعة أعبد من الروم ، وهذا المعنى قد تعاطاه الشعراء مبالغة وتمليحا ، وإذا كانوا يركبون ذلك فى الملوك أبناء الدنيا ، فنى أولياء الله أهل التصرف فى الوجود أولى ، فإن الولى إذا جعل فى مرتبة التصرف أمكن أن تكون الكائنات كلها تحت طوع يده باذن الله تعالى الذى يقول للشيء كن فيكون ، فيتصرف فى الزمان كما يتصرف فى غيره .

وقد حدثونا عن سيدى عبد الله القزوانى دفين القصر ومن حضرة مراكش حرسها الله تعالى أنه خرج ذات مرة إلى بعض القبائل لإيقاع صلح فى أمر وقع ، فلما راح إليهم افتتح الذكر ، فتواجد الناس كلهم حتى اختلط الفريقان ، ولم يزل ذلك دأبهم جميع الليل وكان ذلك فى رمضان ، فلما علم الفجر صاح الناس وأشفقوا من بقاء الناس بلا سحور وأعلموه ، فقام وقال : بأمر الله ارجع ، أو كما قال : فذهبت تباشير الصبح التى ظهرت وأقبل الليل بظلام كما كان ، حتى تسحر الناس واكتفوا وفرغوا ، فعند ذلك جاء الفجر ، وأصله استيقاف الشمس ليوشع ، ثم لنبينا عليهما الصلاة والسلام ، وكل ذلك فعل الله تعالى وإرادته ، إذ لاتأثير لمخلوق فى شيء من الأشياء ، وإنما الولى ظرف تجرى فيه هذه التصاريف وعلى يديه إذا أراد الله وقوع شيء جعل فى قلب الولى إرادته فيوقعه تعالى على وفق ذلك ، ومتى لم يرد وقوع شيء لم يجعل فى قلب الولى إرادته ، فليس ثمّ إلا الله وحده لاشريك له فافهم . ثم قال :

زَمَّ الركابَ مُشَرِّقاً فَعَجِبْتُ من شمسٍ تُشَرِّقُ فوقَ ظَهْرِ الفَدْفَدِ
حتّى بَدَا لى أنّها شمسُ الضُّحَى ذهبتْ لِمَطْلَعِها الأجلِّ الأصْعَدِ
وَجَدًى جَلَا بالغَرْبِ مَحْلاً فانْتَحَى للشَّرْقِ رائِحُ مُزْنِهِ والمُغْتَدِى
وَوَلِىُّ قَوْمٍ آبَ نَحْوَ مَلِيكِهِ مُسْتَحْدِثاً للعَبْدِ خَيْرَ مُوَفَّدِ
فأتى بِمَنْشُورِ الوِلايَةِ ثانِياً أوْفى بِهَا مِمَّا أتى بادِى بَدِ

زمّ البعير: جعل له خطاما، ويكون ذلك لقصد الارتحال والسير؛ وشرق تشريقا: توجه إلى المشرق؛ والفدفد: الفلاة؛ والأصعد: الأرفع، وانتحى قصد؛ ووفد عليه: قدم؛ وفده توفيدا: استقدمه؛ والمنشور: ما يكتب من عهد لمن ولى خطة وفعل كذا بادى بدء وبادى بدى: أول شيء وخففا معا فى البيت. يقول: ارتحل هذا الشيخ إلى الشرق وهو شمس الدنيا كما مر فعجبنا كيف تذهب الشمس إلى جهة المشرق مع أن حركتها الظاهرة وهى القسرية إنما هى فى السماء، فالعجب من الأمرين، ووجه تناهى التشبيه قضاء حق المبالغة كما فى قوله:

قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس

ثم أخبر أنه ظهر له أن الشمس إنما تذهب لمطلعها ولكن من تحت الأرض، فهذه كذلك ولكن فوق الأرض، وأنه غيث أصاب المغرب حتى اكتفى وتجلى عنه المحل فتولى للمشرق مزنه الرائح والغادى، وأنه ولى على قوم وهم أهل المغرب ثم ذهب وافدا على مليكه الذى ولاه يستجد عهد الولاية، وهو هنا الله ورسوله، وقوله: أتى بمنشور الولاية هنا متوجه للمعنيين، وكذا ولى قوم فافهم. ثم قال:

وَفى مَقاماتِ الهُدَى فَسَمَتْ بِهِ لِمَقامِ إبْراهِيمَ هِمَّةُ مُنْهِدِ
وَغَدَا إلى بَيْتِ المَطافِ بُعَيْدَمَا أضْحَى مُطافاً للوُفُودِ الصُّمَّدِ
فَغَدَا لِبانُ الغَرْبِ مِنْهُ عاطِلاً وَعَلا لِبانُ الشَّرْقِ أسْنَى مِنْجَدِ

مقامات الهدى : هى مقامات اليقين من التوبة والزهد والتوكل والتفويض ونحوها ، ومقام إبراهيم : يراد به الحجر المعروف أو المكان كله أو درجته عند الله تعالى أو فى العلم واليقين ؛ والمنهد : مفعل من النهود كما مر ؛ والصمد القاصدون ؛ واللبان : الصدر ؛ والعاطل : الخالى من الحلى ؛ والمنجد بالكسر حلى مكلل بالفصوص فى عرض شبر يكون فى موضع النجاد من العنق إلى أسفل الثديين . يقول : إن هذا الشيخ بعد أن وفى مقامات اليقين فاستولى عليها تحققا وذوقا ارتفعت به الهمة النهادة إلى المعالى طلبا لمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام : أى بيت الله الحرام أو مقامه من الله تعالى اتصافا وتحققا كما اشتهر أن أولياء الله منهم من يكون قلبه على قلب إبراهيم ، وفى الكلام توجيه وذهب إلى بيت الله الحرام الذى هو مطاف : أى مكان طواف بعد ما كان هو أيضا مطافا للوافدين من المريدين والمتعلمين والزائرين ، فصار الغرب بعده عاطلا من حليه ، لأنه كان زينة وصار منه على الشرق ، وحين وصل إليه أبهى زينة . ثم قال :

فالْغَـرْبُ مُذْ فازَتْ بِـهِ أيْدِي النَّوَى
كَـمَغِيبَـةٍ مُذْ وَدَّعَتْ لَمْ تَهْجُدِ
وكأنَّهُ مُذْبانَ جَفْنٌ بانَ عَنْـهُ نَوْمُهُ أوْسَيْفُهُ مِنْ مِزْأَدِ
ونَهارُهُ مُذْ بانَ لَيْسَ بأبْيَضٍ واللَّيْلُ إذْ وَافاهُ لَيْسَ بأسْوَدِ

المغيبة : المرأة يغيب بعلها ؛ وهجد هجودا : نام ؛ والجفن : جفن العين المنطبق عليها ؛ وجفن السيف : هو الغمد ؛ والمزأد مفعل من قولك زئد فهو مزءود : أى خائف مذعور ، وزأده : أفزعه . يقول : إن الغرب مذ ذهب عنه الشيخ بمنزلة المرأة التى يغيب عنها زوجها فلا تنام حتى يرجع ، أو بمنزلة الجفن : أى جفن العين يذهب عنه نومه ؛ أو جفن السيف يذهب عنه سيفه بالاستلال لفزع ، وقد استعمل المشترك فى معنييه معا ، فالنهار حين بان ليس بأبيض لغلبة ظلام الجهل والبدع ، والليل حين حضر ليس بأسود لإشراق الهدى والسنة والدين . ثم قال :

وَافَى فأشْرَقَتِ البِلادُ وأيْنَعَتْ ثَمَرُ المُنَى مِنْ كُلِّ فَرْعٍ مُنْقَدِ

تَهْتَزُّ عَنْ طَرَبٍ كَمُظْلِمِ مَهْمَهٍ
سِيمَ الضَّلالُ فَلاحَ بَدْرٌ مُنْتَدِ

وَتَقُولُ أهْلاً بالإمامِ وَمَرْحَبا
قَوْلَ الرُّبا للغَيْثِ بَعْدَ المَجْهَدِ

فَرَحَ المُبَشَّرِ بالغُلامِ بُعَيْدَما
يأْسٍ وَمَظْلُومٍ هَضِيمٍ مُنْجَدِ

وافى : أتى ؛ وأينعت الثمرة وينعت حان قطافها ؛ وأنقد الشجر : أورق ؛ والمنتدى : الطالع ، وأصله قولهم ندأ علينا فلان بالهمز إذا طلع فتقول منه انتدأ فهو منتدئ ويخفف كما فى البيت ؛ وهضمه : ظلمه ؛ واهتضمه فهو مهضوم وهضيم ؛ وأنجده : نصره وأعانه . يقول : وفى هذا الشيخ : أى بلغ إلينا فأشرقت البلاد بوجوده ، وطابت ثمار المنى ، فمن كانت له منية خير أدركها ببركته ، ومتى تمنى هذا الأمر قبل ذلك ، فهذا حين أدرك تهتز : أى البلاد طربا كما تهتز المظلم : أى الداخل فى ظلمة فى مهمه توقع الضلال عن الطريق فلاح بدر طالع فذهب كربه وأمن مما خاف ، وهذا المعنى مثل ما وقع للأعرابى الذى ضل عن ناقته بالليل فجعل يطلبها حتى أعياه الطلب ، فإذا بالبدر قد طلع فبصر بناقته قريبا منه ففرح ولم يتمالك أن نظر إلى البدر فقال يثنى عليه :

ماذا أقول وقولى فيك ذو حصر
وقد كفيتنى التفصيل والجملا

إن قلت لازلت مرفوعا فأنت كذا
أو قلت زانك ربى فهو قد فعلا

وتقول هذه البلاد أهلا ومرحبا ، وتفرح أيضا فرح الآيس من الأولاد لكبر أوطول فقد إذا بشر بغلام ، وفرح المظلوم إذا نصر وأزيلت ظلامته . ثم قال :

فَلْيَهْنِهِ حَجٌّ وَحَجٌّ أشْرَقا
فى أُفْقِ مَجْدٍ قَدْ بَناهُ مُشَيَّدِ

وَمَآبُهُ كالشَّمْسِ تَطْلُعُ بَعْدَما
حُجِبَتْ بنُورٍ ساطِعٍ مُتَجَدِّدِ

وَلْيَهْنِنَا بِلِقائِهِ مَحْفُوظَةً
ساحاتُهُ نَيْلُ الأمانى الرُّغَّدِ

الهنىء والمهنئ : ما أتاك بلا كلفة ، وقد هنأنى الطعام وهنأ لى يهنأ ويهنئ ، وتقول لصاحبك ليهنك كذا وهو التهنئة ، والحج لم يعقد بعلامة التثنية لقصد التفصيل ، وكأنه قيل حج أولا وحج ثانيا ، ومثله قول الحجاج حين نعى إليه

ابنه وأخوه : محمد ومحمد فى يوم : أى محمد ابنى ومحمد أخى ، نظمه الفرزدق فقال : إن الرزية لارزية مثلها فقدان مثل محمد ومحمد

وقد يقع مثل هذا التعبير لقصد الكثرة كقول جرير :

تخدى بنا نجب أفنى عرائكها خمس وخمس وتأويب وتأويب

والمآب : الرجوع ، ويقال رغد العيش بالكسر والضم : إذا اتسع ، ويجوز أن يؤخذ من المكسور راغد إن سمع أو منهما معا بقصد الحدوث فيجمع على رغد كما فى البيت . يقول : فليهنئ الشيخ فوزه بحجتين قد أشرقتا فى أفق المجد المشيد الذى بناه من قبل بعلمه وعمله فكانتا زيادة فيه ، وليهنه مآبه إلى وطنه واجتماعه بمسكنه منورا ظاهر الخير كالشمس تطلع بعد مغيبها بنور ساطع قوى ، وليهننا نحن أيضا معشر أصحابه أو الوافدين عليه نيل الأمانى الواسعة بسبب لقائه فى عافية وسرور محفوظة ساحاته : أى نفسه ودينه أو من يتعلق به .

واعلم أن هذه التهنئة هى الأمر الباعث على هذا القصيد أولا ، فليسم هذا القصيد بالتهانى ، وليسم هذا الشرح : بنيل الأمانى فى شرح التهانى . والله الموفق . ثم قال :

يا حِرْزَ كُلَّ مُوَائِلٍ وَغِيَاثَ كُلْـ ـلِ مُؤَمِّلٍ وَسِرَاجَ كُلِّ مُبَلَّدِ
وَافَتْكَ بِكْرٌ بِنْتُ فِكْرٍ سادِرٍ تُجْلَى حَيَاءً فى رِدَاءٍ مُجَسَّدِ
بَلْ عَنْسُ عَجْفَى مُسْنِتِينَ تَلُفُّهُمْ
هُوجُ الرِّيَاحِ إلى الْكِرَامِ الرُّفَّدِ
غُدِيَتْ بِرَخْصِ الْعَنْبَهَرَيْنِ وَأُجْدِتْ
بِالْعِيدِ وَالْيَعْضِيدِ كُلَّ الْمَنْجَدِ
سَبَقَتْ إلَيْكَ مَعَ الظَّلَامِ بَوَاكِرَ الْـ
غِرْبَانِ بَيْنَ مُشَيِّعٍ وَمُغَرِّدِ
وَتَجَشَّمَتْ أَخْطَارَ أَقْطَارٍ مَتَى أَسْرَى بِهَا طَيْفُ الْخَيَالِ يُهَيَّدِ
مِنْ كُلِّ مَاعَلَمٍ دُوَيْنَ النَّجْمِ لَا
يَسْمُو إلَيْهِ الطَّرْفُ بَعْدَ الْمِنْجَدِ

وَتَنُوقَةٍ فَضْفَاضَةِ الأَذْيالِ لا ... تَهْدِي مَنَايِرُهَا وَخَلِّ جُنْبُجُدِ
مَشْمُولَةٍ مَجْنُوبَةٍ مَصْبُوَّةٍ ... مَدْبُورَةٍ صَدْرَ الخَلِيطِ المُصْعِدِ
وَحِلالُهَا عَلْيَا صِفَاتِكَ وَالحُلَى ... فَأَتَتْ بَهِيجَةَ كَاهِلٍ وَمُقَلَّدِ
تَرْجُو قَبُولَكَ وَالأَمَانَ لِمُشْعِرٍ ... بِذُنُوبِهِ مِثْلَ الهَدِيِّ مُقَلَّدِ

الحرز : الحصن ؛ والموائل : الملتجئ ، يقال وأل إليه وواءل وئالا ومواءلة لجأ إليه ورجع فهو الموائل ؛ والمؤمل : الراجي ؛ وبلد تبليدا : لم يتجه لشيء فهو مبلد ؛ والسادر : المتحير ، وتجلى : تظهر كما تجلى العروس ؛ والجسد والجساد : الزعفران ، وثوب مجسد : مصبوغ به ؛ والرخص : الناعم ؛ والعبهرين : النرجس والياسمين ؛ والعيد واليعضيد : من نبات البادية ؛ ومجدت الإبل وأمجدت : وقعت في الكلأ الكثير ، ومجدتها أنا وأمجدتها : أشبعتها ؛ والممجد بفتح الميم والجيم مصدر بمعنى الإمجاد ، وبكر الغراب وغيره بكورا فهو باكر ؛ والمشيع : المصحوب بغيره ؛ والمفرد ضده ؛ وهيده الشيء تهييدا أفزعه وزجره ؛ والعلم : الجبل المرتفع ؛ والطرف : ناظر العين ؛ والمنجد : الجبل الصغير ؛ والتنوقة : المفازة ؛ والفضفاض : الواسع ؛ والمناثر جمع منار أو منارة ، وهو مايهتدى به في الطريق ؛ والخل : الطريق يخرج بين الرمل ؛ والجنجد : الجبل من الرمل الطويل فهو على حذف مضاف : أى خل ذى جنجد ، أو يقرأ خل جنجد بالإضافة ؛ والمشمول : الذى أصابته الشمال بالفتح ، وهى الريح تهب من ناحية الشمال بالكسر ، وكذا المجنوب أصابته الجنوب ؛ والمصبو : أصابته الصبا ؛ والمدبور أصابته الدبور ؛ والخليط : الخالط للواحد والجنس وهم هنا الرفقاء ، وأصعد فى الأرض ذهب فيها ؛ والحلال جمع حلة من اللباس معروف ؛ والحلى جمع حلية كما مر ؛ والبهيج : الحسن المتزين ؛ والكاهل : ما بين الكتفين ، وقيل ثلث الظهر الأعلى ، وقيل غير ذلك ؛ والمقلد : موضع القلادة ؛ والهدى بالتشديد : واحد الهدايا ؛ وإشعاره بأن يجرح ، وتقليده بأن يجعل فى عنقه قلادة معروفان .

ولما فرغ من التهنئة وما وطئ لها أخذ فى الاستعطاف على ما هو شأن الشعراء فى آخر القصائد ، فقال مخاطبا للممدوح : يا حرز : أى حصن كل

موائل : أى لاجئ إليك ، وغياث كل راج لمعروفك ، وسراج كل متحير فى أمره؛ وافتك : أى جاءتك منى بكر : أى قصيدة بكر لم تستعمل ولم تعرف قبل فشبهها بالبكر من النساء التى تهدى عروسا ، وهذا المعنى مستعمل عند الشعراء فى المعانى المخترعة ، وهذه القصيدة منها ما هو كذلك ، ومنها ما هو مأخوذ ولكنها بجملتها كذلك وهو المراد ، ووصف هذه البكر بأنها بنت فكر لأنه هو الذى استنبطها ، ولكنه فكر سادر بالهموم والأشغال ، فما نشأ عنه من خير فهو من فضل الله تعالى،وما كان غير مرضىّ فليس بغريب ، ولذا قال إنها تجلى بحياء كلابس الثوب المزعفر ، بل هى بمثابة عنس : وهى الناقة الصلبة يحمل عليها ؛ عجفى جمع أعجف : أى مهزول،مسنتون:أصابتهم السنة وهى الجدب تلفهم الرياح الهوج جمع هوجاء ؛ وهى الريح العاصف تقلع البيت إلى الكرام الرافدين من أتاهم ؛ وأخبر أن هذه العنس غذيت : أى أطعمت الناعم من العبهرين ، وأشبعت من العيد واليعضيد كل الإشباع ،وأراد بذلك وصف القصيدة وأنها لم تخل من رقة ألفاظ الحاضرة ، وإلى ذلك أشار بالعبهر لأنه أراد البستانى ولم تخل أيضا من نصاعة ألفاظ العرب أهل البادية ، وإليه أشار بالعيد واليعضيد ، واجتماع النوعين فى القصيدة الواحدة لايستنكر ، ولا سيما إذا روعى فى ذلك مناسبة اللفظ للمعنى فإنه فى المحسنات كقول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأيا عرفت الدار بعـد توهم
أثافىّ سعفا فى معرّس مرجـل ... ونؤيا كجذم الحوض لم يتثـلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها ... ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

والأنسب فى هذا القصيد أن ما كان منه فى سرى الليل وسير المطايا وقطع المفاوز ونحو ذلك ، مما هو شأن العرب أن يجلى فى منصة كلامهم بالألفاظ الجزلة ، وما كان منه فى ذكر الأزهار والأنهار والرياض والحياض ونحو ذلك مما يولع به أهل الحضر أن ينظم فى سلك كلامهم رقة ولطافة ، و ما كان منه فى المديح والوصايا والحكم والأحكام ونحو ذلك مما هو قدر مشترك أن يتوسط ؛ فيه وأخبر أيضا أنها أسرعت إليه ، فسبقت بواكر الغربان ، وهى تبكر تارة مع غيرها وتارة وحدها ، وتجشمت فى سيرها الأخطار فى أقطار

أى جهات بعيدة مخوفة لو سرى فيها الطيف لفزع ، فكيف بمن يبصر بعينيه ونسبة الفزع إلى الخيال من ألطف ما يكون ، وكذا نسبة القصور كما فى قول المعرّى :

وغدوت طيفك فى الجفاء لأنه يسرى فيصبح دوننا بمراحل

وبين تلك الأقطار فقال من كل ما علم : أى جبل قريب من النجوم لاتتطاول إليه عيون الناظرين لعلوه بعد الجبال الصغار ، ومن كل فلاة واسعة لاتهديك منايرها ، أى ليس فيها منار يهتدى به فهى مجهل ، وهذا كقول امرئ القيس :

على لاحب لايهتدى بمناره إذا سافه العود النباطى جرجرا

لأنه إذا لم يكن فيه منار صدق عليه أنه لم يهتد بمناره ، وصدق أنه لم يهدك مناره ، ومن طرق بين الرمال صعبة على السالكين خالة كونها تراوحها الرياح الأربع ، وكل ذلك تقاسيه حرصا على لقائك وقد أتتك وصفاتك الكريمة الفاضلة هى حلى لها وحلاها : أى إنما تزينت بما وقع فيها من صفاتك والثناء عليك وعلى سيرتك ، فتزين كاهلها بالحلل ومقلدها بالحلى ، ترجو بذلك كله القبول لها ولصاحبها ، والإقبال والأمان منك بإذن الله ، والأمان من الله على يدك لرجل مخلط قد أكثر من الذنوب حتى اشتهر بها اشتهار الهدى بالإشعار والتقليد : يعنى نفسه . ثم قال :

وَجِلٍ لِمَا اكْتَسَبَتْ يَدَاهُ مُشْفِقٍ

خَجِلٍ مِنَ السَّطْرِ المُسَوَّدِ مُخْرِدِ

غَلِقٍ بأغْلاقِ التَّبائِعِ ظَهْرُهُ وَرِهانُهُ إنْ لَمْ تُداوِ وَتَفْتَقِدِ

الوجل بكسر الجيم : الخائف ؛ والخجل : المستحيى ؛ وأخرد : استحيا أو سكت عن ذل ؛ والسطر المسطر : أى المكتوب . ويقال : غلق ظهر البعير : إذا دبر دبرا لايبرأ ، وغلق الرهن : ذهب فى الدين . والإغلاق جمع غلق : وهو ما يغلق ؛ والتبائع جمع تباعة بالكسر : وهى الظلامة . ولفظ وجل بالجر وصف لما قبله : أى ترجو الأمان لشعر بذنوبه وجل لما اكتسبت يداه من الذنوب . مشفق على نفسه من المؤاخذة . خجل ساكت لايستطيع

كلاما من المكتوب المسوّد بالخطايا : يعنى صحيفته ؛ غلق ظهره ورهانه استعمالا للفظ المشترك فى معنييه على أنه جائز وهو الصحيح ، وتقدم أيضا مثله فى جفن ، وقوله تداوى : هو بحسب المعنى الأول : وهو الدبر ؛ وقوله تفتدى بحسب المعنى الثانى : وهو البقاء فى الدين جعل التبائع إغلاقا على الظهر . ثم قال :

يَرْجُو السَّعَادَةَ وَالوُصُولَ إلى العُلا ... لَوْلا وُجُودُكَ فى الزَّمَانِ الأَبْعَدِ

مُتَمَنِّيا شأْوَ الَّذِينَ تَوَسَّطُوا ... كَبِدَ السَّماءِ عَلى مَشْيِ الأَكْبَدِ

وَبِفِكْرَةٍ مَفْلُولَةٍ وَعَزِيمَةٍ ... رَذِيَتْ وَقَلْبٍ لِلْبَطالَةِ مُخْلِدِ

وَيَرُومُ صَفْوَ الوِرْدِ وَهْوَ مُكَدَّرٌ ... بِهَوَاهُ حَيْثُ صَفا لِكُلِّ مُغَرِّدِ

وَيَرُومُ سَعْيا وَهْوَ عانٍ مُوثَقٌ ... بِحُظُوظِهِ رَوْمَ الطَّرِيحِ الأَقْعَدِ

الأبعد : ما لاخير فيه ؛ ورذى الشيء فهو رذ ، والجمع رذايا : وهو الذى أضعفه المطر ، ويطلق على الضعيف مطلقا ؛ وغرد الرجل تغريدا : تفقه واعتزل للعبادة ، وفى الحديث « سبق المغردون [1] » وهم المستهدون بذكر الله تعالى . يقول : إن هذا الرجل الموصوف فيما قبله يرجو السعادة : أى حصول آثارها ، والوصول إلى المنازل العالية فى الدين والصلاح فى زمن نحس لاخير فيه ، لولا أنك موجود فيه ، ففى الكلام تقديم وتأخير ، وإنما يرجوه مع ذلك بفكرة عنده مفلولة بالجمود الأصلى ، والعوارض المكدرة ، وعزيمة ضعيفة لاتنهض لخير ، وقلب مخلد إلى البطالة ساقط ، ويروم ورود الصافى وهو مكدّر بهواه ، ويروم سعيا فى مقامات السالكين وهو عان : أى أسير شهواته موثق بحظوظه ، فهو فى ذلك كالطريح فى الأرض المقعد يروم مشيا . ثم قال :

---

(١) هذه المادة والحديث بالفاء لا بالغين ، وبقية الحديث : وهم المهتزون بذكر الله كما فى النهاية .

فإذَا عقَدْتَ لهُ جِوَارَكَ لَمْ يَخَفْ
مِنْ مُبْرِقٍ أبَدًا ولا مِنْ مُرْعِدِ
فإذَا جَذَبْتَ بِضَبْعِهِ فأقَمْتَهُ لَمْ يَحْتَفِلْ بِمُصَفِّدٍ وَمُشَرِّدِ
إنَّ الكَرِيمَ وأنْتَ ذَاكَ مُؤَمَّلٌ لفِكَاكِ مَصْفُودٍ وَغُنْيَةِ مُصْفِدِ

الجوار بالكسر : الذمة ، يقال أجاره وعقد له ، ويقال أيضا أجاره : إذا أنقذه ، وأجاره : إذا خفره ؛ وبرق ورعد وأبرق وأرعد : تهدد وتوعد وأصله فى السحاب ، ومن اللغويين من ينكر الرباعى فى هذا المعنى ، وهو مستعمل كما فى قوله :

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لى بضار

والضبع بضم الباء وتسكن تخفيفا : العضد ، وصفده صفدا وتصفيدا : قيده وشرده تشريدا : طرده ؛ وأصفده : أعطاه . يقول : إنك إذا أعطيته ذمة فكان فى جوارك لم يبال بمن برق ولا بمن رعد ، وإذا أخذت بعضده فأقمته لم يبال بمن يروم تصفيده أو تشريده عن أبواب الخير ، وهو الشيطان والنفس والدنيا ، فإن الكريم من الناس ليس فى الوقت إلا أنت مرجوّ لفكاك مصفود : أى لأن يجيره من القيد أو ينقذه منه إذا وقع ؛ ومؤمل لغنيمة مصفد : أى لأن يغنى طالب الصفد وهو العطاء ، أو يغنى من أعطى قبل شيئا لايكفيه ثم قال :

فاسْلَمْ لِدَهْرٍ كُنْتَ شَمْسَ نَهارِهِ
والبَدْرَ فيهِ بِلا كُسُوفٍ يَعْتَدِ
وَلأُمَّةٍ تَخِذَتْكَ حِصْنا حَيْثُما فَزِعَتْ وَغَيْثا حَيْثُما لَمْ تَعْهَدِ
إنْ يَشْتَكُوا خَطْبا تَكُنْ مِنْ دُونِهِ
أوْ يَرْتَجُوا عُظْمَ الرَّغائِبِ تُسْعِدِ
سَعِدَتْ بِغُرَّتِكَ اللَّيالِى واسْتَمَتْ
وَمَنِ انْتَمَى لِذَوِى السَّعادَةِ يَسْعَدِ

العهد : المطر بعد المطر جمعه عهاد ، وخطوب الدهر : صروفه المهمه. يقول : اسلم أيها الشيخ : أى سلمك الله وأبقاك لدهر أى زمان أنت نوره ، فأنت شمس نهاره وبدر ليله ، غير أنك لايعتدى عليك بفضل الله ومنته وحفظه كسوف ، وبهذا خرج التشبيه عن الابتذال ، فان أريد حقيقة الكسوف فلا يكون قطعا ، إذ لامعنى له إلا فى النيرين ، وإن أراد ما هو بمعناه كالسلب والسقوط فلا يكون بفضل الله كما قلت . واسلم أيضا لأمة : أى جماعة المسلمين أو جماعة أتباعك وأشياعك تخذوك : أى تخذوك حصنا يلجئون إليه عند الفزع والروع وغيثا يشربون به ويخصبون إذا لم يمطروا ، فمتى اشتكوا خطبا من خطوب الدهر كنت دونه ، فحلت بينه وبينهم ، ومتى ارتجوا الرغائب : أى العطايا العظمى أسعدتهم بما رغبوا وأوليتهم ما طلبوا فقد سعدت بغرة وجهك اللبالى : أى وأيامها ، وذهب منها النحوس فلا يلقى معها إلا الخير ، ومن انتمى : أى انتسب نوع انتساب ولو بالمقارنة كالزمان ممن كان فيه من أهل السعادة يسعد بذلك ، هذا إذا أريد الزمان نفسه ، فإن أريد أهله فالانتماء ظاهر ، وكذا حصول السعادة إما دائمة وإما فى الوقت ؛ وقد حدثنى بعض الإخوان قال : قلت للشيخ رضى الله عنه يوما : يا سيدى ما يمنعك أن تسأل الله لأهل زمانك كافة ،وأى شىء فى ذلك عند الله تعالى مع أوليائه ؟ قال فقال لى : أهل زمانى ثلاثة أصناف من كان عليه الطابع فلا كلام فيه ، ومن أحبّ فهو لاحق به ، وغيرهما ينتفع بدعائنا فى الدنيا ، حقق الله تعالى له ذلك ولنا بجاهه ولجميع الإخوان وسائر المؤمنين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد ما ذكره الذاكرون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون ؛ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وآل كل ، والحمد لله رب العالمين .
